موسوعة
تاريخ مصر
N
نوبليس

موسوعة

التاريخ المصري

(١٨)

الدكتور أحمد فؤاد سيد

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد الثامن عشر

تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب - ١ -

٥٦٧ هـ - ٦٤٨ هـ

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة التاريخ المصري
اسم الكتـــاب:	تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب - ١ -
اسم المؤلــف:	الدكتور أحمد فؤاد سيد
قيـاس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	١٩٦
عدد صفحات الموسوعة:	٨٨٤٠
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبليس
تلفاكس:	٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١
هاتــف:	٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ - ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9

الإهداء

إلى ابنتي دعاء ، حفظك الله ورعاك ،

ووهبك النجاح والتوفيق .

والدك

أحمد فؤاد سيد

المحتويات

الموضـــــــــــــــوع | الصفحة

المقدمة

لاتزال المكتبة العربية الحديثة تفتقر إلى كتاب شامل مفصل موثق عن عصر سلاطين بنى أيوب ؛ رغم أهمية هذا العصر بين عصور مصر الإسلامة ، وارتباطه بتأصيل تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى ، وتاريخ فتوح الإسلام لمدينة القُدس .

وأهم ما يميز عصر سلاطين بنى أيوب ، هو توحيد الجبهة العربية الإسلامية لاسترداد القُدس من الفرنج ؛ وعودة سيادة الخلافة العباسية على مصر ، والفكر السنى إليها ؛ وإنزواء الفكر السياسى الإسماعيلى عنها .

وإذا كان تقى الدين المقريزى ، شيخ مؤرخى مصر الإسلامية المتأخرين ، قد حقق فى كتابيه : إتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، والمواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، صحة نسب الخلفاء الفاطميين ؛ فلا ريب أن من مفاخر مصر وفضائلها ، أنها شهدت قيام دولة الخلافة الفاطمية على أرضها ؛ والواقع أن هذه الدولة العلوية المنسبه الشريفة ، تُعَدّ من أعظم دول الإسلام ، وفى عهدها ، تحولت مصر إلى حاضرة دولة الخلافة الإسلامية ، وأصبح الخلفاء الفاطميون بمصر ، يزاحمون أبناء عمومتهم من خلفاء بنى العباس بالعراق ، زعامة العالم الإسلامى .

وهنا تجدر الإشارة ، إلى أن التشكيك والطعن فى نسب الخلفاء الفاطميين ، إنما جاءأولاً من قِبل دولة الخلافة العباسية المنافسة لها فى بلاد العراق ؛ ثم جاء ثانيًا من قِبل الدولة الأيوبية الموالية لدولة الخلافة العباسية ، التى استبطنت دولة الخلافة الفاطمية فى عصرها المتأخر ، وقامت على أنقاضها .

ولا يخفى أن حُبّ الشعب المصرى لآل البيت النبوى الشريف ، والعترة النبوية الشريفة ، قد استقوى بمصر واستمر إلى اليوم ، بسبب انحدار الخلفاء الفاطميين الذين اشتهروا بـ (المصريين) من النسل النبوى الشريف ؛ فضلاً أن مصر منذ العصر الأموى وطوال العصر العباسى ، قد عاش فيها بطون كثيرة من الأشراف والقُرشيين بصفة عامة ، ومن العلويين بصفة خاصة ، وخرج بها عدد كبير من الأئمة العلويين مطالبين بالخلافة ؛ على نحو ما تتبع ذلك المؤرخ أبو عمر الكندى فى كتابه ولاة مصر ، والمقريزى والقلقشندى فى كتبهم عن تاريخ القبائل العربية بمصر . بمعنى أن عددًا كبيرًا من آل البيت النبوى الشريف ، قد أحبوا مصر ، وعاشوا بها ؛ وأحبهم أهل مصر ، وتعلقوا بهم ، وشادوا لهم الأضرحة والمزارات ، وتبركوا بها ، مثل مشاهد : السيدة نفيسة ، والإمام الحسين ، والإمام زين العابدين ، والإمام الحسن الأنور .

ولكن بضعف دولة الخلافة الفاطمية فى عصرها المتأخر ، بسبب صغر سن الخلفاء ، واستبداد وزراء السيوف المفوّضين ، والانقسامات السياسية والمذهبية التى ألمت بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية، ونجاح الفرنج فى احتلال القُدس وساحل الشام ، وعجز خلفاء الفاطميين الأواخر عن النهوض بفريضة الجهاد فى وجه الروم والفرنج ، وتتابع الأزمات الاقتصادية على مصر ؛ فقدت الدولة الفاطمية مبرر بقاءها ووجودها ، وتعيّن أن تقوم على أنقاضها دولة فتية قوية ، تسعى لجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم ، لقتال الفرنج ، واسترداد القُدس وساحل الشام .

ومما لا شك فيه ، أن انقسام العالم الإسلامى منذ القرن الرابع الهجرى ، إلى خلافة عباسية سنية وخلافة فاطمية شيعية ؛ هو الذى أدّى إلى اختراق حركة الفرنج لبلاد الشام ، واستيلائهم على ساحله، واحتلالهم للقُدس .

***

ولم يغب عن خلفاء وسلاطين الإسلام الذين عاصروا حركة الفرنج للاستيلاء على بيت المقدس وساحل الشام ، أن الخطّة المثلى ، والاستراتيجية العامة ، للتصدى لهذا الغزو ، واستئصال شأفته من بلاد الشام ، ترتكز على عِدّة محاور :

أولاً : توحيد مصر والشام والعراق فى قيادة مشتركة ، أو على الأقل فى تعاون مشترك ، لحصر الفرنج وإماراتهم ببيت المقدس وساحل الشام بين شِقّى الرّحى ؛ على نحو ما تمّ - كما أفاد المقريزى فى كتابه اتعاظ الحنفا - بين السلطان نور الدين محمود زنكى - سلطان الشام والجزيرة الفراتية - ودولة الخلافة الفاطمية ، زمن وزارة الوزير الفاطمى العادل بن سلار ، ثم زمن وزارة الوزير الفاطمى الصالح طلائع بن رزيك ، ثم زمن وزارة الوزير الفاطمى أسد الدين شيركوه ، ثم زمن وزارة الوزير الفاطمى صلاح الدين الأيوبى ، ثم بعد إعلان صلاح الدين الأيوبى سقوط دولة الخلافة الفاطمية بمصر ، والدعوة بها للخليفة العباسى المستضىء بالله ، والسلطان نور الدين زنكى ولنفسه بعدهما .

وقد رَضى نور الدين زنكى ، رغم حماسه للمذهب السُّنّى ، أن يلبس خِلَعْ خلفاء الفاطميين الشيعة ، لتفويضه للنهوض بفريضة الجهاد ؛ ورضى شيركوه وصلاح الدين هذا الأمر أيضًا ، لنفس الهدف السامى ؛ وقَبل الخليفة الفاطمى العاضد الإستنجاد بنور الدين زنكى للحيلولة دون احتلال الفرنج لمصر ، ورحب بشيركوه وصلاح الدين ، وهما من قواد نور الدين ، لتمكنهما من ضبط

الدولة الفاطمية ؛ وصرّح الخليفة العاضد أنه مستعد للتضحية بملكه ودولة خلافته ، فى سبيل أن تظل مصر « إسلامية » ، ولا يحتلها الفرنج ؛ حكى ذلك كله المقريزى فى كتابه اتعاظ الحنفا .

ثانيًا : العناية بالأسطول المصرى بصفة خاصة ؛ الذى بقى طوال العصر الفاطمى ، وحتى بعد احتلال الفرنج لبيت المقدس وساحل الشام ، أقوى قوة بحرية إسلامية ضاربة ، تستطيع مواجهة أساطيل الفرنج والجمهوريات الإيطالية فى البحر المتوسط ، وتهديد إماراتهم فى ساحل الشام ، وعزلها عن إمداداتها القادمة عليها من وراء البحر من سواحل غرب أوروبا ، وجزر البحر المتوسط التى استولى عليها الفرنج ؛ وقد رَصَد المؤرخون (سبط ابن الجوزى - المقريزى) جهود الأسطول الفاطمى فى هذا المجال ، بعد احتلال الفرنج للقُدس سنة ٤٩٢هـ ، وتكوين إماراتهم فى أنطاكية والرُّها وطرابلس وعكا (٤٩٠هـ - ٤٩٥هـ) ؛ وذلك إبان تولى الأفضل بن بدر الجمالى ، ثم العادل سلار ، ثم الصالح طلائع بن رزيك ، لوزارة التفويض والسيف لخلفاء الفاطميين الأواخر .

وفى ضوء هذا المحور الثانى ، ندرك الأهمية الكبرى لوصية شيركوه ، حين أَحَسّ بدنو أجله ، بضرورة العناية بالأسطول المصرى ، كما حكى المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، وهو الأمر الذى امتثله إبن أخيه صلاح الدين الأيوبى بعده ، فأفرد ديوانًا للأسطول ، وأوقف عليه أوقافًا وأحباسًا ، وعَهِدَ بالإشراف عليه ، وبنيابة ثغر الإسكندرية إلى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب ؛ وهو الأمر الذى تَفَهَّمَه بعد ذلك السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، حين بنى قلعة جزيرة الروضة فى بحر النيل ، لتكون قلعة وحصنًا له ولجيشه ، فى حالة تفكير الفرنج فى غزو مصر ، وفى نفس الوقت لتكون دار صناعة وقاعدة حربية بحرية للأسطول المصرى فى بحر النيل ، للدفاع عن مصر ، إذا ما حاول الفرنج غزوها بَرًّا وبحرًا .

وقد تَجَلّى بعد نَظَر السلطان الصالح نجم الدين أيوب - الذّى عَدّه أبو المحاسن بن تغرى بردى أعظم سلاطين بنى أيوب بعد السلطان صلاح الدين - وحُسن تدبيره ، فى الانتصارات الحاسمة العظيمة ، التى حققها الأسطول المصرى على أساطيل الفرنج عند احتلالهم لدمياط سنة ٦٤٨هـ فى معارك : المنصورة ، وفراسكور ، ودمياط ؛ إذ تمكن الأسطول المصرى بقيادة أمراء المماليك الصالحية البحرية ، من تحطيم أغلب أساطيل الفرنج التى حاولت تأمين احتلالهم لدمياط ، وأسر أغلب سفنها وأغلب مُقاتليها وبَحّارتها ؛ مما يشير إلى أن سبب تسمية المماليك الصالحية البحرية باسم «البحرية» ،

وصيرورة هذا الاسم علمًا على دولتهم المماليكية الأولى بمصر ، هو تدربهم على القتال البحرى وقيادة الأساطيل البحرية ؛ وهو أمر تتوفر له قرائن كثيرة ، وسوف نفرد له بحثًا إن شاء الله .

وقد أفصح القاضى بهاء الدين إبن شداد فى سيرته للسلطان صلاح الدين الأيوبى المسماه النوادر السلطانة والمحاسن اليوسفية ، إن الخطة العامة لصلاح الدين فى قتال الفرنج واستئصالهم من ساحل الشام ، كانت فى استخدام الأسطول فى قطع وصول الإمدادات إليهم من غرب أوربا ، ثم استئصال شأفتهم من بلاد الشام ، ثم تتبعهم فى سواحل بلادهم وجزرهم فى قارة أوربا وجزر البحر المتوسط ؛ ذكر ذلك ابن شداد ، فى الفصل الذى أفرده لذكر حب السلطان صلاح الدين للجهاد .

هذا وقد أوضح أبو شامة فى كتابه الروضتين فى ذكر أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، إن الخطة العامة لنور الدين وصلاح الدين للتعاون فى قتال الفرنج بالشام ؛ كانت تقضى بأن يقصدهم نور الدين من بلاد الشام من السهل والجبل ، ويقصدهم صلاح الدين من مصر ، من البّر والبحر .

ويستخلص من أحداث العصر الأيوبى ، أن ثغر الإسكندرية ودار صناعته ، كانت قاعدة بحرية للأسطول المصرى المهاجم لإمارات الفرنج بساحل الشام ، ثم مهاجمة الجزر التابعة للفرنج فى البحر المتوسط وبحر إيجة (قبرص - أرواد - رودس - صقلية) ؛ وأن قلعة جزيرة الروضة ودار صناعتها ، كانت قاعدة بحرية للأسطول المصرى المدافع عن مصر أمام حملات الفرنج الهادفة إلى غزو مصر ؛ والجدير بالذكر أن الهروى السائح فى كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات ، ذكر أنه زار جزيرة صقلية ، بعد استرداد السلطان صلاح الدين الأيوبى للقدس سنة ٥٨٤هـ ، فناشده أهل صقلية المسلمون ، أن يخبر السلطان صلاح الدين برغبتهم أن يقوم بفتح صقلية ، واستردادها من الفرنج . وقد حاول سلاطين المماليك - تلامذة سلاطين بنى أيوب - إكمال وتنفيذ استراتيجيتهم الحربية البحرية ، فقاموا باستئصال الفرنج من ساحل الشام ، بإسقاط إمارة عكا ؛ كما قاموا أيضًا بفتح جزيرتى قبرص ورودس .

ثالثًا : جعل البحر الأحمر والقرن الأفريقى والخليج العربى والمحيط الهندى ، بحيرة إسلامية ؛ وذلك بهدف حماية بلاد الحجاز والحرمين الشريفين وجزيرة العرب ، من محاولات الفرنج تهديد قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ وذلك عن طريق قيام جبهة إسلامية موحدة ، ودولة خلافة إسلامية كبرى ، تضم بلاد العراق والشام والجزيرة الفراتية ومصر واليمن ؛ وعن طريق

القضاء على ممالك البجة والنوبة والحبشة المتعاونة مع الفرنج ، وإدخالها فى الإسلام ؛ وهو ما تم فى العصر المماليكى ، فى عهود سلطنات بيبرس وقلاوون وأولاده .

ولم يتأت تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة ، إلا بعد القضاء على الكيانات السياسية الشيعة الإسماعيلية فى بلاد الشام واليمن ، التى ألم بها الضعف والتفكك فى نهاية العصر الفاطمى ؛ بعد انقسام الدعوة الفاطمية بمصر ، إثر وفاة الخليفة الفاطمى المستعلى ، إلى مستعلية ونزارية ؛ وبعد تغلب وزراء السيوف المفوضين على خلفاء الفاطميين الأواخر ، والاستبداد بالسلطة دونهم .

وفى هذا ما يفسر الفتح الأيوبى الأول لليمن زمن صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩هـ ، وإدخال بنى أيوب لكتب الفكر الأشعرى السنى إلى اليمن ، كما أفاد المؤرخ اليمنى يحى بن الحسين فى كتابه أنباء الزمن فى تاريخ اليمن ؛ وما يفسر فتح السلطان الصالح نجم الدين أيوب لليمن فى عهد سلطنته، وتلقبه بـ (ملك السند والهند واليمن) ، ونقشه هذه الألقاب على نقوشه الرسمية فى قبته ومدرسته الصالحية بمصر ، وغيرها .

لقد تحولت مصر ، منذ قيام الدولة الأيوبة بها (٥٦٧هـ) ، من دار خلافة ، إلى ولاية استيلاء تابعة للخلافة العباسية ؛ ولكنها سرعان ما تبوأت فى ظل سلاطين بنى أيوب ، مكانة لا تقل أهمية عمّا كانت عليه فى ظل الخلافة الفاطمية ؛ وذلك لميراثها للخلافة الفاطمية بمصر (٥٦٧هـ) ، واليمن (٥٦٩هـ) ، والحجاز (٥٦٩هـ) ؛ وللسلطنة الزنكية بالشام (٥٦٩هـ ٥٧١هـ) ، والجزيرة الفراتية (٥٧٧هـ) ؛ ولنجاحها فى ضم القيروان ، من ممتلكات الخلافة الموحدية بالمغرب (٥٦٨هـ- ٥٨٣هـ) ؛ وضم إقليم أرمينية الإسلامية ، وهى بلاد خلاط وميافارقين ونواحيهما (٥٧١هـ- ٥٨١هـ) ، وهو إقليم لم يخضع من قبل للخلافة الفاطمية ، وتم ضمه إلى مصر ، لأول مرة فى تاريخها الإسلامى ، على يد الأيوبيين .

وعلى يد الأيوبيين أيضًا ، تمت موجة جديدة من الفتوحات الإسلامية ؛ فغزا الأيوبيين مملكة النوبة المسيحية (٥٦٨هـ) ، ومملكة أرمينية المسيحية (٥٧١هـ) ؛ وحققوا أعظم انتصاراتهم الحربية بتصديهم لجهاد الفرنج بالشام ، واسترداد بيت المقدس من أيديهم (٥٨٣هـ) ؛ وقد كلّل الأيوبيون جهودهم فى إعلاء شأن مصر ، بأن عقدوا حلفًا مع الإمبراطورية البيزنطية (٥٨٥هـ) ، يقضى بعزلها عن تأييد الحركة الصليبية ، وإعلان الخطبة بالمسجد الجامع بمدينة القُسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، للخليفة العباسى ، وسلطان مصر (٥٨٦هـ) ؛ كما وقع سلاطين بنى أيوب (صلاح

الدين ـ العادل الأول ـ الكامل ـ الصالح نجم الدين أيوب) معاهدات مشروطة مع الجمهوريات الإيطالية التجارية (بيزا ـ البندقية ـ جنوه) ، قضت بعزل هذه الجمهوريات عن الحركة الصليبية ، وبيعها السلاح والعبيد المسيحى والمواد اللازمة لصناعة السفن لسلاطين بنى أيوب والمسلمين ، دون الفرنج ، وهو ما يمثل خيانة صريحة من هذه الجمهوريات للحركة الصليبية وللبابوية الكاثوليكية .

* * *

والواقع ، أن دولة الخلافة الفاطمية ، كانت أعظم دول الإسلام التى حكمت مصر ؛ وناهيك دليل على ذلك كتاب إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزى شيخ وكبير مؤرخى مصر الإسلامية ، والدلالة الواضحة لعنوان كتابه فى هذا الصدد ؛ والمجلد الضخم والأجزاء المطولة التى أفردها وخصصها المقريزى للحديث عن تاريخ الخلفاء الفاطميين بمصر ونظمهم ورسوم دولتهم والاحتفالات والأعياد والمواسم الدينية والقومية والوطنية التى ازدهرت بمصر فى عصرهم ، فى كتابه الخطط ، نقلاً عن مؤرخى العصر الفاطمى نفسه مثل ابن زولاق والقُضاعى والمسبحى وابن المأمون وابن الطوير وغيرهم ؛ لنقف على مدى الإزدهار السياسى والثقافى والحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، الذى شهدته مصر وشهده شعب مصر ، فى ظل هذه الدولة الإسلامية العُظمى ، دولة الخلافة الفاطمية ؛ وهذا الاهتمام بتاريخ الدولة الفاطمية ، فى مؤلفات المقريزى ، لم تحظ به أى دولة إسلامية أخرى حكمت مصر ؛ وهذا ما نلمسه أيضًا فى موسوعة صبح الأعشى للقلقشندى ، عند حديثه عن رسوم المكاتبات الفاطمية .

والمعروف ، أن أجمل رسوم وعادات وتقاليد الاحتفالات والأعياد والمواسم الدينية الباقية بمصر إلى الآن ؛ سواء فى الأعياد الدينية (عيد الأضحى ـ عيد الفطر ـ رمضان) ؛ أو الأعياد القومية (وفاء النيل ـ شم النسيم) ، وما يصاحبها من مأكولات جميلة شهية ، يرجع أغلبه إلى عصر الخلافة الفاطمية؛ بدليل أننا لا نجد هذه الاحتفالات والعادات والتقاليد ، فى البلاد العربية والإسلامية التى لم يمتد إليها النفوذ السياسى لدولة الخلافة الفاطمية .

وليس أدلّ على حُبّ الشعب المصرى لدولة الخلافة الفاطمية ، واعتزازه بها ، لأنها قامت على يد آل البيت النبوى من العترة النبوية المطهرة ، من تردّد صلاح الدين الأيوبى فى إعلان سقوطها ، وإسقاط اسم الخليفة الفاطمى العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر من الخطبة الجامعة على المنابر ؛ رغم الإلحاح المتكرر لنور الدين زنكى بسرعة إنجاز هذا الأمر ، والخطبة للخليفة العباسى على منابر

مصر ؛ حتى أن صلاح الدين الأيوبى لم يجرؤ على إتمام هذه الخطوة الأخيرة فى إعلان سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، إلاّ بعد إرسال نور الدين زنكى له أباه نجم الدين أيوب ، ليتولى بنفسه إعلان هذا الأمر الجلل ، وليجد فيه صلاح الدين المشجع والسند والمشير والمؤَجِّه ؛ وعَلّلَ صلاح الدين لنور الدين إحجامه وتردده فى إعلان زوال الخلافة الفاطمية بمصر ، بخوفه من انتفاضة المصريين وثورتهم عليه .

وأفصَحَتّ الثورات ومحاولات الانقلاب المتكررة على صلاح الدين الأيوبى ، أول استقلاله بالحكم بمصر ، على مدى حُبّ المصريين للدولة الفاطمية ، وولائهم لها ، وتعلقهم بها ؛ والذكريات الجميلة التى حملوها واحتفظوا بها لهذه الدولة ، حين كانت فى أوج مجدها وقِمّة ازدهارها ، ومنتهى نفوذها وسطوتها وقوتها ؛ وهى ثورات وانقلابات عديدة ، لم تقتصر على مدينة القاهرة ، بل تعدتها إلى مدينة الإسكندرية ، ومدن صعيد مصر .

وَوَشَتّ تصرفات سلاطين بنى أيوب أنفسهم عن اقتناعهم الشخصى الداخلى بصحة نسب الخلفاء الفاطميين ، وآل البيت الفاطمى ؛ فنجد أن صلاح الدين الأيوبى ، وخلفاءه من سلاطين بنى أيوب ، كانوا يتورعون عن قتل آل البيت الفاطمى ، ويكتفون بسجنهم أو نفيهم بعيدًا عن مصر ، حتى لو اتضح أنهم حاولوا بالفعل قلب نظام الحكم الأيوبى ، وإعادة الخلافة الفاطمية .

وإذا كان بعض كبار مؤرخى العصر المماليكى مثل أبى العباس القلقشندى فى كتابه مورد اللطافة ، قد ألمح إلى ترجيحه صحة نسب الفاطميين ؛ فإن الحافظ المؤرخ شمس الدين السخاوى قد تجاهر فى كتابه استجلاب ارتقاء الغُرّف بحب أقرباء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذوى الشرف، بحبه لمن عاش بمصر من العترة النبوية ، وأشاد بكثرة أسانيد آل البيت بمصر التى وصلت إليه، واحتفظت بها مصر فى العصر الفاطمى ؛ وفى نفس الوقت ، راح حفاظ ومؤرخو مصر فى العصر المماليكى ، يستعيضون عن عدم إظهار مودتهم لدول الخلافة الفاطمية ، ـ مجاملة لسلاطين بنى أيوب ولتلامذتهم سلاطين المماليك ـ بالتأليف بكثرة تمثل ظاهرة ثقافية ، عن فضائل ومناقب آل البيت النبوى والعترة النبوية الشريفة .

ولكن رغم الحب الدفين الذى أخفاه مؤرخو العصر الأيوبى والمماليكى للخلفاء الفاطميين ، لكونهم من نسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فقد أجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى ، قد أعان السلطان صلاح الدين الأيوبى وأيده ، فى القضاء على دولة الخلافة الفاطمية ، بعد أن ألم بها

الضعف نتيجة لسلبيات الفكر السياسى الشيعى الإسماعيلى ، وأصبحت غير قادرة على توحيد العالم الإسلامى ، والنهوض بفريضة الجهاد ؛ بل أصبحت حتى غير قادرة على حماية الديار المصرية ذاتها من أخطار غزو الفرنج لها فى عُقر دارها .

***

وقد حقق تقى الدين المقريزى ، وهو شريف حسينى ، يشارك الفاطميين فى الانتساب إلى العترة النبوية الشريفة ، فضلاً عن إعجابه الشديد بتاريخ الدولة الفاطمية ـ ؛ حقق المقريزى ، أن جميع النظريات السياسية الفاطمية الإسماعيلية ، التى غَلَتّ فى ذات الخليفة الفاطمى والأئمة الفاطميين ، غريبة عن الإسلام ؛ وأن أصلها يرجع إلى آراء الفرقة السبأية من غُلاة الشيعة ، الذين نسبوا إلى عبد الله بن سبأ ، وهو أحد مسالمة اليهود ، ممن أبطنوا اليهودية وتظاهروا بالإسلام ، وأدّعى ألوهية الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فأعلن الإمام على تبرؤه منهم ، وتكفيره لهم ؛ كما حقق المقريزى أيضًا أن جانبًا آخر من النظريات السياسية الفاطمية ، يرجع إلى مذاهب الشعوبية من مسالمة الفرس ، الذين أبطنوا المجوسية .

وقد قصد دُعاة الفاطميين ، من وراء هذه النظريات السياسية ، تقوية مبدأ « الولاية » أى الطاعة لأئمة الفاطميين ، وإعلاء شأن خلفاء الفاطميين على خلفاء بنى العباس المنافسين لهم فى الخلافة والسيادة على العالم الإسلامى ؛ وهذا ما حققه محمد كامل حسين فى كتابيه : « الأدب المصرى فى العصر الفاطمى » و « دراسات فى الشعر الأيوبى » ، وفَسّر به نظريات وعقائد الشيعة الإسماعيلية فى القول بعصمة الأئمة ، وميراثهم للعلم اللدنى ، والقول باستتار الأئمة ورجعتهم ، وكون الإمام الفاطمى ، هو المجتهد المطلق فى الشريعة الإسلامية .

ولم يستطع الفاطميون بعد قيام خلافتهم فى إفريقية التونسية وبلاد المغرب ، ثم انتقالها إلى مصر واستقرارها بها ؛ أن يتراجعوا عن هذه النظريات السياسية الغريبة عن الإسلام ، بعد أن استقرت فى نفوس وأذهان وقلوب العوام من أنصار وأتباع دولتهم ، وأصبحت من محاور الدعاية الفاطمية ، لإعلاء شأن الخلفاء الفاطميين على شأن أبناء عمومتهم من خلفاء بنى العباس بالعراق .

***

والجدير بالإلتفات والتأمل والتدبر ، أن علوم الحديث والسُّنة ، ظلت مزدهرة وفى نماء وتطور ونضوج دائم فى العصر الفاطمى ؛ رغم تشدد الفكر السياسى الإسماعيلى الفاطمى فى عدم قبول الأحاديث والأخبار عن غير أئمة الشيعة ومن غير آل البيت النبوى ؛ ونقده وتجريحه لغير أئمة الشيعة وغير آل البيت من حفظة ورواة الحديث .

وقد ترجم لوفيات النقلة من نقلة العلوم الدينية النقلية السمعية الشرعية ، وحُفّاظ الحديث ورواته ، الذين عاشوا بمصر فى عصر الخلافة الفاطمية ، عالمان من علماء الجرح والتعديل المصريين من أهل السنّة ، وهما : ابن الحَبّال ، وابن الطحان ، ولكل منهما كتاب فى الجرح والتعديل ونقد رجال الحديث وصل إلينا مطبوعًا .

أما من أدرك من حفاظ ومحدثى مصر العصر الأيوبى ، وعاصر الدولتين الفاطمية والأيوبية ، فقد ترجم لهم الحافظ ابن نُقطة فى كتابه وفيات النقلة ، والحافظ المُنذرى فى كتابه التكملة لوفيات النقلة .

ولم يُجبر الخلفاء الفاطميون المصريين من العامة أو العلماء والخاصة ، على الالتزام بالفكر السياسى والكلامى الإسماعيلى الفاطمى ؛ وظل تدريس كتب الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مقتصرًا على دار الحكمة وعلى الجامع الأزهرى ؛ أما بقية جوامع ومساجد مصر ، فلم يُلزم خلفاء الفاطميين أئمتها وخطباءَها وعلماءَها بتدريس الفكر الفاطمى وكتب الدعوة الإسماعيلية ، وتركوا لهم حرية الفكر والتدريس .

ولم يمانع الخلفاء الفاطميون فى إسناد منصب قاضى القُضاة لبعض العلماء السّنيين الشافعية ، مثل القاضى مجلى ؛ على نحو ما أفاد السيوطى فى كتابه حُسن المحاضرة عند ذكره لقُضاة مصر ، وعلى نحو ما أسهب السبكى فى كتابه طبقات الشافعية عند ترجمته للقاضى مجلى ، من التنويه برحابة صدر الخلفاء الفاطميين وتقديرهم الكبير لفقهاء أهل السنة بمصر فى عهد خلافتهم .

ولقد حافظ الجامع الأزهر - بعد تحوله فى العصرين الأيوبى والمماليكى إلى جامعة إسلامية سنّية ؛ نتيجة لهجرة علماء الفسطاط السنة إلى القاهرة بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ ، ومجاورتهم بالجامع الأزهر ، وتوليهم التدريس به - ؛ على اتصال سند الرواية فى العلوم الدينية الشرعية النقلية ، رواية ودراية ، بين أهل مصر بصفة خاصة وأمة الإسلام بصفة عام ، وبين رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) ، عن طريق من شهد فتح مصر ونزلها واستوطنها من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وروى عنه وتفقه به أهل مصر .

ولقد شهد العصران الأيوبى والمماليكى بمصر والشام ، نهضة كبرى فى علوم الحديث ، كان من أعلامها أئمة وحفاظ من أعلام الإسلام ، تركوا مصنفات كثيرة ضخمة فى علوم السنة النبوية المشرفة ، والفقه الإسلامى ، لا تزال إلى اليوم تُعَدّ من عيون التراث الإسلامى ، وأمهات المصنفات الإسلامية ، ومن هؤلاء الأئمة الأعلام : محى الدين النووى ، وابن الصلاح الكردى ، وتقى الدين المنذرى ، وابن حجر العسقلانى ، وشمس الدين الذهبى ، وابن كثير ، وشمس الدين السخاوى ، وجلال الدين السيوطى ، وبدر الدين العينى ، والقطب القسطلانى ، والزين العراقى ، وأبو زكريا الأنصارى ، وابن دقيق العيد ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وابن القيم الجوزية .

* * *

وما أحرانا اليوم ، ونحن نستقرىء عِبَرَ التاريخ ، أن نُشيد بأهمية الجهود الصادقة المؤثرة الفعالة ، التى بذلها علماء الإسلام المحدثون من علماء الشيعة وعلماء السنة على حدّ سواء ، لتبنى فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية ؛ وهى دعوة لها تاريخها الراسخ بين مصر وإيران ، منذ الثلاثينيات من القرن العشرين ؛ بذل خلالها علماء الأزهر جهودًا فقهية عظيمة ، حمل لواءها أعلام من شيوخ الأزهر ؛ كان فى مقدمتهم الشيخ محمود شلتوت (شيخ الجامع الأزهر آنذاك) ، والشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ عبد العزيز عيسى ، وغيرهم من مصر ؛ ومن أئمة الشيعة فى إيران ، آية الله القُمّى ، وآية الله البروجردى .

وقد أفتى الشيخ محمود شلتوت بجواز التعبد بالمذاهب الإسلامية المختلفة ، وكانت له علاقات علمية ومراسلات مع آية الله البروجردى وسائر علماء الشيعة .

وكانت مصر هى المهد الذى ولدت فيه فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، لنبذ الخلافات وتوحيد كلمة المسلمين وتأليف قلوبهم ؛ وكانت مصر أيضًا هى التى احتضنت الفكرة ورعاها أزهرها وعلماؤه ؛ ومن ثَمّ ظهرت هيئات ، وصدرت مجلات ، وانعقدت مؤتمرات ، حَقّقتْ للأمة الإسلامية أَجَلّ الخدمات والفوائد ، وقَلّصَتْ خلافاتها ؛ وكَرّست هذه الهيئات والمجلات والمؤتمرات جهودها ، فى مساحة الاتفاق بين المذاهب الإسلامية ، وهى مساحة واسعة تبلغ ٩٥٪ تقريبًا ؛ ونأتْ

عن النبش فى المسائل الخلافية ، التى تمثل الـ ٥٪ الباقية ؛ تاركة ذلك لمزيد من الاجتهاد ، وإيراد الأدلة التى تُطمئن كل طرف على صواب ما يعتقد .

وإذا كانت فكرة التقريب تلك ، قد نشأت للمرة الأولى ، إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية فى الأربعينيات من القرن العشرين ، وكانت بمثابة ردّ فعل لها ، وحاجة المسلمين الماسة آنذاك إلى نبذ خلافاتهم والدخول كقوة بارزة إلى عالم ما بعد الحرب ؛ فإن فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية اليوم ، تأتى فى وقت تشتد فيه الحاجة إلى تآلف المسلمين وتقاربهم ، ووحدة صفوفهم ؛ وهى الوحدة التى تحاربها قوى الغرب ، وتبذل كل جهودها للحيلولة دونها .

والجامع الأزهر الشريف ، هو المؤسسة الوحيدة فى العالم الإسلامى ، القادرة على جمع كلمة المسلمين ؛ وقد حقق الجامع الأزهر التقارب بين المذاهب الإسلامية ، عندما أجاز تدريس جميع المذاهب الفقهية ، ضمن البرامج التعليمية فى المعاهد الأزهرية وجامعة الأزهر ، وتقديمها فى حيدة تامة ، وموضوعية كاملة .

وحين تمّ تأسيس جماعة التقريب سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٧م ، وافتتحوا دار التقريب بالقاهرة وطهران ، انعقد عزم الجماعة على إصدار مجلة : (رسالة الإسلام) ؛ وصدّروها بالبيانات التى تُشير فى مجملها إلى ضرورة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، إنطلاقًا منها إلى الوحدة الإسلامية .

وكانت مجلة (رسالة الإسلام) ، تنشر الفكر التقريبى بين المسلمين ، وتجمع العلماء على صعيد الحوار العلمى فى مختلف المجالات . كتب فيها كبار علماء الشيعة ، من أمثال : الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، والشيخ محمد رضا الشبيبى ، والسيد صدر الدين شرف الدين ، والسيد هبة الله الشهرستانى ، والشيخ محمد تقى القُمّى ، ومحمد صادق الصدر ، وغيرهم . وكبار علماء السنّة ، من أمثال الشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمود شلتوت « وكلاهما من أئمة الأزهر وشيوخه » ، والشيخ محمد محمد المدنى « رئيس تحرير المجلة » ، والشيخ محمد أبو زهرة ، والدكتور محمد البهى ، والأستاذ محمود فياض ، والشيخ محمد علي علوبة باشا ، والشيخ محمد عبد الله دراز ، والشيخ عبد المتعال الصعيدى ، والأستاذ محمد فريد وجدى ، والأستاذ أحمد أمين ، والأستاذ على عبد الواحد وافى ، والأستاذ عباس محمود العقاد ، وغيرهم كثير .

ولقد صدر العدد الأول من مجلة رسالة الإسلام فى ربيع الأول سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م ؛ وتواصلت تصدر كل ثلاثة أشهر ، وتعثرت فى الصدور بعض الأعوام ، وصدر عددها الستون

والأخير في رمضان ١٣٩٢هـ أكتوبر ١٩٧٢م ؛ ومجموعة ما تضمنته من مقالات ودراسات وأخبار، يشكل سفرًا مهمًا من أدبيات التقريب في عالمنا المعاصر ؛ إذ أن المجلة انفتحت على كتاب أهل السُّنة والشيعة ، وانعكست فيها مسيرة دار التقريب ، ومسيرة التقريب فى العالم الإسلامى ؛ ومن هنا فإنها تشكل رصيدًا مهمًا للتقريب ، ومعلمًا لمسيرته .

ولا يغيب عن بالنا ، ونحن بصدد بيان أهمية دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، فى توحيد أمة الإسلام ؛ إن أساس الخلاف بين الشيعة وأهل السنة ، كان بسبب قصر الشيعة أحقية الخلافة على الإمام على وذريته ؛ وهو خلاف سياسى محض ، لا داعى له ، ولا وجة له اليوم ، بعد نجاح الدول الأوروبية فى إسقاط دولة الخلافة الإسلامية فى مطلع القرن العشرين ؛ وقد أفاد الدكتور محمد كامل حسين ، أنه قرأ كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن حيون داعى دعاة الفاطميين ، وهو كتاب فى فروع الفقه ، فوجده يتطابق مع الفقه المالكى .

وبعد ، فإن دراستنا هذه عن جهود سلاطين بنى أيوب فى توحيد الجبهة العربية الإسلامية لاسترداد القُدس من الفرنج ، وإعادة الفكر السنى والشعائر السنية إلى مصر ؛ تمثل الجزء الأول من سلسلة دراسات عن عصر سلاطين بنى أيوب ، تتناول هذا العصر الحيوى الهام من شتى جوانبه ، مع التركيز على تاريخه السياسى ، والسياسة الخارجية والداخلية لسلاطين بنى أيوب ، ونظم الحكم والإدارة فى دولتهم ، والحياة الثقافية والاجتماعية فى عصرهم ؛ وأدعو الله أن يمتعنا بالصحة والعافية ، ويوفر لنا الأسباب ، لإصدار هذه الدراسات ، التى من شأنها إجلاء حقائق تاريخية هامة عن عصر سلاطين بنى أيوب بصفة خاصة ، وعن تاريخ مصر الإسلامية بصفة عامة .

والله ولى التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

دكتور / أحمد فؤاد سيد

الفصل الأول

توحيد الجبهة العربية الإسلامية ضد الفرنج ، لاسترداد القُدس ، تحت لواء دولة الخلافة العباسية ، بين نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى

لم يشهد التاريخ الإسلامي ، وضعًا سياسيًا شرعيًا ، بلغ أوج التداخل والتشابك بل والتناقض ، مثلما كانت عليه حال مصر الإسلامية ، غداة ارتقاء صلاح الدين لوزارة التفويض الفاطمية ، خلفًا لعمه الراحل شيركوه . إذ أضحى صلاح الدين وزيرًا سنيًا للخليفة الفاطمي الشيعي ، يتلمس الأسباب للإطاحة بخليفته ، والقضاء على دعوته واجتثاث جذور التشيع من مصر ؛ وفى نفس الوقت، آل إليه ملكًا وراثيًا طابعه الاستبداد ، عن عمه شيركوه ، يسانده فيه ولاء الجنود الشوام النورية له لكونه قائدهم ، وتعصب القوات الكرديه فى الجيش الشامى له لكونه من أرومتهم ؛ وفوق هذا وذاك كان صلاح الدين نائبًا فى ولاية مصر ، عن أقوى السلاطين السنيين بالمشرق الإسلامى آنذاك ، نور الدين زنكى ، الذى ورث عن السلاجقة مهمة الانتصار للمذهب السنى ، وإعلان الدعوة لبنى العباس على منابر ديار الإسلام ، التابعة للخلافة الفاطمية الشيعية .

فبعد تولى صلاح الدين لوزارة العاضد « رسخ ملكه ، والخُطبه مع ذلك على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد ، وبعده للملك العادل نور الدين » فالملك فى الظاهر له ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره »[(1)] ، فكان « نائبًا عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين فى البلاد كلها »[(2)] ، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار ، ويكتب علامته فى الكتب تعظيمًا ، أن يكتب اسمه ، ولا يفرده فى كتاب بل يكتب : الأمير الإسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا[(3)] .

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، أبو شامة الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٨ ، واسفهسلار كلمة مكونة من لفظين ، أحدهما فارسى ، وهو « اسفه » ، ومعناه المقدم ، والثانى تركى وهو « سلار » ومعناه العسكر ، فكأن معناهما : « مقدم العسكر » ، أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٤٨٣ ، و ج ٦ ، ص ٧ ، ص ٨ .

ونحن لا نميل إلى الآراء التى رددها عز الدين بن الأثير - مؤرخ البيت الأتابكى - فى كتابيه الكامل فى التاريخ ، والباهر فى تاريخ الدولة الأتابكية ، ونقلها عنه عدد من المؤرخين ؛ وفحواها أن صلاح الدين لم يكن وفيًا لأستاذه نور الدين ، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه فى مصر ، إلا الاستقلال عنه ، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام ، فكل هذه الأراء[1] ، كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين ، واضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام ، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر ؛ إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة العربية الموحدة ، التى كان عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين قد أجهدا نفسيهما طويلاً فى تكوينها ؛ وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفصم ، بعد انقسام البيت الزنكى ، حزب فى دمشق ، وحزب فى حلب ، ولم يتسطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعاد توحيد مملكة والده[2] ؛ ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسى[3] ، وإلى ابن نور الدين ، يخبره أن خروجه للشام ، هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج[4] .

وأغلب الظن أن هذه الأقوال التى رددها ابن الأثير ، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكى ، والروايات التى قيلت حول هذا الموضوع ، قد صاغها المؤرخون

(١) مال إلى ترجيح هذه الأراء ، والأخذ بها الأستاذ على يومى ، على أساس انها تؤيد رأيه بخصوص طموح الأسرة الأيوبية فى تكوين ملك وراثى لها منذ أن كانت فى قلعة تكريت ، ثم فى خدمة الدولتين البورية والزنكية ، أنظر على بيومى : قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٤٧ - ١٩٨ . ولكن يجب ألا يفوتنا أن نور الدين نفسه ، قد أعد صلاح الدين وعائلته ليكونوا نوابه فى مصر ، وباقى ما يفتح من ممتلكات الخلافة الفاطمية الشيعية البائدة سواء فى اليمن أو المغرب . وإن تدخل نور الدين فى مصر إبان نيابة صلاح الدين عنه فى حكمها ، مثل إرساله وزيره إبن القيسرانى ، لكشفها ومراجعة حساباتها ، كان نوع من الإشراف الإدارى ، الذى مارسه نور الدين على نائبه بمصر . أنظر خبر كشف إبن القيسرانى للديار المصرية وارتفاعها ٥٦٨هـ - ٥٦٩هـ ، ثم تحديد القطيعة المالية التى يدفعها صلاح الدين إلى نور الدين رمزًا لتبعيته ، عند المقريزى : السلوك ج ١ : ٥١ - ٥٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ق ٢ ، ص ٥٢٥ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) انظر ابن الأثير : الباهر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ، ١٨١ - ١٨٤ ، ابن واصل : مفرج، ج ٢ ، ص ١ - ١٠.

(٣) أنظر قبله .

(٤) يقول سبط ابن الجوزى : أن صلاح الدين كتب إلى الملك الصالح بن نور الدين كتابًا يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : إنما جئت من مصر خدمة لك ولؤأدّى ما يجب من حقوق المرحوم فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك ، وما قصدى إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج ، سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

ـ وعلى رأسهم ابن الأثير ـ لتعليل مسلك صلاح الدين بعد موت أستاذه كان الدافع وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكى ، من ناحية ، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين ، الذى قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى ، خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير ، قد تحامل على صلاح الدين ، فى تاريخه الكامل والباهر ، وتلمس له مواضع الزلل ، وأسباب الخطأ[1] ، ويرجح ما ذهبنا إليه ، أن أغلب هذه الأقوال ، حاولت استقراء ما فى نفس نور الدين وصلاح الدين ، كل منهم ناحية الآخر ، ولايعلم خفايا الأنفس والقلوب إلا الله[2] .

لهذا فنحن نؤيد ما ذهب إليه بعض مؤرخى صلاح الدين[3] ، وأيده بعض المؤرخين المحدثين[4]، من أن صلاح الدين ، ظل يأتمر بأمر نور الدين ولا يخرج عنه ، حتى وفاة نور الدين .

لقد لاحظ العماد أن صلاح الدين كان « لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوى الأمين ، ويرجع فى جميع مصالحه إلى رأيه المتين[5] ، أما أبو شامة ، فقد عمد إلى تفنيد اتهامات إبن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين ، وفى رأى أبى شامة ، أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إلا إسرافه فى تفريق الأموال وصرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته[6] ، ويؤكد أبو شامة رأيه ، بوثيقة وقف عليها بنفسه ، بخط نور الدين ، يقرر فيها للقاضى شرف الدين بن أبى عصرون ، الذى تولى القضاء له بالشام ثم لصلاح الدين بمصر ، إعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصره المذهب السنى بمصر ، والقضاء على الدولة الفاطمية ، والمذهب الشيعى ، ويطلب من أبى عصرون مساندة صلاح الدين ، فى هذا الأمر الجلل[7] .

(١) راجع عباس العزاوى : التعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركمان ، ص ٣٨ - ٤٩ .

(٢) أنظر تفاصيل الأزمة السياسية بين الملك العادل نور الدين ، وبين صلاح الدين نائبه بمصر سنة ٥٦٧هـ ، ولقد سماها ابن الأثير « الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين » وعنه أخذ أغلب المؤرخين هذه التسمية ، أنظر ابن الأثير : الباهر ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ١ : ق ٢ ، ٤٤١ - ٤٤٣ ، ص ٥٠٣ .

(٤) أنظر جمال الشيال : مصر الإسلامية ، ص ٣١ - ٣٩ فى فصل طريف بعنوان : حقيقة العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٣ ، س ١ - س ٢ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٤٤١ .

(٧) راجع نص هذه الوثيقة ، نفس المصدر ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة ، التى اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية بمصر ، والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها ، جاءت بأمر مباشر من نور الدين ، ولم تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر ، ليباشر بنفسه تنفيذها[1] ، بل إن صلاح الدين ظل مترددًا فى قطع الخطبة للفاطميين بمصر ، حتى سنة ٥٦٧هـ ، خشية انتفاض شيعتهم بها ، حتى ألزمه نور الدين بذلك إلزامًا[2] ، وقام نور الدين بنفسه بإرسال بشارة الخطبة لبنى العباس بمصر إلى الخليفة العباسى[3] ، فكان نور الدين هو « الآمر » ، وصلاح الدين هو « المباشر »[4] بل يعلق أبو شامة على الخطبة لبنى العباس بمصر ، وانقراض الدولة الفاطمية بقوله : « واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه ، وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله ، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه »[5] .

وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين ، وكونه نائبًا عنه فى حكم مصر ، من كونه كان يخطب له على المنابر فى أرجاء الدولة الفاطمية ، إبان وزارته للخليفة الفاطمى العاضد[6] ، وأثر نقل الخطبة للعباسيين ، كان الخطيب بمصر وأعمالها ، يدعو لنور الدين بعد الخليفة[7] ، وقُرِّرت السكة باسم المستضىء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين ، فَنُقِشَ إسمُ كل منهم فى وجه[8] ، وكان مجىء ابن القيسرانى وزير نور الدين إلى مصر سنة ٥٦٨ - ٥٦٩هـ - لكشف البلاد ، وإرتفاعها ، ومراجعة حساباتها ، لتقرير القطيعة أو الوظيفة السنوية التى يدفعها صلاح الدين لنور الدين[9] ، أمرًا طبيعيًا يؤكد تبعية مصر لنور الدين ؛ ولم يكن استغراب صلاح الدين لهذا العمل بقوله : « إلى هذا الأمر وصلنا » ، إلا لكون هذا قد يشكك فى نزاهته وزِمّته لو كان قام بنفسه برفع تقرير إرتفاع مصر إلى نور الدين ، دون مجىء إبن القيسرانى ، خاصة وإن الوزير الفاطمى شاور ، كان

(١) أنظر قبله ، الفصل الأول الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية بمصر ، والفصل الثانى الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر ونشر الفكرة الأشعرية السنية بها .

(٢) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٤٨٨ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٩ ، وأنظر قبله.

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٠٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٠٩ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٤٠٨ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، أنظر قبله .

(٧) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٨ وأنظر قبله .

(٨) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥ ، وأنظر قبله .

(٩) أبو شامة : الروضتين / ١ : ق ٢ ص ٥٢ ، ابن واصل : مفرج ج ١ : ٢٥٧ - ٢٥٨ ، المقريزى السلوك ج ١ ، ص ٥١ - ٥٢ .

حين لجأ إلى نور الدين فى المرة الأولى ، قد وعده إذا ما أمدّه بالجيوش النورية لطرد الفرنج من مصر ، إن يكون نائبًا عن نور الدين فى حكم مصر ، ويرفع له سنويًا ثُلثَ خراجها[1] .

ولقد أدركت الخلافة العباسية ، هذه الحقيقة الجوهرية ، فميزت بوضوح بين الخِلَعِ الخليفية لنور الدين ، وبين الخِلَع الخليفية لصلاح الدين ، وجعلت خِلَع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين ، فى حين قلّدت نور الدين بالسّيفَين ، إشارة إلى تقليده لقطرى الشام ومصر ؛ وفى نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خلعٌ سَيّرَها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر[2] ، تأكيدًا لتبعيتهم المباشرة له .

ولدينا وصف شائق لحفل وصول الخلع الخليفية لنور الدين ، على لسان شاهد عيان هو العماد الأصفهانى ، الذى يخبرنا أن رسول دار الخلافة ، فى جواب بشارة نور الدين بالخطبة لبنى العباس بمصر ، كان عماد الدين صندل ، أستاذ دار الخلافة ، رنص فى ذلك اليوم على من يحضر مجلس نور الدين من أكابر دولته ، وتولى قراءة كتاب الخليفة الموفق ابن القيسرانى ، وكان عند نور الدين فى مقام الوزير « فاجتاب نور الدين الأهَبَه العباسية »[*] ، ولبس الفرجية فوقها ، وتقلد مع تقلد السَّيفَين طَوقًا ، وخرج وركب من داخل القلعة ، وهو حال بما عليه من الخلعة ، واللواء منشور ، والنضار (الذهب) منثور ، والرّكبان الشريفان أحَدَهُما مركوبه ، والآخر بحليته مجنوبه (أى بجانبه دون أن يركبه) . قال العماد « وسألت عن معنى تقليده السيفين .. فقيل لى هما للشام ومصر ، والجمع له بين البلدين » وخرج نور الدين إلى ظاهر دمشق ، حتى انتهى إلى منتهى الميدان الأخضر ، وكان وزن الطوق مع أكرته ، ألف دينار من الذهب الأحمر[3] ؛ أى أن الخلعة الخليفية لنور الدين كانت فرجيه سوداء ، وظرف مُذَهّب[4] . ولواء أسود ، وسَيفَين ، وفَرَسَين ، وحُلَلٌ موشيه[5] .

(١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٣٩٦ ، ص ٤١٨ .

(٢) أنظر المصدر ، ص ٥٠٦ ، ابن واصل : مفرج ج ١ ، ص ٢١٩ .

(*) أهبة الحرب عدتها ، والجمع أهب (ابن منظور - اللسان) .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ : ٥٠٥ - ٥٠٦ ، وهو ينص على النقل عن العماد فى البرق الشامية .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢١٨ - ٢١٩ ونص ابن واصل أكثر وضوحًا لعدم استخدامه السجع وهو فى الغالب شرح لوصف العماد ، فيقول « وورد .. التشريف الشريف لنور الدين مكملاً بالأهبة السود والحلل الموشية والطوق الذهب الثقيل واللواء الجليل لبس نور الدين الفرجيه وتقلد بالسيفين ووضع فى عنقه الطوق وخرج راكبًا من داخل القلعة واللواء الأسود مقشور على رأسه ، وقدم له مركوبان أحدهما ركبه ، والآخر كان جنبيًا بين يديه ، محلى بجلبته وجمع له بين تقليدى السيفين الإشعار بتقليده الإقليمى : الشام والديار المصرية ... » .

كذلك أرسلت الخلافة ، تشريفًا وخلعًا إلى صلاح الدين ، ولكنها كانت أقل من خِلَع نور الدين ، إذ لاحظ المؤرخون المعاصرون مثل العماد أن تشريف نور الدين أميَز وأفضل ، وأجمل وأكمل[1] ، لذلك فحين وصلت خِلْعَة صلاح الدين إليه بمصر « إستقصرها واستنزرها واستصغرها دون قدره[2] ، مما جعل نور الدين يُطيِّب خاطره ، بأن سيَّر تشريفه برمّته إلى مصر[3] ، وكانت هذه أول خِلْعَة عباسية دخلت الديار المصرية ، بعد انقراض الدولة الفاطمية[4] ؛ وذلك في ٩ رجب سنة ٥٦٧ / ١١٧١ فخرج قاضي القضاة صدر الدين إبن ديرباس والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمة الواصل بالخِلْعَة وزيّنت البلد[5] ؛ وفي ٢١ رجب من السنة المذكورة لبس صلاح الدين الخلعة الخليفية وركب بها[6] ، وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ، ورايات سُود ، وأُهُب عباسية للخطباء في الديار المصرية ، فسُيِّرت إلى صلاح الدين ، ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء[7] .

وكما فرّقت الخلافة بين خِلَع نور الدين وخلع صلاح الدين ، على أساس أن الثاني كان تابعًا للأول ، ونائبه بمصر ؛ فإن صلاح الدين نفسه ، كان يراعي التأدُّب في رسوم الملك ، فلا يُساوي نفسه بسيده نور الدين . ففي رجب في نفس هذه السنة ، ضُرِبتْ نُوَب الطبلخانة[8] بالباب الناصري ثلاث مرات في كل يوم ، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب النوري[9] ؛ وفي نفس هذه السنة سارت الرُّسُل من القاهرة إلى نور الدين ، تخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح الدين على مُداومة إرسال ما قُرِّر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة[10] .

(١) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ : ٥٠٦ .
(٢) المقريزي : السلوك : ج ١ ، ص ٤٦ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ٥٠٦ .
(٤) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٢٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ص ٥٠٦ .
(٥) المقريزي : السلوك ، ١ / ٤٦ .
(٦) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .
(٧) أبو شامة : الروضتين ، ٢/١ ، ص ٥٠٦ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .
(٨) الطبلخانة كلمة فارسية معناهاالموسيقى السلطانية ، وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب، القلقشندي : صبح ، ج ٤ ، ص ٨ – ٩، و ص ١٣.
(٩) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦ .
(١٠) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٧ .

وإذا كانت جميع الإجراءات التى اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية ، والخطبة لبنى العباس والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، قد تمّت بتوجيه مباشر من نور الدين ، وبعد إرساله لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين من الشام ليُباشر هذه الأمور بنفسه[1] ؛ فإن ضمّ صلاح الدين لليمن ، تمّ بإذن نور الدين ، للقضاء على الدعوة الإسماعيلية هناك ، بحيث أرسل نور الدين هذه البشارة ، بنفسه للخليفة العباسى[2] ؛ كما أرسل إليه أيضًا يبشره بالخطبة لبنى العباس على منابر القيروان على يد بنى أيوب ، ويزف إليه غزو مملكة النوبة المسيحية وهى بلاد لم تطأها من قبل سنابك الخيل الإسلامية ، ويبشره بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس[3] .

ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر ، حتى وفاة نور الدين ، داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمى ، إلى سيده نور الدين رمزًا للولاء والتبعيّة[4] ، وداوم صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر ، فنجده مثلاً يرسل إليه كتابًا يتضمن ذكر ثورة عمارة اليمنى[5] ؛ وليس أدلّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين ، من تفاهمهما الاستراتيجى فى قتال الفرنج ؛ فيذكر أبو شامة أنه فى سنة ٥٦٨ / ١١٧٢ « تولى السُلطانان نور الدين فى الشام وصلاح الدين من مصر فى هذه السنة جهاد الصليبيين ، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ « جهاد السُلطانين للفرنج »[6] ؛ وهذا ما أكّده صلاح الدين فى كتاب له للخليفة العباسى بقوله أنه « كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله ، فى أن يتجاذبا طرفىّ الغزاه من مصر والشام ، المملوك (أى صلاح الدين) بعسكره برّه وبحره ، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره[7] .

(١) أنظر قبله .

(٢) المقريزى : السلوم ، ١ : ٥٣ ، ابن واصل : مفرج ١ : ٢٣٧ ، سبط : مرآة ٨ : ٢٩٩ .

(٣) كتب نور الدين إلى الخليفة العباسى « وقسطنطينه والقدس يجريان إلى أمد الفتوح فى مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدنى قطاف الفاتحين لأهل الإسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضيى الإمام .. ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ، ما تيسر فى هذه النوبَة ، من افتتاح بعض بلاد النُوبَة ، والوصول إلى مواضع منها ، لم تطرُقها سنابك الخيل الإسلامية فى العصور الخالية ؛ وكذلك استولى عساكر مصر أيضًا على برقة وحصونها .. حتى بلغوا إلى حدود المغرب (ابن واصل : مفرج ج ١ : ٢٣٥ ، أنظر ص ٢٣٦) حيث يفيد ابن واصل أن فتح بلاد المغرب تم بأمر نور الدين .

(٤) أنظر أبو شامة : الروضتين ٢/١ ص ٥٢٤ – ٥٢٥ ، ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٢٤ – ٢٢٥، ٢٢٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج ١ : ٢٤٨ ، ولقد أورد ابن واصل فقرات من هذا الكتاب ١: ٢٤٨ – ٢٥١ .

(٦) أنظر أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ٥٢٦ – ٥٣٠ .

(٧) نفس المصدر / ٢ ص ٦٢٤ .

ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة ٥٦٩ / ١١٧٣ ، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل ، وضرب السكة باسمه[١] ، ووافى إرسال الرسائل فى العزاء بنور الدين[٢] ؛ وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أنّه حتى وفاة نور الدين ، كانت مصر والشام ، قد توحدتا تحت زعامة نور الدين ، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهانى ، حتى حين قال يمتدح نور الدين :

بملك مصر أهنىء ممالكَ الأمم	فثِقّ وأبْشِر بنصر الله عن أمم
فملك مصر وملك الشام قد نُظِمَا	فى عِقد عز من الإسلام منتظم[٣]

وفى رأى ابى شامة ، أن خروج صلاح الدين إلى بلاد الشام ، بعد موت نور الدين لأنّ بموته « إنفردت مصر عن الشام ، وطَمَعَ أهلُ الكفر فى بلاد الإسلام »[٤] ؛ أى أنه يؤيد ما أعلنه صلاح الدين ، من أن خروجه إلى الشام « لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج »[٥] ؛ لكن بعد فشله فى إصلاح ذات البَيْن بَين الأوصياء على عرش إبن نور الدين[٦] ، ونجاحه فى هزيمتهم فى موقعة قرون حماه ، وتوقيعه الصلح معهم على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ؛ قطع صلاح الدين الخطبة للصالح ، وأزال إسمه عن السكة فى بلاده[٧] ، وبهذا انتهت مرحلة نيابة صلاح الدين عن البَيْت الزّنكى فى حكم مصر ، واستقل استقلالاً تامًّا بالديار المصرية .

* * *

وما لبث صلاح الدين فى سنوات وجيزة ، أن ورث جميع ممتلكات نور الدين ، وورث رسالته فى توحيد المشرق الإسلامى لجهاد الصليبيين ، وكان نور الدين قد اتسع ملكه ، ففتح الموصل والجزيرة وديار بكر والشام والعواصم ودمشق وبعلبك وبانياس ومصر واليمن ، وخُطِبَ له

(١) المقريزى : السلوك ١: ٥٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ : ٥٨٥ .
(٢) أنظر الرسائل التى أوردها أبو شامة : المصدر السابق ٢/١ ، ص ٤٨٦ - ٥٨٨ .
(٣) أنظر أبو شامة : نفس المصدر ، ١ / ٢ ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥ .
(٤) أنظر أبو شامة : الروضتين ٢/١ ، ص ٥٩٧ - ٥٩٨ .
(٥) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .
(٦) راجع أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ص ٦٠٣ - ٦٠٦ ، ص ٦٣٣ - ٦٤٠ ، ص ٦٤٧ - ٦٥٥ .
(٧) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩ .

فى الدنيا[1] . بل حاول قبيل وفاته ، ضم ممتلكات سلطنة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى إليه وذلك فى سنة ٥٦٨هـ[2] ، ولكنه توفى قبل أن يحقق أمله . كما كان نور الدين يتطلع أيضًا إلى فتح مملكة

(١) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، وبالنسبة للوضع الشرعى للدولة الإتابكية بالشام ، كما تبلور فى الربع الأول من القرن السادس الهجرى فى عهد عماد الدين زنكى ، فقد كان اتابكة الموصل والجزيرة الفراتية والشام ، يظهرون تبعيتهم وطاعتهم للخلافة العباسية والسلطان السلجوقى ، فيحضرون إلى بغداد أحيانًا (سنة ٥٠٨هـ) لخدمة السلطان السلجوقى فى دار السلطنة (سبط : مرآة ج ٨ ، ص ٥٣) وكانوا يظهرون ولاءهم للخليفة العباسى والسلطان السلجوقى ببغداد ، بالهدايا والتحف التى يرسلونها إلى بغداد ، وفى نفس الوقت كانوا يتلقون « الخلع الخليفتية » و « السلطانية » و « المنشور السلطانى » ؛ بالولاية حربًا وخراجًا (سبط : مرآة) ٨: ٥٦ ، ولقد استقوى نفوذ عماد الدين زنكى ، والد نور الدين زنكى ، على جميع أتابكة الموصل والشام والجزيرة ، حين حالت مشاغل السلطان السلجوقى فى العراق فى سنة ٥٠٧هـ من جمع ملوك الأطراف لمحاربة الفرنج بالشام (سبط : مرآة : ٨ : ٤٦) ، ولما كان السلطان السلجوقى قد أعلَنَ مِنْ قَبْل (سنة ٥٠٤هـ) عماد الدين زنكى ، قائدًا لقوات جميع أتابكة الشام والجزيرة بعد أن أبلى بلاءً حسنًا فى قتال الإمارات الصليبية بالشام (سبط : مرآة ، ٨ : ٣٥ - ٣٦) بل استطاع بالفعل هزيمة ملك بيت المقدس الصليبى سنة ٥٠٦هـ ، وأرسل بشارة النصر للسلطان السلجوقى (سبط : مرآة ، ٨ : ٤١ - ٤٣) . فلا ريب أن عَهِدَ السلطان السلجوقى فى سنة ٥٠٧هـ لعماد الدين زنكى بمهمة جهاد الصليبيين بالشام نيابة عنه وأَمَّرَ أتابكته فى بلاد الموصل والجزيرة على الدخول فى طاعته ، (سبط : مرآة ، ٨ : ٥٢) ، وقد عمد عماد الدين زنكى على الاستنجاد بجيوش السلطان السلجوقى فى الأوقات الحَرِجَة من صراعه مع الصليبيين (ابن واصل ، ١: ٧٩ - ٨١) واستقرت الأمور بين عماد الدين زنكى والسلطان السلجوقى ببغداد على هذا الأساس ، وحين توفى عماد الدين ، سنة ٥٤١هـ أقر السلطان أولاده على ممتلكاته (ابن واصل ج ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٩ ، سبط : مرآة ، ص ١٨٩ - ١٩٠) .

ولا شك أن عماد الدين زنكى قد نجح فى تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة من ملوك الجزيرة الفراتية والشام وضم الإمارات الكردية والتركمانية ، للتصدى للوجود الصليبى بالشام ، واستطاع إسقاط إمارة الرها الصليبية ، سبط : مرآة ، ج ٨ ص ١٨٩ - ١٩٠) واسترداد أغلب حصون الساحل من الصليبيين ثم تابع ابنه نور الدين رسالته هذه ، أنظر سبط : مرآة ج ٨ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٤ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢ . ولقد أفاد سبط ابن الجوزى أن جميع فتوحات نور الدين زنكى وما ضمه من البلاد ، كان بأمر الخليفة فيقول « وكان نور الدين قد أخذ الموصل ، وهذا كله بأمر الخليفة لأن نور الدين ما كان يعمل شيئًا حتى يستأذنه » (سبط : مرآة ، ص ٢٨٢- ١٨٣) . واتخذ نور الدين وسائل لجمع القلوب حوله للجهاد ؛ (أنظر سبط مرآة ج ٨ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦) اتبعها من بعده تلميذه صلاح الدين .

ومن هذا يتضح أن الوضع الشرعى لممتلكات الدولة الزنكية كان هو نفس الوضع الشرعى لممتلكات الدولة الأيوبية ، على أساس تبعية كلا الدولتين من الناحية الشرعية للخلافة العباسية .

والجدير بالذكر أن عماد الدين زنكى ، فى محاولته لتقوية نفوذه الدعائى فى مقاتلة الصليبيين ، كان قد فكر فى إزالة نفوذ السلاجقة من العراق ، ونقل الخلافة العباسية والخليفة العباسى إلى مقر حكمه بالموصل ٥٣٠هـ ، ولكن محاولته باءت بالفشل ؛ وعن محاولة عماد الدين زنكى نقل مقر الخلافة العباسية إلى الموصل أنظر ابن الأثير : الباهر ص ٤٥ ، ص ٤٨ ، ص ٥١ ، ص ٥٣ . وفى رأينا أن محاولة عماد الدين هذه ، قد بعثها من جديد المماليك حين نقلوا مقر الخلافة العباسية إلى القاهرة سنة ٦٥٩هـ .

(٢) عن هذه المحاولة راجع ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٥٣ ، أبو شامة : الروضتين ١/ ٢ ، ص ٥٤٣ - ٥٤٩

أرمنية المسيحية ، واسترداد بيت المقدس ، وكتب إلى الخليفة العباسي في نفس هذه السنة يُبَشِّره بقرب تحقيق هذه الآمال ، ويَزُفُّ إليه خبر غزو نوابه بمصر (بني أيوب) لمملكة النوبة المسيحية[1] .

وأفاد سِبْط ابن الجوزي في ترجمة نور الدين ، أنه « كان في عزمه أن يفتح بيت المقدس ، فَعَمَرَ مِنبرا وقِبْلَه بجامع حلب على اسم القدس ، فتوفي قبل الفتوح ؛ فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس ، حَمَلَ المِنبَرَ إليه ، وأبقى القِبْلَة بجامع حلب[2] . كذلك أكَّدَ أبو شامة وراثة صلاح الدين لرسالة نور الدين ، حين لاحظ أن صلاح الدين « بنى على ما اسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمّها ؛ ولو علم نور الدين ماذَخَرَ الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين مِنْ بَعْدِه لقُرَّت عينُه[3] .

ويبدو أنَّ سلطان سلاجقة الروم ، قد فَطِنَ بعد ضم صلاح الدين لأغْلَبِّ ممتلكات نور الدين بالشام والجزيرة الفراتية[4] ، أنّه كان في عزمه أيضًا ضم مملكة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، وهو ما حاوله نور الدين قبيل وفاته ، فكاتب سلطان سلاجقة الروم صلاح الدين وأَعْلَنَ دُخُولَه في طاعته[5] ، كما أرسل إلى صلاح الدين يرجو النّصرَ على مَلِك الأرمن المسيحي ابن لاون وذلك بعد أن تمّ بينهم الصلح سنة ٥٦٧هـ (كذا)[6] ، وكان صلاح الدين عند حسن ظن سلطان سلاجقة الروم به إذ نجح في نفس هذه السنة في فتح مملكة أرمنية المسيحية[7] ، الأمر الذي حاوله نور الدين قبيل وفاته .

وبدخول الزنكيين ، وسلطان سلاجقة الروم في طاعة صلاح الدين ، ونجاحه في فتح مملكة أرمنية المسيحية، تأكد لصلاح الدين أنه أصبح أقوى ملوك الأطراف في الشرق الإسلامي، فكتب[8]،

(١) نفس المصدر ، ج ١ : ص ٢٣٥ .

(٢) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣١٣ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ص ٥٨٢ .

(٤) أنظر قبله .

(٥) العماد : الفتح ، ص ٥٧٢ – ٥٧٦ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٢٧ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٢٨ .

(٨) عن نصوص هذه الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين والخلافة العباسية لتعديد أيادية البيضاء على الخلافة ، أنظر أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٦١٤ ، ٦١٦ – ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ص ٦٤٨ – ٦٤٩ ، ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٦٢ – ٦٥، ١١٤ ، القلقشندي : مآثر الإنافة ، ج ٣ ، ص ٣١٥ – ٣١٨ ، العماد : البرق ، ليدن ، ق ١٠٦ – ١٠٩ ، ق ١١٨ – ١١٢ ، ق ١٢٤ – ١٢٥ ، ق ١٢٦ – ١٣١ ، القلقشندي : صبح ج ٦ ، ص ٥٠٤ – ٥٠٦ ، ٥٠٦ – ٥١١ ، ٥١١ – ٥١٥ ، ٥١٥ ، ٥١٥ – ٥١٦ .

إلى الخليفة العباسي ببغداد سنة ٥٧٠هـ ؛ يذكر فتوحاته وجهاده للفرنج ، وإعادته الخطبة العباسية بمصر ، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب ، وعلى بلاد اليمن كلّها ، وأنه قدم عليه في هذه السنة وفد سبعين راكبًا ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدًا . وطلب صلاح الدين من الخليفة تقليده مصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما يفتحه بسيفه ، فوافته بحماة رُسُل الخليفة المستضيء بأمر الله ، بالتشريف والأعلام السُّود وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها[1] .

والجدير بالإلتفات ، أن صلاح الدين ، أراد بطلبه للتقليد الخليفي ، أنّ يجعل ما آل إليه من الممتلكات الفاطمية والنُّورية ، وما يسترده بسيفه من بلاد الفرنج ، أو ما يفتحه من دار الحرب ، مُلكًا وراثيًا له ولذريته مِن بَعده ، بحيث يُحقّقُ له التقليد الخليفي ، السَّنَدّ الشرعي لهذا المُلك الوراثي ؛ لذلك نجد صلاح الدين ، في أحد رسائله لديوان الخليفة ، يُناشدّ الخليفة العباسي لتحقيق هذا الغَرَضّ بقوله : أنّه يريد ، تقليدًا جامعًا ، بمصر والمغرب واليمن والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العّباسية بسيوفه وسيف عساكره ، ولمن يقيمه من أخ أو ولد من بعده، تقليدًا يتضمن للنّعمة تخليدًا ، وللدعوة تجديدًا[2] .

* * *

ولا رَيبَ أنّ التفويض الخليفي لصلاح الدين وخلفه ، كان بالإضافة إلى إسباغة الشّرعيّة ، في نظر العالم الإسلامي ، على الممتلكات النُوريّة والفاطمية التي ضمها إلى دولته الفتية ، فإنه كان تفويضًا من الخليفة العباسي ، إلى صلاح الدين ، بجميع السلطات الشرعية ، التي يُعَدّ الخليفة هو القائم بها ، من واقع تفويض الأمّة الإسلامية له هذه السلطات من واقع البيعة[3] .

ولقد حدد القلقشندي ، الوظائف الرئيسية ، في الدولة الإسلامية ، بوظائف عشرة ، يُفوّضُها الخليفة إلى مَنّ يَرَى فيه الكفاءَة على القيام بها على خير وجه ، ثم أفاد أن هذه الوظائف العشر ، أصبحت يفوضها الخليفة إلى السلطان ، ثم يفوضها السلطان بدوره إلى من يستطيع النهوض بأعَبائها[4] .

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩ - ٦٠ ، وأنظر قبله .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) أنظر قبله .

(٤) أنظر الفصل السابع ، من الجزء الأول ، من كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، ج ١ ، ص ٧٤ - ٨٠ حيث يقول : « الفصل السابع : في ذكر الوظائف التي كانت تصدر عن الخليفة في الزمن المتقدم ، وما يصدر عنه الآن من تفويض السلطنة إلى السلطان ، ويرجع المقصود من ذلك إلى عشر وظائف » ، القلقشندي : مآثر ، ج ١ ، ص ٧٤ ، ص ٧ - ص ١٠ .

ولقد عَلّقَ القلقشندى على هذه الوظائف العشر التى يُفَوّضها الخليفة إلى السلطان بقوله :
« وقد كان فى الزمن المتقدّم ، يُكتَبُ بكُلّ ولاية من هذه الولايات عَهدٌ عن الخليفة بما يَقعُ به التَولِيَة ، وتَشمَلُها عَلامَةُ الخليفة على عادة الولايات فى ذلك ، ولم يَزَلْ ذَلكَ مُستَمرًا إلى حين إنقراض الخلافة من بغداد . أمّا بعد انتقال الخلافة إلى الديار المصرية ، فقد صارت علامة الخليفة مقصورة على عهد السلطان بتفويض الأمور العَامّة إليه ، وتفاصيل الأمور يَشملها خط السلطان بحكم تفويض الخليفة ذلك إليه[1] .

وواضح أنّ الشق الثانى من كلام القلقشندى ، ينسحب على العصر المماليكى بعد انتقال الخلافة العباسية إلى مصر ، ونحن نستطيع أنّ نُقرّرَ مطمئنين إعتمادًا على وثائق العصر الأيوبى ، أنّ الخليفة العباسى ببغداد كان يُفوّض هذه الوظائف ، أو السُلْطَات العَشر ، أوّ ما يُعادلها إلى السُلطان الأيوبى بمصر ، لِيُفَوّضها بدوره لمن يباشرها ويقوم بأعبائها وتتوفر فيه شروط النهوض بها على خير وجه .

ولدينا لحسن الحظ ، وثيقتان هامّتان ، إحداهما خاصة بتقليد الخليفة الناصر لدين الله العباسى لصلاح الدين[2] ، وثانيهما تقليد الخليفة المستنصر بالله العباسى للمَلكْ الكامل محمد بن العادل أبى بكر[3] ، وبدراستنا لهاتين الوثيقتين دراسة مُقارَنة ، نستطيع أنّ نُحَدّد السُلطات الشّرعيّة التى فَوّضَهَا الخُلفاء العباسيون ، لسلاطين بنى أيوب ، على أساس أنّ الوثيقة الأولى ، ترجع إلى عهد قيام الدولة الأيوبية ، والوثيقة الثانية ترجع إلى عصر استقرارها وبلوغها أوجّ اتساعها فى عصر السلطان الملك الكامل محمد .

كما لدينا أيضًا وصفًا دقيقًا شائقًا ، لرسوم وصول الخِلَعِ الخليفتية مع رُسُل وسُفراء الخلافة العباسية إلى مصر ، واستقبال سلاطين الأيوبيين لهولاء السفراء ، وركوب السلاطين المصريين فى موكب رسمى ، بالآلات الملوكية والخِلَعِ والأعلام الخليفتية المميزة باللون الأسوَدّ شعار بنى العباس ،

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٠ ، س ١ – س ٨ .
(٢) أنظر نص هذا التقليد عن القلقشندى : مآثر الإنافة ، ج ٣ ، ص ٨٦ – ٨٩ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٤٥ – ١٥٢ .
(٣) أنظر نص هذا التقليد عند القلقشندى : مآثر الإنافة ، ج ٣ ، ص ٩٩ – ١٢١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٩٨ – ١١١ .

وبين يدى السلطان وزيره راكبًا فرسه ، حاملاً عهد الخليفة ـ التقليد الخليفى ، للسلطان ـ قاطعين أهم شوارع القاهرة ، فى موكب مُهيب ، إعظامًا للخلع والتقليد الخليفى ، الذى يَسبغ الشرعية على سلطنة بنى أيوب ، أما رعاياهم المصريين وأمام العالم الإسلامى كله(1) .

(١) أفادنا المقريزى بالرسوم الملكية التى استحدثها الأيوبيون بمصر لاستقبال الخلع الخليفتية والتقليد الخليفى ، وما صاحب ذلك فى عهدهم من احتفالات عامة فى الدولة ، ولقد أوضح المقريزى أن المماليك قد ورثوا هذه الرسوم عن الأيوبيين حتى نقل الظاهر بيبرس الخلافة العباسية إلى مصر ، فغير من هذه الرسوم ، لوجود الخليفة نفسه فى مصر ، وخضوعه لسطوة بيبرس السياسية ، فيقول المقريزى فى الخطط ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥ إن السلطان من ملوك بنى أيوب ، ومن قام بعدهم من ملوك الترك ، لابد إذا استقر فى سلطنة ديار مصر ، أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل إليها راكبًا ، والوزير بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه ، وقد أمسكه بيديه ، وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه ، منذ يدخل إلى القاهرة من باب الفتوح أو من باب النصر ، إلى أن يخرج من باب زويلة ، فإذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء وبقية العسكر .. وأول من ركب بخلع الخليفة فى القاهرة ، السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .

«قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة (٥٦٧هـ) تاسع شهر رجب : وصلت الخلع ، التى نفذت إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود زنكى ، من الخليفة ببغداد ؛ وهى جبة سوداء، وطوق ذهب ؛ فلبسها نور الديم بدمشق ، إظهارًا لشعارها ، وسيرها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها .. وكانت أُنفذت له خلعة ، ذكر أنه استقصرها واستزراها ، واستصغرها دون قدره . واستقر السلطان صلاح الدين بداره ، وباتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك ، برأس الطابية ، فلما كان العاشر منه خرج قاضى القضاة والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمته ، واستقر المسير بالخلعة - وهو من الأصحاب النجمية - وزُينت البلد ابتهاجًا بها . وفيه ضُرِبَت النُوَب الثلاث بالباب الناصرى ، على الرسم النورى ، فى كل يوم ؛ فأما دمشق ، فالنوب المضروبة بها خمس ، على رسم قديم ؛ لأن الأتابكة لها قواعد ورسوم مستقرة بينهم فى بلادهم . وفى حادى عشرة ، ركب السلطان بالخلع، وشق بين القصرين والقاهرة ؛ ولما بلغ باب زويلة ، نزع الخلع وأعادها إلى داره ، ثم شَمَّرَ للعب الأكرة . ولم يزل الرسم كذلك فى ملوك بنى أيوب ، حتى انقضت أيامهم ، وقام من بعدهم مماليكهم الأتراك ، فجروا فى ذلك على عادة ملوك بنى أيوب » .

الفصل الثانى

القضاء على الخلافة الفاطمية

- وزيران سنيان للفواطم وقيام السلطنة السنية بمصر
- وسائل القضاء على المذهب والتراث الفاطمى بمصر والشام واليمن
- طعن الدولة الأيوبية بمصر فى النسب الفاطمى
- القضاء على فتن متشيعى المصريين المناصرين للدولة الفاطمية
- محاولة القضاء على بقايا التشيع فى الشام واليمن

القضاء على الخلافة الفاطمية

وزيران سُنيان للفواطم :

لاحظ مؤلفو كتب ودساتير ومراسيم ديوان الإنشاء فى مصر الإسلامية المتأخرون ، مثل الخالدى[1] والقلقشندى[2] ، إن وزراء السيوف ، فى العصر الفاطمى الثانى ، الذين تولوا وزارة التفويض لخلفاء الفاطميين الضعاف ، وحجروا على الخلفاء واستبدوا بالسُّلطنة الزمنية الفعلية فى أيديهم ، كانت سلطاتهم بالنسبة لأوضاع الخلافة الفاطمية فى ذلك الوقت ، مطابقة لسلطات السلاطين الذين تغلبوا على الخليفة العباسى بالعراق ، واستبدوا بالأمر دونه ، شأن البويهيين والسلاجقه فى القرنين الرابع والخامس الهجرى على التوالى[3] ، فكانت الوزارة فى العصر الفاطمى

(١) يقول الخالدى : أما تفويض الخليفة الأمور فى البلاد والأقاليم إلى من يديرها ، فعلى ثلاثة ضروب : الضرب الأول : وهو أعلاها " وزارة التفويض " ، وهو أن يستوزر الخليفة من يفوض إليه تدبير الأمور وإمضائها على اجتهاده ، وينظر فيها على العموم ، وعلى ذلك كانت الوزارة فى زمن الفاطميين بمصر . الضرب الثانى : إمارة الإستكفاء . الضرب الثالث : إمارة الإستيلاء . فلما استولى الفاطميون واستوزروا أرباب السيوف فى أواخر دولتهم ، وعظمت كلمتهم عندهم ، صارت سلطنتها وزارة تفويض ، فكان الخليفة يحتجب ، والوزير هو المتصرف كالملوك الأن (أنظر الخالدى : المقصد العالى المنشأ - خ ، لوحة ١٩٢ أ - ١٩٣ ب) .

(٢) أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٩ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٤ . ونصه يكاد يطابق نص الخالدى السابق .

(٣) عن استقلال البويهيين والسلاجقه بالسلطنة دون الخلفاء ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ ، ج ٥ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ ، حيث يلاحظ القلقشندى : أولاً إن كل من البويهيين والسلاجقه ، سلاطين ملازمين للحضره ببغداد ، والأيوبيين سلاطين غير ملازمين للحضرة الخليفتيه العباسية ببغداد ، بل أقاموا بمصر ، ولكنه يلاحظ أيضًا أن تقليدهم الخليفى ، وخلعهم الخليفيه ، هى مطابقة لتقليد وخلع سلاطين البويهيين والسلاجقه ، أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ ، وخاصة ص ٢٨٧ س ٨ - ١٩ ، وعن لقب سلطان يقول القلقشندى " السلطان : هو اسم خاص فى العرف العام ، للملوك ، ويقال أن أول من تلقب به خالد بن برمك . ثم انقطع التلقيب به إلى أيام بنى بويه ، فتلقب به ملوكهم، فمن بعدهم من الملوك السلاجقه وغيرهم ، وهلم جرا إلى زماننا ، (أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٥ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤) . ويقول أبو المحاسن : وبنو زنكى هؤلاء ، هم أوسط الدول ، فإن أول من ملك مع الخلفاء ، وتلقب بالسلطان والألقاب العظيمة بنو بويه ، ثم أنشأ بنو بويه بنو سلجوق ، وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق واقسنقر جد بنى زنكى هؤلاء ، ثم أنشأ بنو زنكى ، أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ، بنى أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة الترك " . ولقد أوضح المؤرخ الكبير ابن خلدون ، بحاسته التاريخية المرهفة تطابق كل من وظيفة إمرة الأمراء ، و " وزارة التفويض " و " السلطنة " ، مع بعضها البعض وكون بنى بويه وزراء سيوف ، استنكفوا اتخاذ ألقاب الوزراء ، فتلقبوا بالسلطان بقوله : " ... فلما جاءت دولة بنى العباس .. =

المتأخر « تقوم مقام السلطنة » على حد قول القلقشندى[1] ، فلا غـروان استلفت مؤرخـى الأيوبيـين الذين أتوا معهم من الشام ، إن الوزير الفاطمى شاور ، وزير التفويض الذى استنجد بنور الدين ، كان يركب بالطبل والبوق والعلم ، علـى قـاعدة الـوزراء المصريـين[2] ، وأن « عـادة المصريـين » ، أنـه إذا غلب شخص صاحب المنصب ، وعجز صاحب المنصب عـن دفعه ، وعرفـوا عجـزه ، وقعـوا للقـاهر منهم ورتّبوه ومكّنوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم ، وهو ملقب عندهم بالسلطان[3] .

= وعظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقـد .. ، فصـار اسـم الوزيـر جامعًا لخطتـى السـيف والقلم .. فانقسـمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ ، وهى حال مـا يكـون السـلطان قائمًـا علـى نفسـه ، وإلى وزارة تفويض وهى حال ما يكون الوزير مستبدًا عليه ، ثم استمر الاستبداد وصار الأمـر لملـوك العجـم (بنـو بويه) ، وتعطل رسم الخلافة ، ولم يكن لهؤلاء المتغلبيين أن ينتحلوا ألقـاب الخلافـة واسـتنكفوا مـن مشـاركة الوزراء في اللقب ، لأنهم خول لهم فتسموا بالإمارة والسلطان ، وكان المستبد بالدولـة يسـمى أمـير الأمـراء أو بالسلطان ، إلى ما يحتليه به الخليفة من ألقابـه كمـا تـراه فـى ألقـابهم وتركـوا اسـم الـوزارة إلى مـا يتولاهـا للخليفة من خاصته ، ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم (أنظر ابـن خلـدون المقدمـة ، طبـع المطبعـة الأدبية ببيروت ١٩٠٠م ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩) أى أن ابن خلدون يقـول : أن بنـى بويـه قـد اتخـذوا ألقـاب السـلاطين ، دون إذن الخليفة العباسى . ويلاحظ حسـن الباشا : أن لقب سلطان لم يرد على النقوش البويهية ، فى حين ورد على نقش خاص بالسلطان محمود الغزنوى مؤرخ سنة ٤٢١هـ ، وأن ذكـر المقريـزى فـى شـذور العقود أن بنى بويه قد سكوا لقب سلطان على عملتهم (أنظر حسن الباشا : الألقـاب الإسـلامية ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤) أما السلاجقه ، قد تفشى لقب سـلطان علـى نقوشـهم كلقـب عـام لهـم (حسـن الباشـا : المرجـع السابق) ، كمـا سـكوه علـى العملـة أيضًـا (مـاجد : الخليفـة المستنصر ، ٢٣٥ هـامش ١١٨) وقـد ذكـر السيوطى " إن أول من لقب بالسلطان فى الإسـلام محمـود بـن سـبكتكين .. ، وأول مـن لقـب بـالملك عضـد الدولة فناخسروا " (السيوطى : الوسائل إلى مسامرة الأوائل ، تحقيق أسـعد طلـس ، طبـع بغـداد ص ٧٨) ، ولقد أورد أبو نصر العتبى مؤرخ سيرة محمد بن سبكتكين ألقابه كاملة أولها لقب سلطان. أنظر الشيخ المنينى: شرح التاريخ اليمينى المؤلف ليمين الدولة محمود ، المسمى بالفتح الوهبى على تاريخ أبـى نصـر العتبـى ، طبـع مصر طبعة قديمة د.ت (فى عهد الخديوى توفيق) ٣٠ – ٣١ وأغلب الظن أن لقـب سـلطان قـد أخـذ علـى عهد محمود بن سبكتكين أول السلاطين العسكريين السنيين بالشرق الذين أعـادوا للخلافـة العباسـية هيبتهـا ، معنى جديد وهو حجة الخليفة الظاهرة ويده القوية تؤيـد خلافتـه . كـان لقـب " يمـين الدولـة " أهـم الألقـاب الرسمية لهذا السلطان ، أنظر المنينـى : الفتـح ص ٣١ ، وتـوارث هـذا اللقـب بعـده السـلاجقة ثـم الزنكيـين ثم الأيوبيين ثم المماليك (حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦) وأنظر بعده .

(١) أورد القلقشندىعهد شيركوه بـالوزارة عـن العـاضد الفـاطمى ، وقـال قبـل إيـراده ، والـوزارة يومئـذ – أى فى العصر الفاطمى المتأخر – قائمة مقام السلطنة ، أنظر صبح ١٠ : ٨٠ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٦ ، س ١ – ٦ .

والواقع أن وزراء التفويض الفاطميين ، كانوا قد حجروا على الخلفاء تمامًا ، ولم يقتصر هذا الحجر على مجرد الاستيلاء على السلطة الزمنية ، بل امتد نفوذ وزراء التفويض إلى السلطات القضائية والدينية الخاصة بالخلفاء ، والمتعلقة بصميم أحقيتهم للإمامة ، من وجهة نظر الفكر السياسى الفاطمى ، أعنى شئون القضاء والدعوة[1] ، لكون الخليفة هو المجتهد المطلق فى الفقه الإسماعيلى لميراثه للعلم اللدنى الذى إختص به الأئمة من آل البيت وما اكسبهم هذا من قدرة على تأويل آيات القرآن[2] ، ولكون الهدف الأول من الدعوة الفاطمية ، هو تأكيد عقيدة « الولاية » أى الطاعة للأئمة ، فى نفوس المستجيبين للدعوة [3] ، ووصل الحد بتهاون وزراء التفويض بالخلفاء ونفوذهم الروحى ، إلى الحد الذى تلاعبوا به بالنص ، وهو الوصية بولاية عهد الخلافة ، التى يعتقد الشيعة أن الخليفة الفاطمى موحى بها من الله[4] ، فكان وزراء التفويض يبعدون أولياء عهود الخلفاء الكبار ، ويدّعون النص على أمراء صغار من البيت الفاطمى ، ليسهل السيطرة عليهم وعلى الدولة[5] .

وسواء صدق ما ذهب إليه البندارى ، من القول بأن شيركوه ، بعد حملاته المتكررة على مصر كقائد لجيوش نور الدين ، قد راودته فكرة أن يصبح « عزيز مصر »[6] وهو اللقب الذى ورد فى القرآن للدلالة على فرعون مصر الذى عاصر نبى الله يوسف الصديق[7] ، فإن الواقع يؤكد ما لاحظه ابن الأثير من أن شيركوه بعد توليه للوزارة الفاطية قد استقرلات له السلطنة بمصر[8] . وقد ذكر بعض المؤرخين أن صلاح الدين قد تولى الوزارة بوصية من عمه شيركوه[9] ، ويؤيد هذا ما ذكرته المصادر من أن صلاح الدين كان يقوم بتدبير جميع الأمور ، ويُباشر مهام الحكم ، إبان وزارة

(١) كان وزير التفويض يتلقب بـ " كافل قضاة المسلمين ، ويلقب " هادى دعاة المؤمنين ، ماجد نظم الفاطميين ، ج ١ ص ٨٤ .
(٢) نفس المرجع : ج ١ ص ٥٩ – ٦٠ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦ – ٨ .
(٣) يقول د. محمد كامل حسين : " وخلاصة القول فى العقائد الفاطمية " ، إن الولاية هى محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتمجيده ، أكثر من أى شىء آخر ، أنظر فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٩ . وعن مبدأ الولاية عند الإسماعيلية أنظر ماجد : نظم الفاطمين، ج ١، ص ٦١ – ٦٤ .
(٤) ماجد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦١ – ٨٢ .
(٥) جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٩ – ٢٢ ، ص ٢٦ – ٣٢ .
(٦) البندارى : تاريخ آل سلجوق ، ص ١٥٢–١٥٣ .
(٧) القرآن الكريم ، سورة يوسف ، الآية ٣٠، ٥٠، ٥١، ٥٤ .
(٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٧ .
(٩) ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ ، س ١٥–١٦ .

شيركوه[1] ، فى حين ذهب البعض الآخر ، بأن الخليفة العاضد ، هو الذى اختار صلاح الدين ليوليه الوزارة ، لكونه صغير السن ، قليل الاتباع والعسكر فى الجيش النورى بمصر ، مما يسهل انقياده له[2] ، وبالغ بعض المؤرخين ، فذكروا أن شيركوه كان قد سم فى خِلَعه الوزارة ، لما خلع عليه[3] .

وأياً كان الأمر فإن تولى وزيرين سنيين على التوالى ، لوزارة التفويض ، أى السلطنة ، لخلفاء الفاطميين الشيعة بمصر ، جعل حال الخليفة العاضد فى ذلك الوقت ، أقرب بأحوال الخلافة العباسية السنية ، حين سيطر عليها سلاطين البويهيين الشيعة[4] ، ولقد أكد ابن شداد أن صلاح الدين بعد توليه للوزارة الفاطمية ، قد تغلب على الأمر كله ، وأدرك ما ينتظره من مهام ضخمة فى استرداد ساحل الشام من الصليبيين ، بل شرع صلاح الدين فى إزالة الخلافة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية من مصر ، وهو لا يزال وزيراً للفاطميين ، إذ يقول ابن شداد : « ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله لى الديار المصرية ، علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى . ومن حين استتب له الأمر ، مازال يشن الغارات على الأفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادها ، وغشى الناس من عجائب الأفضال والنعم مالم يؤرخ عن غير تلك الأيام ، هذا كله وهو وزير متابع للقوم ، ولكنه مقو لمذهب السنة ، غارس فى أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ، ويفدون عليه من كل جانب ، وهو لا يخيب قاصداً ، ولا يعدم وافداً إلى سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م[5] .

والطريف أن صلاح الدين ، إبان وزارته للعاضد ، قد أشاد بحرص العاضد على الجهاد ، وإمداده بالأموال الطائلة لرد الفرنج حين حاصروا دمياط ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م[6] ولا شك أن انتصار صلاح الدين فى دمياط قد وطد أقدامه[7] كذلك ضغط صلاح الدين على العاضد لإعطائه أموال يفرقها على الناس لاستمالة الأنصار ، فاستجاب له العاضد ، فكان كما لاحظ المؤرخون كالباحث

(١) نفس المصدر ، ص ٤٠ .

(٢) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ١٥١ .

(٤) راجع ماجد : الناصر صلاح الدين الأيوبى ، بيروت ١٩٦٧ ، ٧٢ – ٧٤ .

(٥) ابن شداد النوادر ، ص ٤٠ – ٤١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٦) النابلسى : لمع القوانين ص ١١ كان صلاح الدين يقول : ما رأيت أكرم من العاضد ، جهز إلى فى حصار الفرنج ألف ألف دينار ، سوى الثياب وغيرها . (سبط : مرآة ٨ : ٢٧٩) .

(٧) وصف ابن شداد صلاح الدين إبان حملة الفرنج على دمياط ، وما قام به من استعدادات عسكرية ، وما وهبه من العطايا والهبات بأنه " كان وزيراً متحكماً لا يرد أمره فى شىء " ، (ابن شداد: النوادر، ص ٤٣ ، س٩).

عن حتفه بظلفه[1] .ثم ما لبث صلاح الدين ، حسب قول الخالدى ، أن نقل ما كان من وزارة التفويض والعهد بها إلى السلطنة ، وصارت الوزارة عن السلطان معدوقة بقدر مخصوص من التصرف ، وبقى الأمر على ذلك إلى زماننا[2] ، أى إلى العصر المماليكي . فلا غرو ان اعتبر ابن واصل ، تاريخ تولى صلاح الدين للوزارة الفاطمية سنة ٥٦٥هـ ١١٦٩م تاريخ إبتداء الدولة الأيوبية . إذ قال معلقًا على المنشور العاضدى بوزارة صلاح الدين . « وهذا آخر منشور كتب عنهم، أى الفاطميين ، وانقرض أمرهم ، وانقصمت عرى دولتهم . وفى هذا التاريخ ابتداء الدولة الأيوبية ، وأخذت الدولة المصرية فى الوهن والضعف والإنحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين[3] .

ولعل مما يؤكد تطابق منصبى وزارة التفويض ، والسلطنة ، ما حدث فى مصر عند قيام الدولة الأيوبية بها . إذ إتخذ كل من شيركوه وصلاح الدين دار الوزارة الفاطمية مقرًا رسميًا لهما[4] ، بل دفن فيها كل من شيركوه[5] ونجم الدين أيوب[6] بعد وفاتهما .

وإذا كان شيركوه ، هو أول من نال وزارة التفويض والسلطنة من البيت الأيوبى ، فإن أخاه الأكبر نجم الدين أيوب ، هو ولا ريب عميد الأسرة الأيوبية ، وإليه انتسب جميع أفراد هذا البيت ، سواء من نسله ، أو من نسل أخيه شيركوه ، لهذا وصفه المؤرخون بـ « والد الملوك »[7] فنجد أن

(١) ابن واصل : مفرج ، ص ١ ، ص ١٧٤ ، ابن خلكان : وفيات ،ج ٧ ، ص ١٥١ – ١٥٤ . يقول ابن شداد : " وبذل المال " ، وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، (النوادر ، ص ٤٠ ، ١٦ – ١٧) يقول ابن واصل : ثم شرع صلاح الدين فى استمالة قلوب الناس إليه وبذل من الأموال ما كان أسد الدين جمعه وطلب من العاضد شيئًا يخرجه ، فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العضاد ، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٤٠٨ ، س ٦ – ٨ ، وانظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) الخالدى : ١٩٣ ب – ١٩٤ أ ، وأيضًا القلقشندى : صبح ، ج ٩ ، ص ٣٩٩ – ٤٠٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧١ .

(٤) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٦٤ . س ١ .

(٥) ابن خلكان : وفيات ج ٧ : ١٥١ س ٦ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٢٩٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٣ – ٥٤٢ .

(٦) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٣ ، س ١٥ – ١٦ .

(٧) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ٢٣٠ ، س ٢ ، وأنظر محمد عبد الغنى حسن : والد الملوك الأيوبية ، مقال بمجلة الرسالة ، السنة التاسعة ، ١٣٦١هـ – ١٩٤٢م ، ص ٩٩١ ، وأنظر أيضًا جمال الدين الشيال : والد الملوك الأيوبية ، مقال بمجلة الرسالة ، السنة التاسعة ص ١٠٧٩ – ١٠٨٠ . وقد وصفه مترجموه بأن " إليه نسبه الأيوبيين كافة " ، بمعنى أنه حتى الفرع الذى من نسل شيركوه والذى حكم فى حمص ، عرف أيضًا بالأيوبيين .

ولده صلاح الدين يخرج إليه إبان وزارته لاستقباله عند دخوله مصر ، ومعه الخليفة العاضد[1] ، وفي هذا استهانه بالخليفة الفاطمي ، ومبالغة في تمجيد والد صلاح الدين كبير البيت الأيوبي . الذى استقرت له السلطنة بمصر ، بعد أن ورث صلاح الدين عمه شيركوه فى وزارة التفويض الفاطمية . وهذا ما أكده تقليد العاضد لصلاح الدين[2] . وما حاول صلاح الدين تثبيته في الأذهان ، حين عرض على أبيه وزارة مصر ، فأبى ذلك عليه أبوه ، فحكمة صلاح الدين فى الخزائن بأسرها[3] .

ولقد ظل صلاح الدين يسكن دار الوزارة الفاطمية طوال فترة استقراره بمصر ، ثم سكنها من تلاه من ملوك الأيوبيين بمصر ، وصاروا يسمونها الدار السلطانية[4] . حتى انتقل الملك الكامل محمد إلى قلعة الجبل بعد اكتمال بنائها[5] ، ولقد ظلت قلعة الجبل مقرًا لسلاطين مصر الأيوبيين ثم المماليك ، ثم ملوك أسرة محمد على ، حتى عهد الخديوى اسماعيل[6] .

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٨٦ ، س ٤ .

(٢) أنظر القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٩٥ ، س ٨ - ١١ ، وانظر قبله . وقد رأينا ظاهرة تولى وزراء التفويض الوزارة وراثة عن آبائهم أكثر من مرة في العصر الفاطمي المتأخر ، حتى أن آخرهم شاور ، جعل ابنه نائبًا عنه فى الوزارة إبان حياته . ولقد حفظ لنا القلقشندى ، السجل الصادر بتوليه ابن شاور نيابة الوزارة عن أبيه ، أنظر جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٣٢ - ٣٣) .

(٣) يقول ابن واصل : ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته ، وفوض إليه الأمر كله فأبى ذلك عليه أبوه وقال له : " يا ولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له ، فلا ينبغى أن تغير مواقع السعادة ، فحكمة في الخزائن بأسرها (ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ١٨٦ ، س ٧ - ١٠) . ويقول سبط ابن الجوزى : " ولما قدم نجم الدين أيوب مصر سأله صلاح الدين أن يكون هو السلطان فقال أنت أولى (مرآة ٨ : ٢٩٥) وهذا النص قرينه أخرى على تطابق وظيفتي وزارة التفويض والسلطنة .

(٤) ذكر المقريزى أن دار الوزارة أنشأها الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، ولهذا كان يقال لها أيضًا الدار الأفضلية وكانت تقوم بجوار القصر الكبير الشرقى تجاه رحبة باب العيد ، ومازال وزراء الفاطميين أرباب السيوف من عهد الأفضل يسكنون بدار الوزارة إلى أن زالت الدولة ، فاستقر بها الملك الناصر صلاح الدين ثم من تلاه من ملوك الأيوبيين ، وصاروا يسمونها الدار السلطانية ، وأول من انتقل عنها وسكن بالقلعة الملك الكامل محمد ، وجعلت منذ ذلك الحين منزلاً لضيافة الرسل (المقريزى : الخطط ، ٢ : ٣٠١ - ٣٠٤) ، من مطبعة بولاق و ج ٢ ص ١٥٧ من طبعة مطبعة النيل .

(٥) ابتدى العمل بقلعة الجبل ٥٧٢هـ - ١١٧٦م فى عهد صلاح الدين وأثناء العمل توفى صلاح الدين ٥٨٩هـ - ١١٩٢م ، ثم أوقف العمل إلى أن كمل فى سلطنة العادل ٦٠٤هـ - ١٢٠٧م . ولم يبق من بناء القلعة الأيوبية سوى بعض الأسوار بأبراجها وبعض الأبواب وأهمها باب المدرج وقد أدخلت على الأسوار وعلى كثير من الأبراج والأبواب تعديلات وزيادات فى أزمنة مختلفة منذ الدولة الأيوبية حتى عصر محمد على ، أنظر بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ترجمة أحمد دراج القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، د. أ. كريزويل : ووصف قلعة الجبل ترجمة جمال محرز القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، وأنظر زكى محمد حسن : قلعة الجبل ، مقال بمجلة الكاتب ، ١٩٤٦ ، ص ٨٧٣ - ٨٨٢ ، وأنظر قبله .

(٦) أنظر حسن عبد الوهاب : جامع السلطان حسن وما حوله ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٦٤ - ٩٦ .

فإذا كنا قد انتهينا إلى تطابق منصب وزارة التفويض الفاطمية ، مع منصب السلطنة الذى عرف بالعراق العباسى اعتماداً على ملاحظة المؤرخ المشرقى ابن الأثير وملاحظة مؤرخى دساتير الإنشاء المصريين ، وإذا كان تقليد الخليفة الفاطمى العاضد بالوزارة لصلاح الدين ، قد نص على أنه نالها وراثة عن عمه شيركوه شأن الأفضل بن بدر الجمال ، وغيره من وزراء التفويض الفاطميين الذين ورثوا أباءهم فى هذا المنصب ، وشأن توارث البيت البويهى ثم السلجوقى بالعراق لمنصب السلطنة ، فإن فى اعتبار ابن واصل ، تاريخ اعتلاء صلاح الدين للوزارة ، هو ابتداء قيام الدولة الأيوبية بمصر ، وفى دفن صلاح الدين لعمه وأبيه فى دار الوزارة الفاطمية ، ثم اتخاذه هو وملوك بنى أيوب من بعده هذه الدار مقراً رسمياً لسكناهم وسميت « بالدار السلطانية » ، ما لا يدع أى مجال للشك فى تطابق منصبى وزارة التفويض والسلطنة .

والأن ما هى السلطات التى تمتع بها كل من شيركوه وصلاح الدين ، كوزيرى تفويض للخليفة الفاطمى العاضد ؟ يلاحظ الشيال ، أن الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى ، لم يعدوا يقنعون بالتفويض الشامل ، الذى ينص عليه الخليفة فى السجل الصادر بتعيين الوزير ، بل أصبح من التقاليد المتبعة أن تصدر وثيقة جديدة تسمى بالتوقيع ، وتلحق بالسجل ، وفيها يوقع الخليفة بخطه بكلمات فيها معنى التأييد لوزيره والإشارة بفضله وسجاياه . وقد احتفظ القلقشندى بثلاث وثائق من هذا النوع أحدهما توقيع بخط الخليفة الفائز على طرة السجل بتعيين الصالح طلائع بن رزيك الوزارة ، والآخران توقيعان بخط الخليفة العاضد على طره سجل كل من أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين بالوزارة[1] .

ولاشك أن صدور هذه الوثيقة الجديدة ، التى يكتبها الخليفة بخطه ، دلالة على الازدياد المستمر لسلطات وزراء التفويض على حساب السلطة الروحية للخليفة ، تلك السلطة التى لم يعد الخليفة يمتلك غيرها فى الواقع ، خاصة إذا عرفنا أن الخلفاء الفاطميين ، لا يكتبون بخط أيديهم إلا نادراً[2] ، وبالإضافة إلى كل هذا ، ومع ما عرف من استحواذ وزراء التفويض لجميع سلطات الخليفة ، فلقد استهل العاضد توقيعه على طره سجل شيركوه بالوزارة بهذه العبارة « هذا عهد لم يعهد لوزير مثله »[3] ، فهذه العبارة ولا ريب تؤكد بداية سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، بخط يد آخر خلفاء

(١) جمال الدين الشيال : مجموع الوثائق الفاطمية ، ص ٣١ – ٣٢ .

(٢) عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الأيوبى ، ص ٧٢ – ٧٣ .

(٣) أنظر ابن واصل : مفرج ، ١ : ١٦٥ ، القلقشندى : صبح ٩ : ٤٠٦ – ٤٠٧ ، أبو شامة : الروضتين ، ٢/:١ ، ٤٠٢ .

الفاطميين، كما يستشف من حرص الخليفة العاضد على أخذ الإيمان والمواثيق ، بالوفاء للدولة ، على كل من شيركوه ثم صلاح الدين ، إن العاضد ، كان يشعر فى داخلية نفسه ، ما يعده وزيراه السنيان لإزالة خلافته الشيعية[1] .

أما سجل تقليد العاضد لشيركوه بالوزارة ، فهو يبدأ بتعداد ألقاب شيركوه التى منحها له الخليفة ، وهى تطابق ألقاب وزراء التفويض الفاطميين قبله[2] ، يتلو هذا فقرات وصيغ تؤكد ميراث الخلفاء الفاطميين للإمامة ، لكونهم أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبناء على بن أبى طالب ، ومن ذرية آل البيت الطاهرين من الأئمة المهديين[3] ، كما تؤكد حق الخلافة الفاطمية فى السيادة على جميع أرجاء العالم الإسلامى ، لكون الخليفة الفاطمى هو حجة الله فى الأرض وشاهد على عصره[4] ، ثم يعقب السجل على هذه الفقرات ، المؤيدة للنظريات السياسية الإسماعيلية الخاصة بالإمامة ، بفقرات أخرى تظهر شيركوه على أنه نعمة أنعم بها الله على الخليفة الفاطمى ودولته[5] ، وأنه جاء لنجدة الخلافة الفاطمية وتأييدها ، وإنقاذها من الخطر الصليبى المتمثل فى جيوش ملك بيت المقدس التى دهمت الديار المصرية أكثر من مرة ، حتى هزمها شيركوه وأرغمها على الانسحاب[6] ، كما أنقذها أيضًا من شرور وزراء التفويض المستبدين الذى نهبوا خزائن الخلفاء واجتلبوا الصليبيين إلى البلاد[7] .

ثم يمضى السجل بحذر ، للمواءمة بين هاتين الفكرتين ، فيعرض فقرة تؤكد أحقية الفاطميين ، فى ميراث الخلافة ، ثم يُذّيّلها بفقرة أخرى تشيد بشيركوه الذى أنقذ الخلافة وأيّدها ؛ أى أن السجل يحاول أن يمسك العصا من منتصفها ، ويخفى الوضع المتناقض ، الذى أضحت عليه الدولة الفاطمية ، من حَجْر وزير تفويض سنى ، لا يقر بالدعوة الإسماعيلية ، وبحق الفاطميين فى الخلافة ، على خليفة فاطمى شيعى ، يقوم حقه فى الخلافة على الإقرار بالدعوة الإسماعيلية ، والاعتقاد بأن الولاية والطاعة للإمام الفاطمى ، أساس العقيدة الفاطمية ، فيظهر السجل الأمر ، كما لو أن الله قد ألهم

(١) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ أبو شامة : الروضتين ١/٢ ، ٤١٤ .
(٢) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .
(٣) أنظر القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٨١ - ٨٣ .
(٤) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ .
(٥) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٤ .
(٦) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٤ .
(٧) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٤ .

العاضد ، لإختصاصه بالعلوم والأسرار النبوية باختيار شيركوه لوزارته[١] وإبعاد منافسيه (شاور) ، بحيث عدد السجل مثالب شاور ومفاخر شيركوه[٢] .

ولقد حاول كاتب السجل - وهو القاضي الفاضل - أن يخفي بخبرته الطويلة في صياغة السجلات الرسمية هذا التناقض ، كما حاول أن يدس بين ثنايا السطور ، تلميحات وتقريرات للأفكار الإسماعيلية الخاصة بالنفوذ الروحي للائمة الفاطميين ، كما أقرّته العقيدة الإسماعيلية : فالخليفة هو سليل النبوة [٣] ، ووارث أسرارها وعلومها[٤] ، وله حق الطاعة على جميع المسلمين[٥] ، بل زاد هذا السجل في إظهار نفوذ روحي مزعوم للخليفة العاضد ، لا نجد له مثيلاً في النظريات الإسماعيلية ، مثل ظهور معجزات وكرامات خاصة به[٦] ، وأن الله قد اختصه بالشفاعة يوم القيامة للمستجيبين لدعوته[٧] ، وأنه مؤيد من الله عند الانتقام ممن عصا أو حاول سلب حقوقه[٨] ؛ ولا يخفى أن هذه السلطات الروحية الجديدة ، التي زعمها هذا السجل للخليفة العاضد ، ما هي في الواقع إلا محاولة مستميتة للاحتفاظ بما بقي من ولاء ، للخليفة الفاطمي في نفوس أنصار دعوته ، بعد أن ابتذل وزراء التفويض سلطاته الروحية ، واستهانوا بها ، وبعد أن أمسى نفوذه الروحي مهددًا بالتلاشي النهائي على يد وزيره السني الجديد .

واختتم سجل شيركوه بتكرار أخذ المواثيق والعهد على هذا الوزير السّنّي ، بأن يخلص الولاء للدولة الفاطمية وللخليفة الفاطمي ، وأن يلتزم بما حدده له الخليفة من مهام وسلطات في هذا السجل[٩] . وسجل تقليد صلاح الدين الوزارة ، لا يختلف في مجمله عن سجل عمه ، إلا في الإشارة بأنه قد نال الوزارة وراثة عن عمه شيركوه ، كما ورثها الأفضل عن أبيه بدر الجمالي أول وزراء التفويض الفاطميين ، وفي التأكيد على صلاح الدين في الاقتضاء بسيرة عمه في الوفاء للدولة الفاطمية ، وللخليفة الفاطمي[١٠] .

(١) أنظر القلقشندى ، ج ١٠ ، ص ٨٥ - ٨٦ .
(٢) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٧ .
(٣) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ٨٦ - ٨٧ .
(٤) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ ، س ١٢ - ١٣ .
(٥) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٢ ، س ٦ - ٩ .
(٦) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ ، س ١٠ - ١٢ .
(٧) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٢ س ١٠ - ١١ .
(٨) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ ، س ١٨ - ١٩ .
(٩) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٨ ، س ٥ - ٦ ، ج ١٠ ، ص ٩٠ .
(١٠) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩١ ، ص ٩٤ ، س ١٩ - ٢٠ ، ج ١٠ ، ص ٨١ ، ص ٩٤ .

أما مضمون سجل تقليد شيركوه بالوزاره ، فهو كما لاحظ ابن واصل : « تفويض أمور الخلافة إليه ، والقيام بأعباء حفظها ، والذب عنها ، والتوصية بتقوى الله تعالى ، والعمل بفرائضه ، والانتهاء عن مناهيه[1] وهذا فى الواقع ما نص عليه التقليد ، إذ جاء به :

« وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته ، وتدبير مملكته ، وحياطة ما وراء سرير خلافته ، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة أمامته ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ، وتدبير ما عدقه الله بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، المقيمين منهم والقادمين ، وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيها ، وسائر أعمال الدول باديها وخافيها ، وما يفتحه الله تعالى على يديك من البلاد ، وما تستعيده من حقوقه التى اغتصبها الأضداد ، وألقى إليك المقاليد بهذا التقليد .. وناطبك العقد والحل ، والولاية والعزل .. ، وما توجب السياسة إمضاءه من الأحكام »[2] .

وجلى إذا أن الخليفة قد تنازل عن جميع سلطات الخلافة ، سواء الإدارية الخاصة بتدبير المملكة ، أو الدينية الخاصة بالدعوة الإسماعيلية والقضاء ، أو العسكرية الخاصة بالإشراف على الجيش واسترداد الأراضى التى احتلها الصليبيون من ممتلكات الدولة الفاطمية ، أى بيت المقدس ، بالإضافة إلى رعاية شئون رعايا الخليفة ، والملاحظ من هذه السلطات ، أنها قد جمعت لشيركوه الإشراف الأعلى على السلطتين التنفيذية ، والقضائية أى التشريعية ، وذلك لأن الفكر السياسى الفاطمى ، إمعانًا فى تقوية نفوذ الخليفة ، لم يأخذ بنظام فصل السلطات ، الذى يعد من أهم خصائص النظرية السياسية فى الإسلام[3] ، على أساس أن الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية ، واستنباط الأحكام منها ، طبقًا لقواعد علم أصول الفقه وهو علم مناهج البحث فى الفقه الإسلامى[4] ، هو من حق أهل الحل

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) أنظر عبد الوهاب خلاف : السلطات الثلاث فى الإسلام ، بحث بمجلة القانون والاقتصاد التى تصدرها جامعة القاهرة فى السنوات ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ ، سليمان محمد الطماوى : السلطات الثلاث فى الدساتير العربية المعاصرة ، وفى الفكر الإسلامى ، تكوينها واختصاصاتها ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦٧ ، محمد صادق الصدر : سلطة القضاء فى الشريعة الإسلامية ، مجلة رسالة الإسلام، العددان : الثالث والرابع ، السنة الثانية عشرة ، سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ، ص ٣٢٦ - ٣٥٥ .

(٤) عن علم أصول الفقه ، أنظر محمد أبو زهرة : أصول الفقه ، دار الفكر العربى ، د.ت. محمد طاهر النيفر : أصول الفقه ، طبع تونس ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

والعقد والفقهاء الممثلين لإجماع الأمة[1] . بمعنى أنه إذا كانت السلطة التنفذية من حق الخليفة السنى ، فإن السلطة التشريعية من حق الأمة ، أما الفكر السياسى الإسماعيلى ، فقد جعل الخليفة المجتهد المطلق فى الفقه الإسماعيلى [2] ، ومن ثم فقد فوض شيركوه ، السلطتين التنفيذية والتشريعية ، بمقتضى تفويض الخليفة العاضد له أمور الخلافة كلها ، وهذا التفويض للسلطتين قد آل أيضًا إلى صلاح الدين ، فلقد جاء فى سجل تقليده الوزاره :

« .. وخرج أمره (أى الخليفة العاضد) إليك ، بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء ، يكتب هذا السجل لك بتقليد وزارته التى أحلك ربوتها ، فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبتها التى تناهت فى الإنافة ، إلا أن لا رتبة فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافة[3] ، وليس أكثر من هذا تصريح وإفصاح ، عن استحواذ صلاح الدين لجميع سلطات الخليفة الفاطمى .

ويتفق سجلا تقليد شيركوه وصلاح الدين للوزارة ، فى تحديد المطلوب من هذين الوزيرين تجاه كل شأن من شئون الدولة ، فبالنسبة لعساكر الدولة ـ وكان الخليفة يقصد جنود دولته وليس الجنود الشامية النورية التى قدمت مع شيركوه ، لقول الخليفة « العساكر المنصورة .. ، الذين غذوا بولاء أمير المؤمنين ، وربوا فى حجور فضله وكرمه » ، طالب الخليفة وزيريه بتوفير الإقطاع لهم وأدرار النفقات ، وإن يجريهم على ما جرت عليه العادة من تقليد الولايات [4] ، يعنى ولاية الأقاليم

(١) أنظر محمود اللبابيدى : نظام الإسلام السياسى ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الرابعة العدد الرابع ، محرم سنة ١٣٧٢هـ – أكتوبر سنة ١٩٥٢م ، ص ٣٧٦ – ٤٠٢ ، محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٢٩٠ – ٣١٠ ، عبد الحميد متولى : مبادىء نظام الحكم فى الإسلام مع مقارنته بالمبادىء الدستورية الحديثة ، دار المعارف ، ١٩٦٥م .

ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن فكرة السيادة العامة للدولة ، هى بالنسبة للفكر السياسى الإسلامى (عند أهل السنة) متمثلة فى الأمة وأنظر رسالة للدكتوراه عن فكرة السيادة فى الفكر الإسلامى أجيزت من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ ، على محمد جريشه : المشروعية الإسلامية العليا ، نشر مكتبة وهبة ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م . أما بالنسبة للفكر السياسى الشيعى ، فإن فكرة السيادة أى الحق الذى تحكم به الدولة ، أو المشروعية العليا للدولة فهى تستند فى رأينا على فكرة " الولاية " ، أى الطاعة للخليفة الفاطمى ومن ثم فإن الأمة فى الفكر السياسى السنى هى مصدر السلطات ومصدر السيادة اما فى الفكر السياسى الشيعى ، فإن الإمام هو مصدر السلطات ومصدر السيادة .

(٢) ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٣) القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٩٥ .

(٤) القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٨٨ – ٨٩ ، ص ٩٦ س ١٢ – ١٦ .

والإدارات المحلية ، وبالنسبة للقضاء ، فقد طالب الخليفة وزيريه بحفظ نظامه ، وتنفيذ أحكامه ، وإقامة حدوده ، وإمضاء عقوده ، واستعمال الكفاه[1] ، أما الدعوة ، ففي حين أكد العاضد على شيركوه ، بالقيام على تشييد أساس الدعوة وبنائها ، وتمييز آخذى عهودها وأبنائها[2] ، فإنه قد اكتفى بالقول لصلاح الدين ، وأما القضاه والدعاه فهم فى كفالتك وهديك ، والتصريف على أمرك ونهيك[3] ، وكأنه يقول له ، لقد سلمت إليك أمر دعوتى ، فافعل فيها ما يمليه عليك ضميرك .

ولقد اتفق التقليدان ، فى الحض على حفظ أموال بيت المال ، وصرفها فى وجوهها الشرعية والعمل على تثميرها وتعمير البلاد ، وأهم ما نلاحظه بخصوص السلطات الإدارية أن الخليفة قد طالب وزيره شيركوه ، برفع المكوس ـ وهى الضرائب غير الشرعية ـ التى عمد الجباه على جبايتها مما أثقل كاهل الرعية[4] ، كذلك ناشد السجلين شيركوه وصلاح الدين ، معاملة الرعية بالعدل والرأفة ، على أساس تقوى الله ، وليحظوا من الرعية بالدعاء الذى من شأنه أن يوفقهما فيما نهضا به من أعباء المملكة[5] .

ويتميز هذان السجلان بتخصيص فقرات طويلة بليغة تؤكد عظم فريضة الجهاد وتشيد ببطولة كل من شيركوه وصلاح الدين فى جهاد الصليبيين ، سواء فى الشام أو بمصر ، ولقد تنبأ السجلان ، بأن فتح بيت المقدس، واسترداد ساحل بلاد الشام من الصليبيين ، سيكون على يد هذين الوزيرين[6] .

ونحن لا نعرف ما اشتملت عليه خلعة الوزارة ، التى خلعها العاضد على شيركوه ، فى حين وصلنا وصف دقيق كامل للخلع التى خلعت على صلاح الدين عند توليته الوزارة ، ولقد أورد هذا الوصف أبو شامة الأصفهانى فقال : « وكانت خلعة الوزارة : عمامة بيضاء تنيسى بطرز ذهب ، وثوب ديبقى بطرازى ذهب ، وجبة سقلاطون بطرازى ذهب ، وطيلسان ديبقى بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار ، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق وتخت ، وسرفسار ذهب مجوهر ، وفى رقبة الحجر مشده بيضاء وفى رأسها مائتا حبة جوهر ، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب فى رأسها طالعه مجوهره ، وفى رأسها مشدة

(١) القلقشندى : ج ١٠ ، ص ٨٩ ، ٩٧ .
(٢) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٩ .
(٣) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩٧ .
(٤) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٩ – ٩٠ .
(٥) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩٧ – ٩٨ .
(٦) نفسه ، ح ١٠ ، ص ٩٠ ، ٩٧ .

بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بقج ، وعِدّة من الخيل ، وأشياء أخرى[1] ، كما أفاد أبو شامة أيضًا أن منشور تقليد صلاح الدين الوزارة ، كان ملفوفًا فى ثوب من الأطلس الأبيض[2] .

والملاحظ أن هذه الخلعة ، قد اشتملت على أزياء رسمية خاصة بالوزراء الفاطميين مثل العقد الجوهر ، كذلك فأغلب الظن أن الثوب الديبقى المطرز بالذهب ، هو الدراعة ، وهى ثوب قصير مشقوق من أمام محلى بعرى وأزرار ، عن الثوب المميز للوزراء الفاطميين[3] ؛ كما يلاحظ أيضًا خلو هذه الخلعة من الدواه المحلاة بالذهب ، وهى من علامات الوزارة ، وترمز إلى سلطة الوزير الإدارية[4]. أغلب الظن لأن صلاح الدين كان وزير سيف وليس وزير قلم .

ومن ناحية أخرى نلاحظ تشابه خلع الخليفة الفاطمى لوزير تفويضه صلاح الدين مع خلع الخليفة العباسى لكل من سلاطين بنى بويه وبنى سلجوق وبنى أيوب على التوالى[5] . فيما عدا اختلاف جوهرى واحد ، وهو أن الخلع العباسية قد اتخذت لون السواد[6] وهو الشعار المميز للعباسيين[7] ، فى حين اتخذت الخلع الفاطمية لصلاح الدين لون البياض[8] ، وهو الشعار المميز

(١) أبو شامة : الروضتين ، ح ١ ، ص ١٧٣ (من الطبعة القديمة) ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٩ ، من طبعة د. حلمى . ولقد قال أبو شامة : ج ١ ، ٤٠٧ س ٧ - ٨ ، أن خلعة الوزارة لصلاح الدين كانت الجبة والعمامة وغيرهما .

(٢) نفس المصدر ، ١ : ١٧٣ أيضًا (من الطبعة القديمة) ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٩ ، من ط د. حلمى . ويذكر سبط ابن الجوزى أن العاضد قد خلع على صلاح الدين خلعة الوزارة فى إيوان القصر ، ولقبه بالملك الناصر ، وقيل إنما لقبه المستضىء بعد ذلك مرآة ، ج ٨ ، ص ٢٧٩) .

(٣) أنظر ماجد : صلاح الدين ، ص ٧٣ ، وأيضًا ماجد : نظم الفاطميين ، ١ : ٨٩ - ٩٠ .

(٤) ماجد : نظم الفاطميين ، ح ١ : ص ٩٠ .

(٥) عن هذه الخلع العباسية ، أنظر القلقشندى : صبح ، ٣ : ٢٧٢ وأنظر قبله وبعده .

(٦) أنظر القلقشندى : صبح ، ح ٣ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ .

(٧) سبب اتخاذ بنى العباس السواد فى ملابسهم ، يعلله المؤرخون بأكثر من تعليل ، فربما يرجع ذلك إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم عقد لعمه العباس يوم حنين ويوم الفتح راية سوداء ، وقيل بل حزنًا على إبراهيم الإمام (أخو أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور) وأوفى مرجع جمع كل ما يتعلق باتخاذ بنى العباس للسواد ، هو كتاب شمس الدين السخاوى . عمدة الناس فى مناقب بنى العباس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ ، ولقد تناول السخاوى هذا الموضوع فى فصل خاص عنونه بـ : " كون شعارها أى الخلافة العباسية - السواد ، ورقة ١٠١ - ١٠٣ ظ ، وانظر أيضًا السيوطى : رفع الباس عن بنى العباس ، مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٢٠١ مجاميع ، ق ٢٤٠ ، وانظر أيضًا السيوطى : رسالة بعنوان " ثلج الفؤاد فى أحاديث لبس السواد " ، مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٤٣ مجاميع ، الحسن بن عبد الله ، أثار الأول فى ترتيب الدول ص ١٠٢ - ١٠٣ ، القلقشندى : مآثر الإنافة ، ٢ : ٢٣٥ - ٢٣٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ح ٣ ، ص ٢٧٤ المقريزى : الخطط طبع بولاق ٢: ٢٢٨ السيوطى : الوسائل إلى مسامرة الأوائل ، ص ٦٩ - ٧٠ ، أحمد تيمور باشا : التذكرة التيمورية ، ص ٢٦٤ - ٢٦٨ .

(٨) ماجد : صلاح الدين ، ص ٧٣ .

للفاطميين[1] ، وأخيرًا فإن احتواء الخلعة على « الطيلسان » ، وهو زى القُضاة ، يشير إلى أن صلاح الدين ، كوزير تفويض ، كان له الإشراف على القضاء والدعوة .

كذلك نجد تشابهًا فى رسوم تقليد الخليفة العاضد لكل من شيركوه وصلاح الدين للوزارة ؛ من ناحية إنفاذ الخلعة لهم ثم استقبالهما فى قصره ، ومخاطبتهم بلقبهم الرسمى الذى خصهم به ، بحيث خوطب شيركوه بالملك المنصور[2] ، وخوطب صلاح الدين بالملك الناصر[3] ؛ ثم مسير هذين الوزيرين وهما مرتديين الخلع الخليفتية إلى دار الوزارة ؛ مع رسوم تقليد خلفاء بنى العباس لسلاطين بنى بويه وبنى سلجوق الذين كانوا ملازمين للحضرة السلطانية فى بغداد[4] .

أما ألقاب شيركوه وصلاح الدين ، التى منحها لهما الخليفة العاضد ، فهى تطابق ألقاب وزراء التفويض الفاطميين ، إذ لقب كل منهم بـ « السيد » ، الأجل ، الملك ، المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأمة ، فخر الدولة ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، كما نسب كل منهما إلى الخليفة الفاطمى أى وصفا بـ « العاضدى »[5] وأن تميز كل من هذين الوزيرين السنيين بلقب جديد ، هو « سلطان الجيوش » ، أغلب الظن لتوليهما الإشراف على الجيوش المصرية الفاطمية والشامية النورية، الموجودة تحت قيادتهما بمصر[6] .

(١) عن كون البياض هو شعار الفاطميين أغلب الظن لمخالفة ومناقضة شعار أعدائهم العباسيين وهو السواد ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٧٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٢ : ٢٨١ ، الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٠٢ ، المقدس : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٨ ، ابن خلدون : المقدمة ج ١ : ٢١٦ ، أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٢) أنظر ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٥١ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٣ - ١٦٤ ، ابن الأثير : الباهر ص ١٤٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ط. د . حلمى ، ج ١ ق ٣ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ويقول أبو شامة : ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين ، أمر بقراءته على رؤوس الإشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدة دفعات استحسانًا لمعانيه ، واستطرافًا لما أودع من بدائع الكلام فيه (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢، ص ٤٣٦ - ٤٣٧) .

(٣) ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٥ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ق ٢ : ٤٣٩ حيث يقول "وقُرئ المنشور بين يدى الملك الناصر يوم جلوسه فى دار الوزارة وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية ، وكان يومًا عظيمًا ، وخلع السلطان (كذا) على جماعة الأمراء والكبراء ، ووجوه البلد ، وأرباب دولة العاضد " .

(٤) القلقشندى : مآثر ٢ : ٢٣٧-٢٤٠ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٢٦٩-٢٧٢ ، وانظر قبله .

(٥) القلقشندى : صبح ، ح ١٠ ، ص ٨٠ ، س ١٥ - ١٨ .

(٦) ماجد : نظم الفاطميين ، ح ١٠ ، ص ٨٤ .

والجدير بـالذكر أن لقب الملك[1] ، الذى حمله جميع أفراد الأسرة الأيوبيـة ، خاصـة ملـوك الأطـراف منهـم ، وذلـك بعـد قيـام السـلطنة الأيوبيـة بمصـر ، قـد ورثـوه أيضًـا عـن وزراء السـيوف الفاطميين ، إذ حمل هذا اللقب بملاحظة الخالدى والقلقشندى كل مـن الملـك الأفضـل رضـوان وزيـر الحافظ ، وهو أول من لقب بالملك منهم ، والملك الصالح طلائع بن رزيك وزيـر الفـائز ثـم العـاضد ، ثم شيركوه وصلاح الدين ، وذلـك قبـل أن يسـتقل بـالملك ويخطـب بالديـار المصريـة لبنـى العبـاس ، ويضيف الخالدى ، أن الخليفة كان يحتجب والوزير هو المتصرف كالملوك[2] ، كذلك لاحظ أبـو شـامة أن وزير السيف الفاطمى كان يلقب عندهـم[3] بالسـلطان ، لذلـك اعتقـد بعـض البـاحثين ، أن لقـب سلطان قد ورثه الأيوبيون عن طريقين ؛ إحداهما ، وراثـة عـن أسـتاذهم نـور الديـن الـذى حمـل هـذا اللقب بدوره وراثة عن أساتذته السلاجقة ، إذ كـان نـور الديـن ، أتابكـا تابعًـا لهـم بحلـب ودمشـق ؛ وثانيهما ، وراثة عن وزارة التفويض من رجال السيوف فى العصر الفاطمى[4] ، ويؤيد هذا الـرأى مـا

(١) عن لقب ملك ، وكون ملوك بنى بويه هم أول من حملوه فـى الإسـلام ، أنظـر القلقشـندى : صبـح ، ج ٥ ، ٤٤٧ - ٤٤٨ ، وأنظر السيوطى : الوسائل إلى مسامرة الأوائل ، ص ٨٤ ، حيق يقول : " أول من خوطـب فى الإسلام (بالملك) ، عضد الدولة بن بويه ، وقام بعده ولده بهـاء الدولـة فزاده الطـائع فـى ألقابـه (قـوام الدين غياث الأمة) ، فهو أول من خوطب بالدين والأمة " ويقول القلقشندى : الفرق بين الملك والسـلطان ، أن الملك أخص (أنظر صبح الأعشى ، ج ٩ : ٣٩٨) .

(٢) الخالدى : المقصـد - خ لوحـة ١٩٢ أ - ١٩٣ ب ، القلقشـندى : صبـح ، ٩ : ٣٩٩ - ٤٠٤ وفـى رأى السيوطى أن هؤلاء الوزراء - الملوك ، يشبهون فى سـيطرتهم علـى خلفـاء الفـاطميين ، البويهيـين مـع خلفـاء العباسيين ، السيوطى : حسن المحاضره ، ٢ : ١٧ ، عن ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ : ٨٧ حيـث يلاحـظ أن الأيوبيين تلامذتهم المماليك ورثوا لقب الملك عن وزراء السـيوف الفـاطميين ، ثـم ورث هـذا اللقـب عـن الأيوبيين تلامذتهم المماليك .

(٣) يقول أبو شامة : وكانت عادة المصريين (يقصد الخلفاء الفـاطميين) أنـه إذا غلـب شـخص صـاحب المنصـب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم ، وهو الملقب عندهم بالسلطان ، ومـا كـانوا يـرون المكاشـفة وأغراضهـم مسـتتبة وقواعدهـم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال (أبو شامة : الروضتين ١ ق ٢ ، ص ٣٣١ س ١٤ - ١٧) وهذا ما يعلل إطلاق الشاعر عمارة اليمنى لقب سلطان على وزير التفويض الفاطمى طلائع بن رزيـك . أنظـر عمـارة اليمنى : النكت العصرية فى أخبار الـوزراء المصريـة ، تحقيـق درنـبرج ١ : ٤٤ و ١٢٢ ، عـن مـاجد : نظـم الفاطميين ١ : ٨٧ وإن ذهب إن هذه التسمية صادرة أغلب الظن عن خيال الشاعر .

(٤) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ . وقد ورث السلاجقة لقب سـلطان عـن القرنويـين ، راجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصـر الإسـلامية فـى العصـر الأيوبـى ، دار النهضـة العربيـة ، القـاهرة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ١٤٥-١٧٢، وخاصة ص ١٥٠ - ١٥٨ .

سبق أن لاحظه الخالدى والقلقشندى عن تطابق منصب وزارة التفويض الفاطمية مع منصب السلطنة العراقية وما لاحظناه من استقرار الأيوبيين الأول حتى عصر السلطان الكامل فى دار الوزارة الفاطمية وتسميتها بالدار السلطانية[1] .

(1) أنظر قبله . والواقع أن الفقيه السنى أبو الحسن الماوردى ، قد ألمح فى كتابيه الأحكام السلطانية ، وقوانين الوزارة ، إلى أن وزارة التفويض ، التى اقتصرت على رجال السيوف ، قد تطورت فى عصره وقبله ، فأصبحت تعنى مفهوم السلطنة . والجدير بالملاحظة هنا أن الماوردى ألف كتابيه فى نهاية القرن الخامس أى فى نهاية العصر البويهى وبداية العصر السلجوقى ، إذ عدد الماوردى اشتقاق كلمة الوزارة ثم علق بقوله :" ولاى هذه المعانى كان مشتقًا ، فليس فى واحد منها ما يوجب الاستبداد بالأمور ، (الأحكام السلطانية ، ص ٢٣ ، س ٢٠ - ٢١) ، ثم حرص الماوردى على أن يظهر أوجه الفرق بين وزارة التفويض والخلافة . فقال : " ويعتبر فى تقليد هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده .. ويحتاج فيها إلى شرط زائد على شروط الإمامة ، وهو أن يكون من أهل الكفاية ، فيما وكل إليه من أمرى الحرب والخراج .. وعلى هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنتظم السياسة ، (الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢١ ، س ٨ - ١٤) ، كما حرص الماوردى أن يفرق بين سلطات الإمام وسلطات وزير التفويض . فقال عن وزارته : " فالنظر فيها .. بشرطين يقع الفرق بينهما بين الإمامة والوزارة ، أحدهما يختص بالوزير ، وهو مطالعة الإمام لما أمضاه من تدبير .. ، والثانى مختص بالإمام وهو أن يتصفح أفعال الوزير .. ، وكل ما صح من الإمام صح من الوزير إلا ثلاثة أشياء ، إحداها ولاية العهد ، فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى وليس ذلك للوزير ، الثانى أن للإمام أن يستعفى الأمّة من الإمامة وليس ذلك للوزير ، والثالث أن للإمام أن يعزل من قلده الوزير ، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام (الماوردى : الأحكام ، ص ٢٣ - ٢٤) . فعلى هذا الأساس فإن الوضع الشرعى لوظيفة وزارة التفويض أو السلطنة كما أوضحه الماوردى لا يعنى استبداد رجال السيوف من الوزراء المفوضين والسلاطين بالسلطة دون الإمام ؛ كما يجعل حق ولاية العهد من حق الإمام - وهو ما لم يحترمه وزراء التفويض الفاطميين بتلاعبهم بالنص ؛ كما يجعل للإمام حق مراجعة تصرفات وزيرة وإبطالها إذا لزم الأمر . وهذا شىء لم يحدث أبدًا . سواء بالعراق العباسى أو بمصر الفاطمية . وعن أحكام وزارة التفويض ، أنظر الماوردى : قوانين الوزارة وسياسة الملك ، ص ١٠ - ٣٥) . ولقد أوضح ابن خلدون بحاسته التاريخية المرهفة كيفية تحول وزارة التفويض إلى وظيفة إمرة الأمراء أو السلطنة فى العصر العباسى الثانى وكون بنى بويه وزراء سيوف استنكفوا اتخاذ ألقاب الوزراء ، فتلقبوا بالسلطان . يقول ابن خلدون : " فلما جاءت دولة بنى العباس .. وعظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد .. ، فصار اسم الوزير جامعًا لخطتى السيف والقلم .. ، فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهى حال ما يكون السلطان قائمًا على نفسه ، وإلى وزارة تفويض وهى حال ما يكون الوزير مستبدًا عليه ، ثم استمر الإستبداد وصار الأمر لملوك العجم البويهيين وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن يتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب لأنهم خول لهم فتسموا بالإمارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه فى ألقابهم وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة من خاصته ، ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم (أنظر ابن خلدون : المقدمة ، طبع المطبعة الأدبية بيروت ، ١٩٠٠م ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩) .

وسائل القضاء على المذهب والتراث الفاطمى بمصر والشام واليمن :

وعلى هذا النحو ، كانت أمور الدعوة الفاطمية ، عندما نجح كل من شيركوه وصلاح الدين ، فى استحواذ وزارة التفويض الفاطمية ، التى تكفل لهم سلطاتهم ، حجر الخليفة الفاطمى ، وانتزاع جميع سلطاته السياسية ، وفى نفس الوقت الهيمنة على شئون الدعوة الفاطمية : تقوقعت النزارية الشرقية فى إيران ، تحت عنف الضربات العسكرية لسلاطين السلاجقه ، وتشتت النزارية بالشام وضعف التشيع به ، نتيجة للسياسة الدينية والتعليمية لنور الدين ، بحيث لم يبق لهم إلا قلعة مصياف الذى استقر بها سنان بن سليمان بن راشد ، وامتنع فيها عن نور الدين ، وإن ظل للنزارية بالشام بعض النفوذ السياسى ، فى كبرى معاقلهم الشامية ، وهى مدينة حلب ، فى حين أدت الانقلابات العسكرية والانشقاقات المذهبية المتكررة التى واجهت الدعوة الإسماعيلية والخلافة الفاطمية بمصر ، إلى ذبذبة العقيدة الإسماعيلية ، وهى تستند فى المقام الأول ، على منصب الخلافة والطاعة «الولاية» للسلطة الروحية للإمام ، بحيث شك كثير من المصريين الذين استجابوا للدعوة الفاطمية واعتنقوها فى صحة النظريات السياسية الإسماعيلية ، ومن ثم فى صحة العقيدة الفاطمية ذاتها ، بحيث ضعف التشيع فى قلوب المصريين ، وكبار رجال الدولة الفاطمية[1] ، مما سهل لشيركوه وصلاح الدين القضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، أما الدعوة الطيبية فى اليمن فيبدوا أنها كانت مازالت تحتفظ بعض التماسك السياسى والمذهبى ، بحيث لجأ توارنشاه الأكبر ، أخو صلاح الدين ، إلى اللجوء إلى العنف الدموى ، للقضاء على الكيانات السياسية الإسماعيلية باليمن[2] . كما شتتوا أيضًا المذاهب الشيعية الأخرى ، مثل الزيدية بمكة[3] .

ويؤكد واقع الأحداث ، أن كلاً من شيركوه وصلاح الدين قد خالفا أهم العهود والمواثيق ، التى أخذها عليهما الخليفة الفاطمى ، فى تقليده لهما بالوزراة ، فلقد أكد على كليهما ، ضرورة الإبقاء على إقطاعات أمراء الجيش الفاطمي وتوليتهم ولايات الأقاليم والإدارات المحلية بمصر ، كما جرت عادة الخلفاء الفاطميين معهم فى ذلك[4] . فكان أول عمل أقدم عليه شيركوه بعد استقراراه

(١) أنظر مناقشة عن مدى ضعف العقيدة الإسماعيلية فى نفوس الشعب المصرى ، وفى نفوس كبار رجال الدولة الفاطمية فى نهاية العصر الفاطمى بمصر ، أنظر محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى ، ص – ١٠ .

(٢) أنظر قبله . وأنظر ابن شداد : النوادر ، ص ٤٦ .

(٣) ذكر الصفدى فى ترجمة الملك المسعود اقسيس بن الملك الكامل ، ت ٦٢٦هـ ، الذى ناب عن أبيه فى حكم اليمن ومكة تسع عشر سنة أنه " قمع الخوارج باليمن ، وطرد الزيدية عن مكة . (الصفدى: الوافى ، ج ٩ ، ص ٣١٦) .

(٤) راجع ما تقدم فى فصلنا هذا .

فى الوزارة ، هو إقطاع البلاد المصرية بمناشير لأمرائه الشوام[1] ، وقد ظل إقطاع البلاد ، والإدارات المحلية بالأقاليم بمناشير إقطاعية على كبار أمراء الدولة ، من أهم مظاهر السلطنة طوال العصر الأيوبى، خاصة عند حدوث تقلبات سياسية بعد خلع أحد السلاطين ، وتولية غيره عقب انقلاب عسكرى ، إذا كان هؤلاء المقطعين بمثابة الحكام الإداريين المحليين - أى المحافظين بالمصطلح الإدارى الحديث - فى هذه الولايات ، خاصة المدن ذات الأهمية العسكرية الخاصة ، مثل الثغور ، التى تستلزم وجود حامية عسكرية محلية بها[2] ، وهذا ما قام به صلاح الدين أيضًا بعد أن صفى له الأمر فى الوزارة بانسحاب الحزب المنافس له المتمثل فى الأمراء التركمان الموالين لنور الدين ، وعودتهم إلى بلاد الشام ، فشرع صلاح الدين فى نقض إقطاع المصريين ، فقطع منهم الدابر ، من أجل من معه من العساكر[3] ، ثم اقطع البلاد بمناشير إقطاعية لأفراد أسرته ، وبذلك تمت سيطرته التامة على الديار المصرية[4] ، كذلك أكد تقليد العاضد على كل من شيركوه وصلاح الدين رعاية شئون الجيوش الفاطمية ، التى أصبحت تحت قيادتهما المباشرة ، والسهر على توفير النفقات لهم ، وإعدادهم لفريضة الجهاد[5] . ورعاية خواص الدولة الفاطمية[6] ، ففعل صلاح الدين نقيض ما أمر به ، إذ أباد الجيش الفاطمى عن بكرة أبيه ، كما قضى على حاشية القصر[7] .

وفى رأى المؤرخ الشيعى ابن أبى طىء ، أن القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر ، لم يبدأ إلا فى عهد وزارة صلاح الدين ، إذ وصف فترة وزارة شيركوه بقوله : « إن أسد الدين لما ولى الوزارة ، لم يغير على أحد شيًا ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم إلى أن انقضت أيامه »[8] ، وقد أوضح ابن شداد أن صلاح الدين ، قد عمد على نشر المذهب السنى بمصر ، منذ أن كان وزيرًا للفاطميين ، فكان « وزير متابع للقوم ، ولكنه مقو لمذهب السنة ، غارس فى أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين[9] . وأغلب الظن أن التكوين العلمى لصلاح الدين ، ونقاء عقيدته

(١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٦٥ .
(٢) أنظر بعده . ويشبه هذا الإجراء الذى استنه شيركوه ، وظل طوال العصر الأيوبى بمصر ، ما جرى عليه العُرف فى العصر الفاطمى عند تولى الخليفة العرش ، فكان يصدر سجلات بتجديد ولاية الولاه فى الأقاليم (الشيال : مجموع الوثائق الفاطمية ، ص ٢٥) .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ ، س ١٢ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ .
(٥) أنظر قبله .
(٦) أنظر قبله .
(٧) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ - ٤٥٢ ، المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢-٥ .
(٨) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٨ ، س ١- ٢ .
(٩) ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ - ٤١ .

السنية[1] ، وشغفه بعلوم الحديث والسنة[2] ، وتعظيمه للعلماء والفقهاء من حملة الشريعة وحماتها ، إلى جانب كراهيته للفلاسفة والمتكلمين ، سواء من المعطلة (الذين ينفون الصفات الإلاهية) أو المشبهة (الذين يثبتونها) أو الدهرية (القائلين بقدم العالم) ، وهذا ما دفعه إلى الأمر بقتل الفيلسوف الصوفى الشهير السهروردى[3] . وإن كنا نظن أن السهروردى ، وهو من متكلمى الصوفية ، كان يبطن التشيع ويدعو إليه ، شأن المتصوف الشهير الحلاج[4] ، فأغلب الظن أن مقتل السهروردى كان وراءه سببًا سياسيًا لم يفصح عنه مؤرخى صلاح الدين ، خاصة وقد ظلت مكانة

(١) يقول ابن شداد : في سيرة صلاح الدين ، تحت عنوان ، ذكر ما شهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية " .. كان – رحمة الله عليه – حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث عن مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسنًا وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ، موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء . وقد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب وكان يعلمها الصغار من أولاده لترسخ أذهانهم (ابن شداد : النوادر ، ص ٧) .

(٢) قال ابن شداد : " وكان – رحمة الله – شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه ، وسمع عليه ، تردد إلى الحافظ الأصفهانى بالإسكندرية .. ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وكان رحمة الله تعالى – يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرنى فى خلوته ، ويحضر شيئًا من كتب الحديث ، ويقرؤها هو ، فإذا مر بحديث فيه عبرة دق قلبه ، ودمعت عينه ، (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩ – ١٠) .

(٣) يقول ابن شداد : " وكان – رحمة الله عليه – كثير التعظيم لشعائر الدين ، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيىء بالنار ، مصدقًا بجميع ما وردت به الشرائع ، مبغضًا للفلاسفة والمعطلة والدهرية ومن يعاند الشريعة ، ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر ، أعز الله أنصاره ، بقتل شاب نشأ يقال له السهروردى ، قيل عنه أنه كان معاندًا للشرائع مبطلاً ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به ، فأمر بقتله ، وصلبه أيامًا ، فقتله " (ابن شداد : النوادر ، ص ١٠ ، س ٣–٧).

(٤) وصف ابن النديم المتصوف الشهير الحسين بن منصور الحلاج بأنه كان " جسورًا على السلاطين ، مرتكبًا للعظائم ، يروم انقلاب الدول ، .. ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب الصوفية للعامة ، (ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٦٩ – ٢٧٠) .

الصوفية مرموقة ومحلاً للتبجيل والاحترام من سلاطين بنى أيوب[1] ، ومن بعدهم فى عهد تلامذتهم سلاطين المماليك[2] .

ولا جدال فى أنه ليس من السهل اليسير ، أن يقتلع مذهب من المذاهب ، بمجرد تغيير النظام السياسى فى بلد من البلاد ، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة ، وإلى تدابير ليست هى من تدابير القوة والبطش فحسب[3] ، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين ، قد استخدم وسائل وأساليب عديدة ، فى سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر ، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف ، والحسم الفورى المباشر ، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج ، واستخدم بعضها العنف العسكرى الدموى ، فى حين نَهَجَ البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع ، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها .

لقد بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمى العاضد ، للقضاء على فكرة « الولاية »، التى تبنى عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ، ويستمد منها الخلفاء الفاطميون قداستهم ، فأرغم الخليفة العاضد ، على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب ، عند وصوله إلى مصر ، رغم ما جرى عليه العرف ، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية ، من استعلاء الخليفة الفاطمى ، واحتجابه عن الناس ، لعدم ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ، ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم ، بل يذكر أبو شامة ، أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح ، ولم يجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهده الناس[4] ، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد

(١) يقول الشيزرى فى كتابه المنهج المسلوك فى سياسة الملوك الذى ألفه لصلاح الدين فى الباب العشرون ، الذى عنونه فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك : " أعلم أن استيلاء الدنيا على الملوك وإقبالها عليهم ، ربما شغلتهم عن أمر الآخرة وأغفلتهم عن مهمات الدين ، فيجنحون إلى اللذات ، ويهملون أمر الديانات ، لأن النفوس مطبوعة على الميل إلى الترف وايثار التنعم وكراهة التكليف فلا ينبغى أن تخلو مجالسهم من علماء الدين ، وصلحاء المسلمين ، لينبئوهم عند طرق الغفلة ، ويذكروهم عند حرارة الشهوة ، ويُوضحوا لهم نهج الآخرة ومعالم الشريعة ، وقد كان شعار الملوك العارفين والخلفاء الراشدين أن يدعوا إلى مجالسهم الحكماء ، ويتخلوا لاستماع مواعظ العلماء (الشيزرى : المنهج المسلوك ص ١١٧ - ١١٨) .

(٢) بلغ احترام سلاطين المماليك لشيوخ الصوفية حدًا كبيرًا جعل هؤلاء الصوفية يتطاولون أحيانًا على السلاطين، وهذا ما استنكفه الفقيه ابن جماعة ، فأوضح أن احترام السلاطين وتعظيمهم من واجبات الرعية على السلاطين ثم قال : وما يفعله بعض المنتسبين إلى الزهد من قلة الأدب معهم بخلاف السنة (أنظر ابن جماعة : تحرير الأحكام ، خ ، ورقة ١٤ - ١٥) .

(٣) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ١٠ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ ، س ٥ - ٦ .

ورسوم الدولة ، فمنح والد صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف ، إذ خلع عليه ، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا[1] ،ثم ما فتيء صلاح الدين ، يعمل على الاستهانة بالخليفة ، وابتذال مكانته الزوحية بين أتباعه وأنصار دولته ، فأخذ يستولى على موجوداته وممتلكاته الشخصية وخيوله ، بحجة شدة الحاجة إليها فى أمور الجهاد ، حتى أن الخليفة فى آخر الأمر ، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذى لا يملك غيره ، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة[2] . ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة ، للاستهانة به أمام رعيته ، كان يهدف أيضًا إلى إجبار الخليفة على الاعتزال ، وتجنب الظهور فى المناسبات العامة ، حتى ينساه المصريون .

والغريب أن صلاح الدين قد أخذ فى إمضاء وتنفيذ أهم وسيلة تدريجية تعليمية للقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، وهى المدارس المذهبية السنية ، التى كانت هى السبب الأول فى تحول الشيعة فى مصر إلى رأى الجماعة والسنة[3] . وهو من الناحية الرسمية لايزال وزير تفويض فاطمى[4]. من المفروض أن يعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية ورعاية شئونها ، لكونه « داعى الدعاه ، وقاضى القضاه » ، المفوض من قبل الخليفة الفاطمى[5] .

ويفيدنا الأديب المغربى ، ركن الدين الوهرانى ، وقد عاصر قيام الدولة الأيوبية بمصر ، إن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، هو الذى حضه على سرعة إنشاء هذه « المدارس » السنية بمصر ، فور قدومه عليه من بلاد الشام ، وأنه قد باشر بنفسه الإشراف على إنشاء هذه المدارس ، بالإضافة إلى تنظيمه « لمجالس » أغلب الظن أنها مجالس للوعظ الصوفى ، ـ وهى إحدى وسائل نشر المذهب الأشعرى ـ كما قام نجم الدين أيوب بإنشاء « الزوايا » فى مشاهد كبار ائمة السنة وآل البيت المدفونين بمصر ، وأيضًا أشرف بنفسه على بناء عدد من المساجد[6] .

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ ، س ٦ – ٧ .
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص .
(٣) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٢٨ .
(٤) أنظر ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ – ٤١ ، وانظر قبله .
(٥) أنظر قبله .
(٦) نورد نص الوهرانى لأهميته الشديدة ، لكونه معاصر لقيام الدولة الأيوبية ، ولأنه لم يستفد منه من قبل ، فيقول الوهرانى : " ولما وصل الملك الأفضل نجم الدين أيوب أبو السلطان ، انمع به حزب الشيطان ، وورد الناس إلى الأوطان ، ففتح الله به أبواب الجنة ورفع ببركته منار السنة ، فأحدث المدارس ، و " المجالس " وشيد المساجد والمشاهد وتفجرت يمينه بالنفقات حتى عم أهل الأرض بالصدقات وجعل قبر الإمام محمد بن إدريس " زاوية " للفقه والتدريس فقويت به عرى الإسلام ، واشتد به دين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام (الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ١٣ – ١٤) .

وأغلب الظن أن قدوم والد صلاح الدين من الشام ، كـان بتكليـف مـن نـور الديـن ، ليشـرف بنفسه وهو الشيخ المحنك ، على إبطال الشعائر الشيعية من مصـر ، وإظهـار شعار أهـل السـنة بهـا ، إذ تجمع المصادر أن صلاح الدين كان مترددًا فى قطـع الخطبـة للفـاطميين ، وأنـه لـم يقـدم علـى هـذا العمل رغم إلحاح نور الدين المتكرر ، إلا بعد قدوم والده ، الذى أشرف بنفسه على هذا العمل ، بعـد أن حرص صلاح الديـن ، أن يبـدو وكأنـه لـم يـأمر هـو بهـذا ، خشـية انتقـاض المصريـين وثورتهـم ، وليتملص من هذا العمل الخطير إذا لزم الأمر[1] . ولقد أفادتـا ركـن الديـن الوهرانـى أيضًـا ، أن نجـم الدين أيوب ، قد مهد لقطع الخطبة لخلفـاء بنـى العبـاس ، بعـدة إجـراءات تمهيديـة ، أهمهـا التصريـح بأسـماء الصحابـة العشـرة المبشـرين بالجنـة والدعـاء لهـم علـى المنـابر ، وهـو أمـر مخـالف للشـعائر الإسماعيلية ، وذلك لكى تبدأ أذهان المصريين فى تقبل اختفاء الشعائر الإسماعيلية رويدًا رويدًا ، ثـم صلى نجم الدين الجمعة أربعة ركعات لعدم اكتمال العدد الـلازم لإقامتهـا جماعـة ركعتـين ، ثـم صـرح أخيرًا بقطع الخطبة للفاطميين والخطبة لبنـى العبـاس ، بحيـث نظـر العـالم الإسـلامى ، لهـذا الانتصـار السنى الحاسم ، على أنه قد تم على يد « بنى شـادى » وليـس علـى يـد صـلاح الديـن فقـط ، لكـون والده ، هو الذى باشر هذا الأمر بنفسه[2] .

(١) عن قطع الخطبة للعاضد فى افتتاح سنة ٥٦٧ ، أنظر أبو شامة : الروضتين ، ح ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٢ – ٤٩٣ ، ٤٩٦ – ٤٩٩ ، ٥٠١ وأنظر قبله وبعده .

(٢) وكما أسند الوهرانى لنجم الدين أيوب ، فضل إنشاء المنشآت السنية بمصر ، لرفـع منـار السـنة ، أسـند إليـه أيضًا فضل قطع الخطبة الفاطمية فى مصر ، فيقول الوهرانـى فـى نـص هـام آخـر : " وصلـى الملـك الزاهـد ، والبطل المجاهد ، نجم الدين وسيف المجاهدين ، أول جمعة صلاها أربعًا ، ولم يجد فيها للسنة مجمعًا ، فصعب عليه تبطيل هذا الفصل وإسقاط ذلك الأصل ، فأقبل يمهد القواعد ويهبها ، ويخمد البدع ويخفيها ، حتى كمل الإسلام ، وتم دين النبى عليه السلام ، وأتى البيت من بابه ، ورد الأمر إلى أربابه أجرًا ساقه الله إليه ، وفتحًـا مبينًا قضى به على يديه . فأمر بذكر العشـرة الكـرام البررة ، وصـرح بأسـمائهم علـى المنـابر .. ، ثـم خـرج من الشك والإلتباس ، ودعا للأئمة من بنى العباس ، لعلمه أنه لا يتم الإيمان إلا بولايتهـم ، ولا تحسـن المنـابر إلا بسواد رايتهم ، ولكونه قد غذى بلبانهم ، ونشأ فى إحسانهم ، فحصل بنو شادى علـى الرتبـة الفـاخرة .. وفازوا بنعيم الدنيا وثواب الآخرة ، فسار ذكرهم فى الأقطار . (الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ٦ ، س ١ – س ٩) . ولقد أيد المؤرخ الشيعى بن أبى طىء ، ما ذهب إليـه الوهرانـى مـن أن نجـم الديـن أيـوب هـو الذى قطع الخطبة بأمر نور الدين ، قال أبو شامة : قال ابن أبى طئ الحلبى : قد قدمنا ذكر مكاتبة نـور الديـن وإلحاحه على صلاح الدين فى إقامة الخطبة بمصر للعباسيين ، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الديـن أيـوب لأجـل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد الى نور الدين فى ذلـك . راجـع هـذا النـص الهـام ، وروايـة طويلـة لابـن أبـى طىء ، توضح تدرج نجم الدين أيوب فى قطع الخطبة وأن هذا الأمر دام على مـدى جمعتـين كـاملتين وأنـه بـدأ بإبطال الأذان بـ " حى على خير العمل " ، أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ – ٤٩٩ .

وإلى جانب هذه الوسائل التدريجية التى استخدمها الأيوبيون للقضاء على المذهب الإسماعيلى بمصر ، استخدم الأيوبيون فى نفس الوقت . وسائلاً سياسية اتسمت بالحسم والفورية ، وتميز بعضها بالشدة والعنف ، وذلك للقضاء على بقايا الوجود السياسى للفاطميين وأنصارهم بمصر والشام .

وكان أول إجراء حاسم ، أمضاه صلاح الدين ، فى سنة ٥٦٦هـ - ١١٧٠م ، إذ يخبرنا المؤرخ الشيعى ابن أبى طىء ، أنه « أمر فى هذه السنة بتغير شعار الإسماعيلية ، وقطع من الأذان حى على خير العمل ، وشرع فى تمهيد أسباب الخطبة لبنى العباس» [١] ، وفى افتتاح سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م، تم قطع الخطبة للخليفة العاضد ، وخطب لخلفاء بنى العباس ، بعد أن تزيىّ الخطيب بلباس السواد شعار العباسيين[٢] ، ثم جعل صلاح الدين من شعار السواد زيًّا رسميًا للخطباء والقضاه بمصر[٣] ، والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو إسبوعين[٤] . وذلك لأنها ظلت على المذهب السنى طوال العصر الفاطمى[٥] ، ويصور لنا المؤرخ الشيعى ابن أبى طئ الحلبى ، رد فعل قطع الخطبة الفاطمية من مصر ، تصويرًا مبالغ فيه يوحى بوقوع اضطهاد عنيف لأتباع الدعوة الإسماعيلية ، ويوهم بأن أكثر أهل مصر كانوا من أنصار الدعوة الإسماعيلية ، بحيث هاجر عدد كبير منهم من مصر[٦] .

(١) نفس المرجع ، ص ٤٨٨ ويقول ابن أيبك الدوادارى فى حوادث ٥٦٧هـ ، وفيها بطل الأذان بحى على خير العمل وعاد لما عليه أولاً ، واستمر للآن (الدرر ، ص ٤٩) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٩ . يقول ابن أيبك الدوادارى أن صلاح الدين خلع العاضد من الخلافة بفتاوى الأئمة والفقهاء ، الدرر المطلوب ، ص ٤٧ ، وذكر أن أكثر الفقهاء مبالغة فى الفتيا وتصميمًا على زوال أمر العاضد كان فقيه صوفى اسمه الخبوشانى وهو كما سبق القول اعتمادًا على نقوش الإمام الشافعى ، فقيه أشعرى سنى كان أول من تولى التدريس بمدرسة قبة الشافعى وهى أول مدرسة سنية أنشأها الأيوبيون فى مصر .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦ ، ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٤ - ٢٥ ، أنظر قبله .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٥٠٤ ، حيث يقول أبو شامة : قال العماد فى ديوانه ونقلته من خطه ، قال : ووصل الخبر بأن الخطبة قامت فى الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان وفى مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشرى شهر رمضان لمولانا الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين وإقامته شعار بنى العباس بها .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ ، س ١ ، وأنظر قبله .

(٦) قال ابن أبى طىء : " ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الإسماعيلية ، وتتبعوهم واذكوهم ، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد من الأتراك - المقصود أمراء صلاح الدين - ، مصريًا (أى إسماعيليًا فاطميًا) أخذ ثيابه ، وعظمت الأذية بذلك وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد وفرح الناس بذلك وكتبت الكتب به إلى الأقطار وتحدث به السمار ، (أبو شامة : الروضتين ، ١ / ٢ ، ص ٥٠١).

وفى نفس هذه السنة عمد صلاح الدين إلى تغيير رسوم الدولة الفاطمية[1] ، ذلك لأن الفاطميين كانوا قد طبعوا بلاطهم الملكى وقصورهم بطابعهم المذهبى الخاص[2] ، وكانوا يتخذون من حفلاتهم الرسمية مناسبة لتأكيد عقيدتهم بحيث صبغوا حفلاتهم بطابع شيعي مذهبى ، كان دليلاً على طابع دولتهم المميز[3] .

ثم وضع صلاح الدين من مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد[4]، وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية من مصر ، إذ ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها « بالدولة القصرية »[5] ، نسبة لسكنى خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم القاهرة ، ففى سنة ٥٦٦هـ - ١١٧٠ م ، قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلمها لمملوكه قراقوش الخادم[6] ، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج ؛ ولقد علق ابن أبى طئ على هذا بقوله « وانقضت تلك الدولة برمتها ، وذهبت تلك الأيام بجملتها ، بعد أن كانوا قد احتلوا على البلاد ، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورًا »[7] ، وينقل المقريزى عن مياومات القاضى الفاضل أنه فى ربيع الآخر سنة ٥٦٧هـ - ١١٧١م ، كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش ، وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن بها أمراء صلاح الدين ، ويعلق القاضى الفاضل عن هذا بقوله « ومُلِئت المناظر المصونة عن الناظر والمنتزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر ، فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ، ووارث الأرض وموروثها »[8] .

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ص ٢٧٣ ، س ١٦ - ١٧ حيث يقول : " لما استبد الناصر صلاح الدين .. بملك مصر بعد وفاة العاضد غير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة ، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد".

(٢) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، س ١٧ - ١٨ .

(٥) القفطى : أنباه الرواه على أنباه النحاه تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، ص ٩٥ س ٧ ، وهو يسميها فى موضع آخر " الدولة العلوية القصرية ، نفس المصدر ج ٢ ، ص ٧٣ ، س ٨ ، وهو يسمى الفاطميين فى موضع ثالث " المصريين " أنظر نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢١ والمعروف أن القفطى عاصر سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية وعمل وزيرًا للأيوبيين بالشام ، أنظر بعده .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ .

(٧) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ .

(٨) المقريزى : الخطط ، ج ٢ : ٣٩٤ - ٣٩٦ .

ولقد رثى القصور الفاطمية ، رثاءًا مبدعًا ، الشاعر عمارة اليمنى ، الذى ظل رغم كونه شافعى سنى ، على وده للفاطميين ، إخلاصًا لذكرى خلفائهم ، الذين أحسنوا إليه أبان إزدهار دولتهم ، فوقف يصف أطلال قصورهم ويبكى من بناها قائلاً ضمن قصيدة الشهيرة التى مطلعها : « رميتَ يا دهر كَفَّ المجدِ بالشلل » ، .. يقول :

بالله زر ساحة القصرين وابكى معى	عليهما لا على صفين والجمل
وقل لاهلهما : والله ما التحمت	فيكم قروحى ، ولا جرحى بمندمل
مررت بالقصر والأركان خالية	من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد	من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسف دمعى غداة خلت	أرجائكم وغدة مهجورة السبل[١]

ولقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطة بمصر عن أخيه صلاح الدين[٢] .

وعمد صلاح الدين إلى الآلات الملوكية الفاطمية ، وكنوز القصر الفاطمى ، فعمل على إفسادها[٣] ، وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكى[٤] ، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسى[٥] ، ثم طرح باقيها للبيع ، بحيث دام البيع فيها مدة عشر سنين ، وتنقلت إلى البلاد بأيدى المسافرين الواردين والصادرين[٦] .

وتحول إلى كتب الدعوة الإسماعيلية ، التى احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمى ، فأحرقها ، وألقاها على جبل المقطم ، بحيث صارت تعرف بكميان الكتب ، ثم فرق الكتب غير المذهبية التى صودرت من مكتبة القصر ، على كبار علماء وأنصار دولته ، مثل العماد الأصفهانى والقاضى

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٠ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦ ، نقلاً عن ابن أبى طىء .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٤ – ٥٢٥ ، ٥٢٥ – ٥٢٦ ، ٥٥٦ – ٥٥٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٥ .

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٨ – ٥٠٩ ، المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ ، نقلاً عن مياومات القاضى الفاضل .

الفاضل ، وأبى شامة الأصفهانى[1] ، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين ، كان إحراق كتب الدعوة فقط ، لترويجها للقضية السياسية التى ينادى بها خلفاء الفاطميين .

وفى رأينا أن إحراق مكتبة القصر الفاطمى ، لم يكن خطأ كبيرًا وجريمة ثقافية ، من جانب صلاح الدين كما ذهب البعض[2] ، بل هو عمل مقصود ، استهدف القضاء على كتب الدعوة الإسماعيلية فقط ، والحقيقة أن إحراق كتب الدعوة الإسماعيلية بمصر يذكرنا بإقدام الخليفة العباسى القادر بالله ، والسلطان السنى محمود بن سبكتكين الغزنوى ، على إحراق كتب الرافضة (الشيعة) والمعتزلة والمتكلمين ، فى بلاد الرى والعراق وخراسان فى سنتى ٤٠٨هـ - ١٠١٧م و ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م ، واستتابتهم عن المناظرة فى مذاهبهم[3] ، ولا ريب أن كتب الدعوة الإسماعيلية ، كانت من أهم وسائل التأثير التى يتخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم ، بحيث أقدم المؤيد فى الدين الشيرازى ، داعى دعاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، على تهريب كتب الدعوة الإسماعيلية من مصر ، حين شهد الضعف السياسى الذى تردّى فيه خلفاء الفاطميين ، ثم أرسلها على يد القاضى اليمنى لملك بن مالك، ليحفظها أنصار الدعوة الإسماعيلية باليمن والهند[4]. فكان كأنه يقرأ لوح العيوب ، إذ أحرق صلاح الدين كتب الدعوة بمكتبة القصر الفاطمى ، وقامت السلطات الأيوبية بالشام بإحراق كتب الإسماعيلية والمعتزلة والقدرية والمتكلمين ، والقبض على كل من يضبط

(١) راجع أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٨٦ - ٦٨٧ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٧ حيث يذكر عن القاضى الفاضل ، أنه وقف مكتبته وكانت مائة ألف مجلد على مدرسته المعروفة بالمدرسة الأفضلية ، وأنها ظلت بها إلى سنة ٦٩٤هـ حيث حدث الغلاء ، فكان طلبة المدرسة يبيعون كل جزء منها برغيف . ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعَاريّة فتفرقت ولكن يبدو أن عددًا ضخمًا آخر من كتب مكتبة القصر الفاطمى التى آلت إلى القاضى الفاضل ، قد انتقلت بعد وفاته إلى المكتبة السلطانية الأيوبية بالقلعة ، فيقول المقريزى : فى حوادث سنة ٦٢٦هـ " وفيها وقعت الحوطة على دار القاضى الأشرف أحمد ابن القاضى الفاضل وحملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلد وحمل من داره خشب خزائن الكتب مفصلة وحملها تسعة وأربعون جملاً وكانت الجمال التى حملت الكتب تسعة وخمسون جملاً . ثلاث دفعات (السلوك : ج ١ ص ٢٣٢) وبعد عدة شهور حملت الكتب والخزائن من القلعة إلى دار الفاضل وقيل أن عدتها أحد عشر ألف كتاب وثمانمائة وثمانية كتب منها كتاب الأيك والغصون لأبى العلاء المعرى ، فى ستين مجلدًا (السلوك ، ١ : ٢٣٣) .

(٢) أنظر الشيال : مصر الإسلامية ، ص ٤٩ .

(٣) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٨٧ ، ج ٨ ، ص ٣٨ - ٤٠ .

(٤) المؤيد فى الدين الشيرازى : ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاه ، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٩ ، ص ١٨٥ ، وأنظر أيضًا ص ٤٩ ، و ص ١١ وهى فى مقدمة المحقق .

فى منزله شىء منها[1] ، بحيث لم يتبق مـن كتب الدعوة الإسماعيلية التى وصلنا إلا الكتب التى احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند[2] . بعد سقوط دولتهم بمصر ، وإن وصلنا بعض الكتب الأدبية الخزائنية برسم ماكتبه القصر الفاطمى[3] .

ولم يغب عن فكر صلاح الدين ، أثر الأعياد المذهبية للشيعة[4] ، فى الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم فى نفوس المصريين ، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين مما أدى إلى إنقراضها من مصر منذ ذلك الوقت ؛ وبخبث سياسى شديد ، عمل الأيوبيون على مسخ أشهر الأعياد الشيعية ، المقترنة بأولى مآسى الشيعة الطالبين ومقاتلهم فى سبيل خروجهم بطلب الخلافة ، وأعنى عيد عاشوراء ، الذى كان يعبر فيه الشيعة عن حزنهم الشديد بمقتل الحسين فى كربلاء ، وكان يحتفل به فى العاشر من محرم من كل سنة ، بحيث أصبح يوم عاشوراء ، عيدًا بهيجًا طوال العصرين الأيوبى[5]

(١) ضياء الدين بن الأثير : رسائله ، نشر المقدسى ، ص ١٤٠ ، س ١٧ - ٢١ ، وهى ضمن سجل تقليد لمحتسب أيوبى بالشام ، وأنظر قبله .
(٢) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٤٥ - ٦٥ ، ولقد صورت ، بعثة دار الكتب المصرية إلى اليمن سنة ١٩٥١م و ١٩٦١م عددًا من كتب الدعوة الإسماعيلية وكتب المعتزلة التى احتفظ بها الشيعة الزيدية باليمن ، للتقارب الفكرى والعقائدى بينهم وبين كل من المعتزلة والإسماعيلية ومما اعتز به أن والدى المرحوم الأستاذ فؤاد سيد رئيس قسم المخطوطات الأسبق بدار الكتب المصرية ، كان عضوًا بهاتين البعثتين .
(٣) أنظر كتاب النوادر والتعليقات ، لأبى على الهجرى ، الذى حقق أخيرًا فى العراق سنة ١٩٨٠م إذ إعتمد فى تحقيقه على نسخة قديمة خزائنية برسم خزانة الخلفاء الفاطميين .
(٤) عن هذه الأعياد المذهبية للفاطميين أنظر ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ج ١ ، ص ١٢٥ - ١٣١ وأهمها عيد الغدير ، فى ١٨ ذى الحجة ، وهو ذكرى وصاية النبى لعلى فى موضع يسمى غدير خم ، وعيد عاشوراء ، وهو ذكرى مقتل الحسين بكربلاء فى ١٠ محرم .
(٥) عن الرسوم الحزينة ليوم عاشوراء فى عهد الفاطميين ، أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ٢٨٩ - ٢٩١ ، وعن الرسوم البهيجة ليوم عاشوراء فى عهد الأيوبيين والمماليك ، أنظر أيضًا المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٣٨٥ حيث يقول تحت عنوان (يوم عاشوراء) " كانوا يتخذونه يوم حزن ، تتعطل فيه الأسواق ، ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن .. وكان يصل إلى الناس منه شىء كثير ، فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بنى أيوب يوم عاشوراء يوم سرور ، يوسعون فيه على عيالهم ، ويتبسطون فى المطاعم ، ويصنعون الحلاوات ، ويتخذون الأوانى الجديدة ، ويكتحلون ويدخلون الحمام جريًا على عادة أهل الشام التى سنها لهم الحجاج فى أيام عبد الملك بن مروان ، ليرغموا بذلك آناف شيعة على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء ، وحزن فيه على الحسين ابن على ، لأنه قتل فيه ، وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء ، يوم سرور وتبسط ، وكلا الفعلين غير جيد ، والصواب ترك ذلك ، والاقتداء بفعل السلف فقط . (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٨٥) .

والمماليكى[1] ، وعلى هذا النحو وصل إلينا موسم عاشوراء ، واقترن بصنع أطباق الحلوى من حبوب القمح ، رغم أن هذا الاحتفال البهيج بعاشوراء ، كان فى الأصل وسيلة يلجأ إليها أعداء الشيعة فى مصر الأيوبية ، لإغاظة بقايا المتشيعين للفاطميين بمصر[2] ، والطريف أن عيد عاشوراء ، ظل يحتفل به احتفالاً حزينًا بالعراق العباسى حتى بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر[3] .

(١) أوضح المفسر والمؤرخ والفقيه الحافظ ابن كثير ، أن أصل الرسوم الحزينة التى اتخذها الفاطميون لعيد عاشوراء يرجع أول ظهورها إلى ملوك بنى بويه الشيعة بالعراق ، أما الرسوم البهيجة التى اتخذها الأيوبيون ليوم عاشوراء ، فيرجع أول ظهورها إلى الأمويين والنواصب (أعداء الشيعة) فى العصر الأموى : فيقول ابن كثير : " وقد أسرف الرافضة في دولة بنى بويه في حدود الأربعمائة وما حولها ، فكانت الدبادب تضرب ببغداد ونحوها من البلاد في يوم عاشوراء . ويذر الرماد والتبن فى الطرقات والأسواق ، وتعلق المسوح على الدكاكين ، ويظهر الناس الحزن والبكاء ، وكثير منهم لا يشرب الماء ليلتين، موافقة للحسين لأنه قتل عطشانًا. ثم تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ، ينحن ويلطمن وجوههن وصدورهن ، حافيات فى الأسواق إلى غير ذلك من البدع الشنيعة .. وإنما يريدون بهذا وأشباهه ، أن يشنعوا على دولة بنى أمية ، لأنه قتل فى دولتهم . وقد عاكس الرافضة والشيعة يوم عاشوراء ، النواصب من أهل الشام ، فكانوا إلى يوم عاشوراء ، يطبخون الحبوب ويغتسلون ويتطيبون ، ويلبسون أفخر ثيابهم ، ويتخذون ذلك اليوم عيدًا ، يصنعون فيه أنواع الأطعمة ، ويظهرون السرور والفرح ، يرون بذلك عناد الدوافض ومعاكستهم . راجع ابن كثير : استشهاد الحسين ، طبع بمطبعة المدنى ، بتحقيق محمد جميل غازى ، القاهرة ١٣٩٧هـ ، ص ١٣٠ - ١٣٣ ، وعن رسوم بنى بويه والفاطميين فى عاشوراء وتفنيد الفقيه السنى ابن تيمية لها : أنظر ابن تيمية : رأس الحسين ، طبع فى ذيل كتاب استشهاد الحسين لابن كثير ، وانظر على الخصوص ، ص ١٦٨ - ١٦٩ . كذلك تتبع ابن تيمية ، أصل التناقض فى الاحتفال بيوم عاشوراء عند الشيعة والمعادين لهم فى رسالة ألفها بعنوان : " سؤال فى يزيد بن معاوية ، نشرت بتحقيق صلاح الدين المنجد ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ، ص ١٧ - ١٩ ، حيث يقول ابن تيمية : " .. كان بالعراق طائفتان : طائفة من النواصب تبغض عليا وتشتمه ، وكان منهم الحجاج بن يوسف ، وطائفة من الشيعة ، تظهر موالاة أهل البيت، منهم المختار ابن عبيد الثقفى .. ، فصار النواصب والروافض يحتفلون بيوم عاشوراء ، هؤلاء يتخذونه يوم مأتم وندب ونياحة ، وهؤلاء تتخذونه يوم عيد وفرح وسرورًا ، وكل ذلك بدعة وضلالة .. وليس فى دين الإسلام أن يجعلوا يوم قتل أحد مأتمًا وكذلك اتخاذه عيدًا بدعة .. والجدير بالالتفات أن يوم عاشوراء كان عيدًا دينيًا أيضًا عند العرب فى الجاهلية ، أنظر ابن حجر العسقلانى : فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، طبعة الحلبى ، ج ٥ ، ص ١٤٧ - ١٥٣ .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٣٥ .

(٣) حدث ذلك سنة ٥٧٢هـ ، نتيجة لتشيع أهل حى الكرخ الشيعة ، راجع تفاصيل هذا الاحتفال الشيعى فى العراق العباسى عند سبط ابن الجوزى : مرآة ج : ١ ٣٨ - ٣٨٧ .

واستكمالاً لهذه الخطوة ، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر ، بصبغة سنية ، بقيت إلى اليوم فى جميع احتفالاتنا الدينية ، واهتم الأيوبيون اهتمامًا خاصًا بذكرى المولد النبوى [1] . وذلك لتعويض المصريين ، ما تعودوا عليه وافتقدوه من الأعياد الشيعية المرتبطة بآل البيت النبوى ، وأهمها عيد عاشوراء . وأغلب الظن أن الاحتفال بالمولد النبوى ، على النحو الذى نقيمه اليوم من نصب السرادقات والقباب والخيام فى الساحات ، وملئها بأنواع الألعاب المختلفة ، وأنواع الحلوى ، يرجع أول ظهوره بمصر على هذه الهيئة إلى العصر الأيوبى وإن كان الفاطميين هم أول من أحدثوه بمصر ، ويبدوا أن الأيوبيين قد استعاروا رسوم الاحتفال بالمولد النبوى ، عن مظفر الدين كوكبرى ، صاحب أربل ، وهو حاكم إسلامى تركمانى ، توارثت أسرته حكم مدينة أربل ، وهى إحدى عواصم إقليم الجزيرة الفراتية ، إذ وجه هذا الحاكم - وكان معاصرًا لصلاح الدين ، وتابعًا له - اهتمامًا كبيرًا بالاحتفال بالمولد النبوى [2] ، ويبدو أن منذ العصر الأيوبى وخلال العصرين المماليكى والعثمانى ، اشتهر نظم الشعراء لأحداث المولد النبوى شعرًا فى قصيدة تعرف بـ «المولد» وتنشد عند الاحتفال بهذه الذكرى الدينية الكريمة [3] .

(١) راجع تعداد القلقشندى لأعياد المسلمين ، فى صبح الأعشى ، ج ٢ : ٤١٦ - ٤١٧ . أحمد تيمور باشا : التذكرة التيمورية ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

(٢) يقول ابن خلكان فى ترجمة مظفر الدين كوكبرى : " وأما احتفاله بمولد النبى " (صلى الله عليه وسلم) ، فإن الوصف يقتصر عن الإحاطة به ، لكن نذكر طرفًا منه : وهو أن أهل البلاد ، كانوا قد سعوا بحسن اعتماده فيه ، فكان فى كل سنة ، يصل إليه من البلاد القريبة من أربل ، مثل بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين وبلاد العجم وتلك النواحى - خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء ولايزالوا يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول ، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب ، كل قبة أربع وخمس طبقات ، ويعمل مقدار عشرين قبة وأكثر ، منها قبة له ، والباقى للأمراء وأعيان دولته لكل واحد قبة ، فإذا كان أول صفر ، ذينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المستجملة ، وقعد فى كل قبة جوق من المغانى ، وجوق من أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهى ، ولم يتركوا طبقة من تلك الطباق فى كل قبة ، حتى رتبوا فيها جوقًا ، وتبطل معايش الناس فى تلك المدة وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم ، (ابن خلكان : وفيات ج ٤ ، ص ١١٧ - ١١٨) ، وبعد أن يصف ابن خلكان بالتفصيل رسوم اشتراك مظفر الدين كوكبرى وأمراء دولته وصوفيه الخوانق بمدينة أربل فى الاحتفال بالمولد النبوى (أنظر ابن خلكان ، وفيات ج ٤ ص ١١٨ - ١١٩) وهى تفاصيل شيقة جدًا ، يقول ابن خلكان : وقد ذكرت فى ترجمة الحافظ أبى الخطاب ابن دحيه ، وصوله إلى أربل ، وعمله لكتاب : التنوير فى مولد السراج المنير ، لما رأى من اهتمام مظفر الدين به وأنه أعطاه ألف دينار ، كما وصف ابن خلكان مظفر الدين كوكبرى بأنه شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة ، وأنظر أيضًا ترجمة مظفر الدين كوكبرى ودخوله فى طاعة صلاح الدين الأيوبى ومنشآته الاجتماعية ورسوم احتفالاته بالمولد النبوى ، عند سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ : ٦٨٠ - ٦٨٣ .

(٣) عن المؤلفات والقصائد المؤلفة بعنوان " المولد النبوى " أنظر حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ، طبع استانبول ، ج ٢ ، ص ١٩١٠ - ١٩١١ .

ولاشك أن اقترن بمحو الرسوم الفاطمية من مصر ، أبطال التعامل بالعملات الفاطمية ، خاصة وأنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم فى الخلافة « لا إله إلا الله ، محمد رسوم الله، على ولى الله » وكما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين ، وصيغ عقائدية فاطمية ، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق فى المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين ، استمالة لهم لعقيدة الدولة[1] ، وإن لم يحل هذا من ظهور صدى هذه الصيغ على بعض العملات الأيوبية ذاتها[2] ، إذ لم ينسى عمال السكة المصريين هذه الصيغ التى عهدوها لمدة طويلة بسهولة .

ومع ذلك ، فقد بقيت بعض خصائص الاحتفالات الفاطمية بالمواسم الدينية بمصر ، عالقة فى أذهان المصريين ، محببة إلى نفوسهم ، بحيث لم يستطع الأيوبيون ، بكل ما بذلوه من جهد ، اقتلاعها من قلوبهم ، إذ بقيت الاحتفالات الرمضانية مثلاً إلى اليوم ، تحمل ولاشك أثرًا فاطميًا ، حتى أننا لا نجد للاحتفالات الرمضانية المصرية ، أثر فى البلاد العربية والإسلامية التى لم يستقر بها حكم الفاطميين .

ولما كان نسل البيت الفاطمى ، يمثل بالنسبة للسلطنة الأيوبية السنية بمصر ، الوريث الشرعى للخلافة الفاطمية المنهارة ، بعد موت الخليفة العاضد ، كبير البيت الفاطمى ، والقائم بالخلافة ، وكان الأيوبيون يصبون لإقامة سلطنة وراثية فى أسرتهم المالكة بمصر ، فإن دواعى السياسة وطبائع الملك ، حتمت على الأيوبيين ، طوال حكمهم بمصر ، أن يتحفظوا على جميع أفراد البيت الفاطمى ، خشية أن يظهر من دعاتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين فى إعادة دولتهم ، وفى هذا ما قد يزلزل عروش الأيوبيين ، خاصة وأن الفاطميين ينتسبون إلى بيت النبوة ، فى حين أن الأيوبيين ، ينحدرون من أصل كردى ، وتبوأ آباءهم المناسب الحربية والإدارية بالكدح والسعى والطموح الدؤب ، فلا ريب أن أى مقارنة بين الأسرتين الفاطمية والأيوبية ، المتصارعتين على عرش مصر ، كان من شأنه أن يرجع كفة الفاطميين لانتسابهم إلى البيت النبوى .

لذلك عهد صلاح الدين ، بأفراد البيت الفاطمى ، إلى مملوكه بهاء الدين قراقوش الذى احتجزهم أولاً فى بعض حجرات القصر ، بعد أن فرق الرجال عن النساء كى لا يتناسلوا ، تمهيدًا

(١) أنظر عبد المنعم ماجد : النقود الفاطمية بمصر ، حوليات كلية الأداب ، جامعة إبراهيم (عين شمس) المجلد الثانى ، ١٩٥٣ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٨ .

(2) p. Balog, monnaies islamiques rares fatimidis et ayoubites B.I.E. XX VI, 2, P 827-846, LE Cairo, 1955.

لانقراض نسلهم[١] ، ثم أخلى القصور من سكانها وأقفل أبوابها[٢] ، وحبس أفراد البيت الفاطمى فى دار الضيافة[٣] ، ويبدو أنهم ظلوا بهذه الدار ، حتى أنتقل الملك الكامل فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م بمقر سلطنة من دار الوزارة بمدينة القاهرة ، إلى قلعة الجبل بعد الفراغ من بنائها ، واصطحب معه بقايا الفاطميين ، وحبسهم فى سجن القلعة ، على هيئة البيت[٤] ، ولقد ظل بقايا الفاطميين محبوسين بالقلعة حتى نهاية العصر الأيوبى ، بحيث رآهم المؤرخ ابن واصل فى سجن القلعة وتحدث إلى بعضهم[٥] ، ولما كان المماليك هم ورثة سلطنة الأيوبيين ، وكانوا فى الأصل أرقاء ، عارون من أى نسب ، فطبيعى أن بقى المماليك على بقايا الفاطميين ، فى سجنهم بالقلعة ، حتى حولوا منه فى ٦٧١هـ / ١٢٧٢م[٦] . وأغلب الظن أن بقاء بقايا نسل الفاطميين فى سجون الأيوبيين والمماليك حوالى قرن ونصف ، يؤيد كونهم فعلاً من النسل النبوى ، وإلا فما الداعى لسجنهم هذه المدة المديدة ، وما الخطورة التى عساها أن تنشأ من بعض المدعين بعد زوال دولتهم بقرن ؟! .

(١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٣ - ٤٩٥ .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٧٩ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ عند الحديث عن دار الضيافة . ولقد ذكر المقريزى فى موضع آخر ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، أنهم بعد أن أخرجوا من القصر سكنوا أولاً دار المظفر ، ثم نقلوا إلى القلعة ، ولقد أورد المقريزى حصر لعدد هؤلاء الفاطميين ، سواء من الرجال أو النساء ، ولقد أفاد أنه كان فيهم الأمير داود بن العاضد ، وكان ولى العهد ويُنعت بالحامد لله ، وجميع أخوته وجماعة من بنى أعمامه أولاد الخليفة الحافظ لدين الله . ولقد ذكر المقريزى أسماء هؤلاء الأفراد بأسمائهم كاملة ، فيراجعوا هناك . وأنظر عن بقايا النسل الفاطمى أيضًا ابن واصل ، مفرج ، ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١ .

Casanova: Les Derniers Fatinides, Memoires de la Mission Archologique Francaise du Caire, Tome VI, 1893. pp. 415-445.

S. M. Stern: The Succession of the Fatimid Imam Al-Amir The Claims of the Later Fatimids to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism. Oriens, Vol. 4. No 2, pp.93.

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٥) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢١١ .

(٦) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٩ ويذكر المقريزى فى الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، خبرًا طويلاً فحواه أن الملك الظاهر بيبرس قد جمع فى سنة ٦٦٠هـ ، من بقى من أمراء الفاطميين من أبناء العاضد فى سجن القلعة ، وأشهد عليهم فى وثيقة رسمية ألهم لا يمتلكون أى شىء من بقايا القصور الفاطمية ولا المنشآت الواقعة داخل مدينة القاهرة الفاطمية وأخذوا خطوطهم بذلك ، وأرخ هذه الوثيقة بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ٦٦٠هـ .

وفى رأى البعض أن بناء الأيوبيين لقلعة الجبل ، خارج مدينة القاهرة ، كان بهدف أن تكون معقلاً لهم من ثورات وانتقاضات الشيعة ، الرامية إلى إعادة الدولة الفاطمية[١] ، ويبدو أن لهذا الرأى ما يؤيده فى وثائق الأحداث فى عصر بنى أيوب ، فلقد حاول بعض دعاة الإسماعيلية بالقاهرة فى ٥٨٤هـ / ١١٨٨م استصراخ الشيعة من المصريين ليلاً ، للتجمع ومهاجمة القلعة لإطلاق الفاطميين المحبوسين بها ، وإعادة الخلافة الفاطمية[٢] ، كذلك يذكر المؤرخون أنه كلما قامت ثورة شيعية فى مصر أو فى الصعيد أو فى أى جزء من الأقاليم المصرية ، كان الأيوبيون ، يشددون إجراءات الحبس والاعتقال على الفاطميين بالقلعة ، بل ربما كبلوهم بالأغلال[٣] ، خشية محاولة شيعتهم إطلاق سراحهم ، ومع ذلك فإنه لا يمكن أن يعد بناء قلعة الجبل مجرد وسيلة لاحتماء الأيوبيين من الثورات الشيعية بمصر ، فلاشك أن بناء القلعة كان عملاً عسكريًا بعيد المدى ، يهدف إلى تحصين مصر ضد هجمات الفرنج ، خاصة وأن مشروع بناء القلعة ، قد ارتبط به مشروع آخر لم يكتمل ، هدف إلى إحاطة عواصم مصر الإسلامية الأربع ، الفساط والعسكر والقطائع والقاهرة ، بسور واحد ، خاصة وأن الصليبيين قد تهددوا القاهرة نفسها عاصمة الفاطميين ، أكثر من مرة ، فى نهاية عصر دولتهم .

وبعد نقل الأيوبيين مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل ، انتهزوا هذه الفرصة ، لابتذال مدينة القاهرة ، عاصمة الفواطم ، التى ظلت طوال مدة دولتهم ، مدينة ملكية ، خاصة بسكنى الخلفاء ، وطوائف العسكر ، ورجال البلاد ، وأرباب الدواوين ، كما كانت فى نفس الوقت حصنًا عسكريًا ، بحيث كان أغلب أهل مصر ، يسكنون مدينة الفساط[٤] ، وقد علق المقريزى على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله : « فصارت القاهرة مدينة سكنى ، بعد ما كانت حصنًا يعتقل به ، ودار خلافة يلتجأ إليها ، فهانت بعد العز ، وابتذلت بعد الاحترام ، وهذا شأن الملوك ، مازالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم »[٥] .

(١) أنظر بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ، ترجمة أحمد دراج ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، ذكى محمد حسن : قلعة الجبل ، مجلة الكتاب ، أكتوبر ١٩٤٦ ، ص ٨٧٣ - ٨٨٢ .

(٢) أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٠١ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٥ نقلاً عن مياومات القاضى الفاضل ، وأنظر بعده .

(٣) أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٧ هـ ، حيث يذكر أنه فى سنة ٥٨٠ ، رسم السلطان بتقييد أولاد الخليفة العاضد الفاطمى ومن بقى من أقاربه ، أنظر بعده .

(٤) راجع فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٥) عن مناقشة هذه القضية أنظر : Mamour: Polemies on the origin of Fatimi Caliphs. London, 1934 .

النسب الفاطمى وطعن الأيوبيين بمصر فيه :

وارتبط بإبادة الأيوبيين ، لجميع التراث الفاطمى من مصر ، أحياءهم لقضية قديمة شهيرة ، أغلب الظن أن أول من ابتدعها وروّجها خلفاء بنى العباس ، وهى قضية انتحال النسب الفاطمى إلى البيت النبوى ، وإشاعة أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودى أو مجوسى ؛ فلا شك ، أن الخلافة الفاطمية ، كانت تهدد شرعية الخلافة العباسية ، لانتسابها إلى بيت من قريش ، أكثر قرابة للنبى من البيت العباسى ، وهو البيت العلوى ، فكان الطعن فى حقيقة انتساب الفاطميين لعلى بن أبى طالب فى الواقع ، محاولة لهدم السند الشرعى للخلافة الفاطمية ، والسلاح الذى يستطيع الفاطميين عن طريقه تهديد أحقية بنى العباس فى الخلافة(١) .

وبلغت قضية الطعن فى نسب الفاطميين ، أوج تصعيدها ، فى عهد الخليفة العباسى ، المقتدر بالله ، الذى كتب محضراً وقع عليه فقهاء العراق ، وبعض كبراء العلويين العراقيين ، مثل الشريف الرضى ، يشهدون فيه بانتحال نسب الخليفة المصرى الفاطمى الحاكم بأمر الله(٢) ، ثم ما لبثت هذه القضية أن فترت ، وقلّ الاهتمام بها ، ربما لعدم صحتها(٣) ، وتهاوى أدلتها وظهور تدليسها ، وعدم جدوى الخوض فيها .

ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية من مصر ، وحبس الأيوبيين لبقايا النسل الفاطمى ، وتربع بنى أيوب على عرش مصر ، أصبحت الفرصة مواتية للطعن فى نسب الفاطميين مرة أخرى بعد أن زالت دولتهم ، وكثر أعداءهم ، وكُسِرت شوكة شيعتهم وأنصارهم ، وأبيد تراثهم .

فنجد عدداً كبيراً من المؤرخين المعاصرين لسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، مثل ابن خلكان(٤) ، وابن حماد(٥) ، وأبى شامة(٦) ، وابن واصل(٧) ، يطلقون على الفاطميين اسم

(١) عن مناقشة هذه القضية راجع Mamour, Polemies on the origin of fatimi Caliphs. london, 1934. ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٦٢-١٦٨ ، عباس العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون ، مجموعة الهلال ، سنة ١٩٥٨ ، وهذه المراجع الثلاثة تؤيد صحة النسب الفاطمى ، وتُدلّل على ذلك فى حين ذهب البعض مثل الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية إلى اعتقاد زيف النسب الفاطمى ، أنظر : محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله .. إلخ . الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ، ص٤٧ - ٧٦ .

(٢) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ص ٧ ، ص ٢٥٥ .

(٣) راجع ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٦٢ - ١٦٧ .

(٤) أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣: ١١٦-١١٩ (ترجمة عبد الله ، المهدى العبيدى) ، و ج ٣ : ١٠٩-١١٢ ترجمة الخليفة العاضد (آخر ملوك مصر من العهدين " كذا ") .

(٥) أنظر ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد .

(٦) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٩-٥١٦ .

(٧) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ٢١٠-٢١١ .

« بني عبيد » إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القَدّاح المجوسى ، بل نجد أبو شامة ، يخبرنا بأنه ألف كتابًا منفردًا ، يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين ، سماه : « كشف ما كان عليه بنو عبيد، من الكفر والكذب والمكر والكيد »[1] ، والكتاب رغم أنه فقد ولم يصل إلينا إلا أن الهدف الدعائى الهادف إلى الطعن فى نسب الفاطميين ، ظاهرًا من عنوان الكتاب ، بحيث يكاد يعلن صراحة عن تحامل أبى شامة على الفاطميين .

ولقد خصص أبو شامة فى كتابه الروضتين ، صفحات طوال ، حاول فيها التدليل على انتحال نسب الفاطميين ، اعتمادًا على نقول نقلها عن كبار دعاة المذهب الأشعرى ، من مؤلفات خصصوها فى الطعن على الفاطميين ومذاهبهم وأحقيتهم فى الخلافة . مثل كتاب كشف أسرار الباطنية ، لأبى بكر الباقلانى[2] . وكتاب « الرد على الباطنية لأبى القاسم الشاسى[3] ، إلى جانب محاولته الإيهام بأنه تتبع نسب الفاطميين فى كتب الأنساب العلوية ، التى ألفها الأشراف العلويين ، فلم يجد للنسب الفاطمى أى صلة بهذه الأنساب العلوية[4] ، كما راح يعلل الأبيات المشهورة التى قالها الشريف الرضى ، نقيب العلويين بالعراق ، والتى يعترف فيها بانتمائه هو والخليفة الفاطمى إلى النسل العلوى والبيت النبوى ، تعليلات لا تصمد أمام أقل تفنيد[5] .

واستند كل من أبى شامة وابن واصل ، على حجة قوية فى الواقع ، لازال الباحثين إلى اليوم لا يجدوا لها تعليلاً ، وهى أن الفاطميين بعد ظهورهم من فترت الستر ، وقيام دولتهم بالمغرب ، ثم انتقالها إلى مصر ، واستمرارها أكثر من قرنين من الزمان ، ظلوا يكتمون أخبار أئمتهم المستورين، الذين ظلوا فى فترة الستر ، أكثر من مئة عام ، ولا يذكرون شيئًا عنهم ، وهنا يلاحظ كل من ابن واصل[6] ، وأبو شامة[7] . إن كتمان الفاطميين لأخبار هؤلاء الأئمة المستورين حتى بعد قيام دولتهم واستقرارهم يؤكد زيف انتسابهم للبيت النبوى ، لأنه لا داعى لكتمان أخبارهم بعد انتهاء فترة الستر وقيام الدولة .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٤ .
(٢) أبو شامة : نفس المصدر ، ص ٥١١ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٩٤ وأنظر أيضًا . بالإضافة إلى هذه الكتب فى الرد على الباطنية الفاطميين لدعاة الأشاعرة الباقلانى والشاشى ، كتاب آخر لداعي أشعرى آخر هو أبو حامد الغزالى : كتاب فضائح الباطنية ، تحقيق أختانيوس جولد تسيهبر ، مطبعة بريل ليدن سنة ١٩١٦ .
(٤) أبو شامة : نفس المصدر ، ص ٥١٥ ، ص ٥١٦ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٥١٥ .
(٦) راجع ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢١٠ - ٢١١ .
(٧) راجع أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٠٩ - ٥١٦ .

ولاشك أن هذه الحجة التى استند إليها مؤرخو بنى أيوب للطعن فى نسب الفاطميين قوية ، ووجيهة ومنطقية ، إلا أنه يبدو لنا أن أئمة الفاطميين فى دور الستر أضطروا بالفعل إمعانًا فى التخفّى بإدعاء انتسابهم لنسل يهودى أو مجوسى ، لإبعاد أى شبهة حولهم من كونهم أبناء بيت النبوة ، وربما أيضًا اضطروا إلى امتهان بعض المهن المتواضعة ، إمعانًا أيضًا فى التخفّى مثل قدح الحديد والكحالة ؛ فلما قامت دولتهم استنكف أحفادهم الأئمة الفاطميين بالمغرب ومصر ، تسجيل ذكريات هذه الأيام الأليمة ، التى اضطر آباؤهم وأجدادهم إمعانًا فى التقية ، وخشية من تتبع بنى العباس وبطشهم من امتهان مهن مستحقرة ، والانتساب إلى ديانات يهودية ومجوسية ، ففى هذا ولا ريب ما يسىء إلى خلفاء الفاطميين ، بعد أن تربعوا على عرش الخلافة ، والواقع أن ابن واصل قد ذكر واقعة حوار حدث بينه وبين بعض أبناء الفاطميين بسجن القلعة ، يفهم من بين سطورها ؛ إن ابن واصل يحاول التخلص من طعنه فى النسب الفاطمى[1] .

ويقوى من اعتقادنا بأن إحياء مؤرخى بنى أيوب ، لقضية انتحال النسب الفاطمى ، قد أوحى إليهم بها تملقهم للدولة الأيوبية الجديدة ، وزوال الخلافة الفاطمية من مصر ؛ وانقراض شيعتها من البلاد ، إن هؤلاء المؤرخين قد عمدوا إلى تشويه تاريخ الفاطميين على نحو ينكره أى عالم بتاريخ دولتهم وما حققوه للإسلام من انتصارات ، وما حققوه للحضارة الإسلامية من رفعة وإزدهار ؛ نحن لا ننكر على أبى شامة أن يربط بين الحركة الفاطمية ، وحركة القرامطة فى العراق والبحرين ، وحركة الزنج بالبصرة[2] ، فكلها فى الواقع حركات علوية شوهتها أيضًا الدعاية العباسية ؛ ولكننا ننكر عليه أن يربط بين الدعوه الإسماعيلية والدعوة النصيرية والدرزية بالشام[3] ، لأن هذه الدعوات كانت دعوات متطرفة ، أعلن الخلفاء الفاطميون أنفسهم تبرؤهم منها[4] ، كما أننا نرى فى اتهامه للفاطميين بالكفر فى العقيدة وخروجهم عن الإسلام ، وقولهم بالإراء الإلحادية ، وأن دولتهم كانت نكبة على الإسلام ، لأن الصليبيين أخذوا بلاد الشام فى عصرهم[5] ، تشويهًا متعمدًا لتاريخ الفاطميين ، وقلبًا لحقائق التاريخ ، بطريقة يأباها المؤرخ المنصف .

(١) يقول ابن واصل : " وبقى منهم (الفاطميون) رجلان محبوسان بقلعة الجبل ، شيخان ، جدهما العاضد ، وكان أحدهما واسمه القاسم ، قد بلغه أنى صنفت تاريخًا للسلطان الملك الصالح وذكرت فيه أخبار هؤلاء القوم ، وما قاله النسابون فيهم ، وأن بعضهم قال أن أصلهم من اليهود ، فطلعت يومًا إلى القعلة المحروسة ودخلت على باب الحبس ، والقاسم ابن العاضد هذا قاعد على بابه فسأل عنى ، فعرف بى ، فاستدعانى ، فأتيته ، فقال : " أنت ذكرت أن نسبنا يرجع إلى اليهود ؟ ، فخجلت منه وما أمكننى له إلا الاعتراف بذلك ، وأحلت الأمر على أقوال المؤرخين فسكت ، (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢١١) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥١٠ .

(٤) أنظر ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، ص ١٠٥ - ١٢٦ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٥ .

والطريف أنه فى نفس الوقت الذى راح فيه مؤرخو بنى أيوب ، ومتملقوا دولتهم الفتية ، يشوهون فيه تاريخ الخلافة الفاطمية ، ويحاولون الطعن فى نسب الفاطميين ، راح فريق آخر من المؤرخين الذين عاصروا سقوط الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية ، يؤلفون فى تاريخ ونسب الخلفاء العباسيين ، الذين يتبنى سلاطين بنى أيوب دعوتهم السياسية ، وخطبوا لهم على منابر دولتهم [١] ، بل وفى المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية [٢] ، عاصمة العالم المسيحى آنذاك .

فألف كل من أبى السرور السروجى [٣] ، وهو مؤرخ مصرى عاصر نهاية حكم الفاطميين ، وابن دحيه الكلبى [٤] ، وهو محدث ومؤرخ أندلسى ، نال الحظوة فى بلاط الأيوبيين ، كتابين فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، منذ ظهور دعوتهم حتى عصر الخليفة العباسى المعاصر لهم ، ثم أصبح التأريخ لخلفاء بنى العباس ، تقليدًا احتذاه الكثيرون من شيوخ مصر الإسلامية فى العصر المماليكى ، مثل شمس الدين السخاوى [٥] ، وجلال الدين السيوطى [٦] ، وغيرهم .

(١) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٠٠-٢٠١ ، ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧-٢٤٣ ، حيث خطب الأيوبيون للخلافة العباسية بمصر عاصمة الخلافة الفاطمية ، وفى القيروان التابعة للخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى المغربى ، وفى اليمن وكان تابعه أيضًا للفاطميين ، أنظر قبله .

(٢) أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٤-١٢٦، ١٣٢-١٣٣ . سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج١ ، ج ٨ ، ٤٠٤ حوادث سنة ٥٨٦ حيث يقول " ووصل رسول ملك القسطنطينية يعتذر إلى السلطان من الروم ، وكان صديق السلطان ، وأنه خطب للخليفة بقسطنطينية ، وأنظر محى الدين بن عبد الظاهر : الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٣٧-٤٢ ، ولعل هذا تم بعد المعاهدة بين صلاح الدين والإمبراطور البيزنطى سنة ٥٧٧هـ . فيها قدم رسول ملك القسطنطينة إلى القاهرة ، فوقع الصلح مع صاحبها وأطلق مائة وثمانين أسيرًا من المسلمين ، أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢ ، ثم عقد صلاح الدين حلفًا بينه وبين الإمبراطور البيزنطى إسحاق الثانى سنة ٥٨٥هـ : أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٩٨ هامش (١) للدكتور زيادة ، وفى سنة ٥٨٦هـ ، يقول المقريزى : وافى كتاب ملك الروم بقسطنطينية ، بخبر وصول المنبر من عند السلطان ، وكذلك الخطيب والمؤذنين والقراء ، وأن الخطبة تمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله (المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ١٠٤) .

(٣) هو الفقيه أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى عبد الله محمد بن أبى السرور السروجى المتوفى بعد سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م واسم كتابه بلغة الظرفاء فى ذكر تواريخ الخلفاء ، طبع بمطبعة النجاح بمصر ، سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .

(٤) توفى ابن دحيه الكلبى سنة ٦٣٣هـ وكتابه اسمه " النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، طبع فى بغداد ، لجنة التاليف والنشر فى وزارة المعارف سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

(٥) أنظر السخاوى ، ت ٩٠٢هـ : عمدة الناس فى مناقب سيدنا العباس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ .

(٦) أنظر السيوطى ، ت ٩١١هـ : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، القاهرة ، ١٣٥١هـ .

والحقيقة أن كل هذه التدابير والوسائل التى استخدمها الأيوبيون ، لإبادة التراث الفاطمى ، وتشويه تاريخ الخلافة الفاطمية ، كانت من الشمول والإحكام ، بحيث كادت تودى بالفعل بذكر الفاطميين ، وتشوه الدور التاريخى الضخم الذى أدته دولتهم فى تاريخ الإسلام ، لولا جهود بعض المنصفين من المؤرخين المتأخرين مثل ابن خلدون[1] ، والمقريزى[2] ، الأول فى تفنيد قضية انتحال النسب الفاطمى ، والثانى فى عرض تاريخ الفاطميين عرضًا مفصلاً مسهبًا اعتمادًا على المصادر الأصلية لمؤرخى دولتهم ومعاصريها من المصريين ، ولولا جهود الباحثين المحدثين فى التفتيش عن بقايا كتب الدعوة الإسماعيلية فى خزائن اليمن والهند والعمل على نشرها ، وتعليل الغلو والاشتطاط فى عقائد الإسماعيلية ، ذلك الغلو الذى أملاه عليهم رغبتهم فى تأييد أحقتهم فى الخلافة ، وحق ائمتهم فى الولاية ، أى الطاعة على جميع المسلمين[3] .

ولقد أفصح صلاح الدين عن خطته التدريجية فى محو العقيدة الإسماعيلية من مصر ، حين قال لأبيه حين وفد عليه سنة ٥٦٦هـ - ١١٧٠م : « إن المصريين لهم جماعة كبيرة ، متفرقة فى بلاد مصر من السودان وغيرهم ، وإن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج ، وإلا فسدت الأحوال»[4] .

القضاء على فتن متشيعى المصريين المناصرين للدولة الفاطمية :

وأكدت الأيام ، صدق حدث صلاح الدين ، وبعد نظره ، إذ أبدى بقايا الشيعة فى مصر ، وأنصار الدولة الفاطمية مقاومة مستميته للحكم الأيوبى ، بل لم تمنع الإجراءات التعسفية التى اتخذها الأيوبيون ضد أفراد البيت الفاطمى ، وأمراء دولتهم ، وحاشيتهم وجنودهم ، أحد الشعراء المحبّين لدولتهم مثل عمارة اليمنى ، من أن ينظم قصيدة ، طار ذكرها فى الآفاق ، ينعى فيها أيام الفاطميين وأياديهم البيضاء على الوافدين إلى عاصمة ملكهم من كافة أرجاء العالم الإسلامى ، ويعلن حنينه إلى ذكرى مواسمهم وأعيادهم البهيجة ، وينعى قصورهم ومناظرهم ، ويشيد بالازدهار الصناعى والحضارى الذى عاشته مصر فى أيامهم ، خاصة طراز تنيس ، الذى لم يستطع الأيوبيون فى رأيه تعويضه بمثيل له . بل لقد تحدى عمارة الدولة الأيوبية الجديدة ، وتحدّى دعاياتها المغرضة للطعن فى

(١) أنظر ابن خلدون : المقدمة ، طبع بيروت ، ١٩٠٠ ص ٢١ - ٢٣ .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا فى أخبار الفاطميين الخلفاء ، ولقد طبع الجزء الأول من هذا الكتاب مرتين الأولى لتحقيق جمال الدين الشيال . ج ١ والثانية بتحقيق محمد محمود حلمى أحمد .

(٣) أنظر قبله ، وأنظر ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٦١ - ٦٤ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٨ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

نسب الفاطميين ، وصرح فى هذه القصيدة بانتماء الفاطميين للنسل النبوى . ونعى على الأيوبيين ، ما أنزلوه بأبناء النبى ، من إهانات فيقول :

يا عاذلى فى هوى ابناء فاطمة ... لك الملامة أن قصرت فى عَذلى
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة ... فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما ... ملكتم بين حكم السبى والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم ... محمد وأبيكم ، غير منتقل(1)

بل نظم عمارة قصيدة أخرى صرح فيها بأن الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، من نسل النبى ، ولا مجال للشك فى ذلك ، فقال :

أسفى على زمن الإمام العاضد ... أسفُ العقيم على فراق الواحد
لهفى على حجرات قصرك إذ خلت ... يا بن النبى من ازدحام الوافد(2)

بل سرعان ما انخرط الشاعر عمارة اليمنى ، فى أول ثورة شيعية حاولت الإطاحة بالسلطنة الأيوبية ، وإعادة الخلافة الفاطمية . ففى ٢ رمضان سنة ٥٦٩هـ - ١١٧٣م ، أجمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد ، وأن يفتكوا بصلاح الدين ، منهم القاضى المفضل ضياء الدين ابن كامل القاضى ، والشريف الجليس ، ونجاح الحمامى ، والفقيه عمارة اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى الأعز سلامة العوريس متولى ديوان النظر ثم القضاء ، وداعى الدعاة عبد الجبار إسماعيل بن عبد القوى ، والواعظ زين الدين ابن نجا ، فوشى ابن نجا بخبرهم إلى السلطان ، فأحيط بهم ، وشنقوا بين القصرين ، وشنق معهم جماعة من الأجناد والعبيد والحاشية ، وبعض أمراء صلاح الدين - ربما لتعاونهم مع الثوار - وتتبع من له هوى فى الدولة الفاطمية ، فقتل منهم كثيراً ، وأسر كثيراً ، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد(3) .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٠ .
(٢) نفس المصدر ، ق ٢ ، ص ٥٦٩ .
(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٥١ . أبو شامة : الروضتين / ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٠ - ٥٦٥ .

ولم تمضى إلا أيام قلائل على إخماد الأيوبيين لهذه الثورة القاهرية ، التى انخرط فيها جميع كبار رجال الدولة الفاطمية تقريبًا ، حتى اشتعلت ثورة شيعية أخرى فى ثغر الإسكندرية رغم غلبة المذهب السنى عليه طوال العصر الفاطمى ، مما كان موضع تعليق صلاح الدين واندهاشه[1] ففى يوم الأحد ١٥ رمضان سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م ، قبض على رجل يقال له قديد بالإسكندرية ، من دعاة الفاطميين ، وقبض على كثير من السودان ، وكووا بالنار فى وجوههم وصدورهم[2] .

ويبدو أن الشيعة وأنصار الفاطميين بمصر ، قد فروا إلى صعيد مصر ، والتفوا حول أحد أمراء العرب المتحمسين للدولة الفاطمية . كان يلقب كنز الدولة . وكان واليًا لمدينة أسوان ، فجمع كنز الدولة العرب والسودان فى سنة ٥٧٠هـ ـ ١١٧٤م ، وقصد القاهرة يريد إعادة الدولة الفاطمية ، وأنفق فى جموعه أموالاً جزيلة ، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم ، فقتل عدة من أمراء صلاح الدين ؛ وخرج فى قرية طود ، رجل يعرف بعباس بن شادى ، وأخذ بلاد قوص ، وأنهب أموالها . فجهز السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل فى جيش كثيف ، فسار وأوقع بشادى ، وبدد جموعه وقتله ؛ ثم سار فلقيه كنز الدولة بناحية طود ، وكانت بينهم حروب ، فر منها كنز الدولة ، بعد ما قُتل أكثر عسكره ، ثم قتل كنز الدولة[3] .

وتشير الحوادث ، أن أغلب بلاد صعيد مصر ، كانت مؤيدة ، لعودة الخلافة الفاطمية ، متمسكة بالدعوة الشيعية . ففى سنة ٥٧٢هـ ـ ١١٧٦م ، حدثت فتنة كبيرة بمدينة قفط ، سببها أن داعيًا من بنى عبد القوى ـ آخر داعى دعاة للفاطميين بمصر ـ ادعى أنه دواود بن العاضد ، فاجتمع الناس عليه ، فبعث السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل ، على جيش ، فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف ، وصلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم[4] ، مما يؤكد قوة هذه الثورة ، وكثرة مؤيديها .

ورغم تمثيل الأيوبيين ، بثوار مدينة قفط الشيعة ، فإن نشاط دعاة الإسماعيلية لم يفتر فى مدن الصعيد ، ففى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م ، ظفر والى قوص برجلين من أهل إسنا يدعوان إلى مذهب الباطنية[5] ؛ ولاشك أن هذا النشاط المتزايد لدعاة الإسماعيلية فى صعيد مصر ، قد أقلق بال

(١) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٥٠ . المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤ .

(٢) المقريزى : السلوك / ج ١ ، ص ٥٤ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢: ٥٣١ ، ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ١٦-١٧، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧ – ٥٨ .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٦ – ٣٧٧ .

(٥) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦ .

السلطات الأيوبية بالقاهرة ، بحيث رُسم في سنة ٥٨٠هـ ـ ١١٨٤م ، بتقييد أولاد الخليفة العاضد ومن بقى من أقاربه[١] .

وكان قلق الأيوبيين فى موضعه ، فلقد زحف الدعاه والثوار الشيعة من الصعيد إلى القاهرة ، وفى سنة ٥٨٤ هـ ـ ١١٨٨م ، ثار فى القاهرة إثنا عشر رجلاً من الشيعة فى الليل ، ونادوا « يا آل على يا آل على » ، وسلكوا الدروب وهم ينادون كذلك، ظنًا منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم، ويقومون فى إعادة الدولة الفاطمية ، فيُخرجون مَنْ الحبوس ، ويملكون البلد ، فلما لم يجبهم أحد تفرقوا[٢] ، فكانت هذه المحاولة دافعًا للسلطات الأيوبية ، إلى نفى بعض أنصار الدولة الفاطمية خارج مصر . ففى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م ، كُتب بنقل جماعة من أتباع الدولة الفاطمية المحبوسين فى الإيوان ودار المظفر ليلاً ، بحيث لا يشعر بهم أحد ، حتى يوصلهم المكلف بذلك صرخد[٣] . ومرة أخرى أيدت الأحداث قلق الأيوبيين وأغلب الظن أنهم كانوا يستعينون فى تتبع نشاط دعاة الشيعة بمصر بأصحاب الأخبار . ففى نفس السنة (٥٨٨هـ / ١١٩٢ م) عُثر على رجل اسمه عبد الأحد من أولاد حسن بن الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، وأحضر إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين بالقاهرة ، فقيل له أنت تدعى أنك خليفة ؟ قال نعم ، فقيل له : أين كنت فى هذه المدة ، فذكر أن أمه أخرجته من القصر فتاه ، ووصل إلى طنبذة ، فاختفى بها ، ثم خرج إلى مصر ، فآواه رجل وشرع يتحدث له فى الخلافة ، وأنه تردد على عدة بلاد دعى لنفسه فيها ، وأقطع أناسًا ممن بايعه الإقطاعات ، على أساس قرب توليه للخلافة ، فسجن هذا الفاطمى ، وفى نفس هذه الأيام عثر أيضًا على بعض أقارب الوزير الفاطمى القديم شاور ، وقد ثار بالقاهرة ، فسجن هو وجماعته[٤] .

وكانت آخر ثورة شيعية لإعادة الدولة الفاطمية شهدها العصر الأيوبى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧م ، فى عصر السلطان الكامل حين كان إبنه الملك العادل ولى عهد ، ففى هذه السنة توفى الأمير داود بن العاضد فى محبسه ، وكانت الإسماعيلية تزعم أن العاضد عهد إليه ، وأنه الإمام من بعده ، فاستأذن أصحابه الملك الكامل أن ينوحوا عليه ويندبوه ، فأذن لهم ، فبرزت النساء حاسرات، والرجال فى ثياب الصوف والشعر ، وأخذوا فى ندبه والنياحة عليه ، واجتمع معهم من كان

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٧ ، وأنظر قبله .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٠١ ، المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ نقلاً عن مياومات القاضى الفاضل .
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١١١ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١١٠ - ١١١ .

في الاستتار من دعاتهم ، فلما تكامل جمعهم أرسل الكامل إليهم طائفة من الأجناد نهبوا ما عليهم ؛ وقبضوا على المعروفين منهم ، فملأ بهم السجون ، واستصفى أموال ذوى اليسار منهم ، ففر من بقي. ويُعلق المقريزى على هذه الثورة بقوله : « وزال من حينئذ ، أمر الإسماعيلية من ديار مصر . ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم »[1] .

محاولة القضاء على بقايا التشيع فى الشام واليمن :

هكذا قضى الأيوبيون على الخلافة الفاطمية بمصر ، وأبادوا تراثها ، وتتبعوا شيعتها بالقاهرة والصعيد ، حتى لم يجسر أحد على التظاهر بمذهبها ، فانقرضت دعوتها من مصر ، ونحن نؤيد المقريزى فيما ذهب إليه من أن زوال المذهب الإسماعيلى بمصر ، بدأ بقدوم عساكر نور الدين زنكى إليها سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م[2] ، ولقد أدرك الإسماعيلية أن دعوتهم لم تصب طوال تاريخها المديد، على يد السلاطين السنيين مثل الغزنويين والسلاجقة والزنكيين بمثل النكبة التى نكبوا بهم بسقوط الخلافة الفاطمية ، وهى أعظم دولة شيعية قامت فى التاريخ الإسلامى استحوذت الخلافة ، وكادت تضم العالم الإسلامى كله تحت لوائها حين خطب لها ببغداد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م[3] ، فلا غرو أن نظر الشيعة الإسماعيلية كلهم إلى صلاح الدين ، على أساس أنه هو الذى أزال دولتهم الكبرى من مصر ، بحيث أننا نجد أن ثوار القاهرة الشيعة فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، ضد صلاح الدين ، قد كاتبوا سنان بن سليمان زعيم النزارية بالشام - رغم عداء الدعوة النزارية الشامية مع الدعوة الحافظية بمصر[4] التى ورثها الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين - لينهض لمساعدتهم ، لأن الدعوة واحد والكلمة جامعة[5] .

فلا غرو أن حاول الإسماعيلية النزارية السنانية بالشام اغتيال صلاح الدين مرتين عند خروجه للشام لضم ممتلكات أستاذه نور الدين زنكى ، وكانت محاولة الاغتيال الأولى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م إبان حصاره لحلب[6] ، والمحاولة الثانية سنة ٥٧١هـ - ١١٧٥م إبان حصاره لمدينة عزاز[7] فحاول صلاح الدين الانتقام من نزاريه الشام بأن رحل فى عاشر محرم ٥٧٢هـ - ١١٧٦م إلى بلادهم

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٩ .
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .
(٣) أنظر قبله .
(٤) أنظر قبله .
(٥) أنظر أبو شامة : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥ ، س ٥ - ٦ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .
(٦) أنظر ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢١ - ٢٢ ، سبط ابن الجوزى : مرآة ، ص ٣٢٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٣ - ٦١٤ .
(٧) سبط : مرآة ، ٨ : ٣٣٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٨ - ٦٦٣ .

ونازل قلعة مصياب وفيها مقدمهم وزعيمهم راشد بن سليمان بن محمد صاحب قلاع الإسماعيلية التى تنسب إليه الطائفة السنانية من الإسماعيلية ، ونصب على قلعتهم المجانيق والعرادات عدة أيام ثم رحل ولم يقدر عليهم(١) ، ثم إضطّرّ الفريقان تحت ظروف جهاد الصليبيين إلى توقيع الصلح والتعاهد على التعاون على قتال الفرنج(٢) .

والجدير بالتنويه ، أن أنصار الدعوة الطيبية باليمن ، بعد أن أسقط صلاح الدين الدولة الفاطمية بمصر ، كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الحقيقيين للدعوة الإسماعيلية القديمة ، المتمثلة فى الدولة الفاطمية بمصر ؛ وذلك لأن مبدأ النص قد خولف بتولى الخليفة عبد المجيد الملقب بالحافظ الخلافة بعد ابن عمه الخليفة الآمر ، وهذا ما عبر عنه دعاة الدعوة الطيبية بقولهم : قد ذكرنا تغلب عبد المجيد (الخليفة الحافظ) وادعائه الخلافة والإمامة ، وإمرة المؤمنين ، وإنكار الحرة السيدة (أروى ملكة اليمن الصليحية) ذلك .. ودفع الاختلاط فى الناس ، فصار بناء دينهم على غير أساس ، ووقع الستر ، واختفى ولى الأمر (المقصود الخليفة الطيب بن الآمر) فلم يعرف مكانه إلا أوليائه المخلصون .. وخفيت نجوم الدين وأقماره وخمل أوليائه وأنصاره ، ما خلا الدعوة فى جزيرة اليمن(٣) .. ثم يتتبع الداعى إدريس تلاعب وزراء السيوف بالنص فى نهاية العصر الفاطمى ويعلق بقوله : فكثر لذلك الاضطراب ووقع فى المملكة الخراب ، وكثر الريب والارتياب ، ونسخت أحكام الدعوة الهادية وعطلت ، وتركت وبطلت ، وعاث الناس فى المملكة وأفسدوا ، وغُلبت الشيعة واضطهدوا(٤) ، ثم يذكر صراحة أن خلافة الخليفة العاضد آخر الفاطميين بمصر لم تكن شرعية لمخالفتها مبدأ النص

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٣٢ - ٣٤ ، سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٢٩ ، ص ٣٣٥ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ - ٦٧٠ ولقد صاغ أحد الشيعة الإسماعيلية المحدثين ، قصة على أساس هذه المعاهدة للجهاد المشترك بين صلاح الدين وسنان زعيم الإسماعيلية بمصياب ضد صلاح الدين ، أنظر عارف تامر : سنان وصلاح الدين قصة تاريخية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٦ . وأنظر :

- S. Guyard: Un grand maitre des Assassins au temps de Saladin, Hournal Asiatique, VII serie, 9 Janviers - Juin 1877.
- Lewis, B.: Saladin and the Assassins, B.S.O.A.S. 15 (1953), PP. 239-245.
- Lewis, B.: The sources for the History of Syrian Assassins (Speculum 1952, XXVII/4).
- Lewis, B.: Kamal al dins biography of Rasid al-din Sinan, Arabica, Tome XIII, 1966, Fasciule (3) pp. 225-262.

وهو يروى فى هذا المقال ، النص العربى الكامل ، لترجمة مقدم النزارية بالشام ، رشيد الدين سنان بن سليمان من كتاب بغية الطلب فى تاريخ حلب لابن العديم .

(٣) الداعى إدريس : عيون الأخبار ، ورقة ٢٣٠ .

(٤) نفس المصدر ، ورقة ٢٣١ - ٢٣٢ .

عند الإسماعيلية وأنه فى الأبناء فقط ، وفى رأيه أن صلاح الدين قد استغل تسليم الشيعة بمصر بعدم شرعية خلافة العاضد ، وأعلن سقوط الخلافة الفاطمية ، إذ يقول الداعى إدريس : ولما مات الفائز بن الظافر ، وحمل من القصور إلى المقابر ، سعى أرباب الدولة فى إقامة ابن عمه الموسوم بالعاضد عبد الله بن يوسف بن عبد المجيد الحافظ ، فأقاموه فى الخلافة ، فادعى إمرة المؤمنين ، وكتب بذلك إلى القاصين والدانين فى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م ، واستوزر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وملكه ، وفوض إليه جميع ما حازه وملكه ، فقام الملك الناصر بأمر الملك وشدّه ، وتولى حله وعقده ، وضمن أطرافه ومنع أكنافه ، ودعا للعاضد بالإمامة والخلافة ، ثم أن الملك الناصر رأى الأمور قد انقلبت ، وتحقق أن بنى عبد المجيد على الخلافة بغير حق قد تغلبت ، وأئمة الحق قد استترت فلم يعلم حيث حلت وذهبت ، فازداد طمعه فى الملك ، مع أنه كله قد صار إليه ، ولم يقنع نفسه ، إلا أن يصير الأمر إليه ، ومعول جميعه عليه .. وزالت الدولة العلوية ، فسبحان الذى لا يزول ولا تغيره الحول ، واستولى الملك الناصر يوسف بن أيوب على المملكة فى مصر والشام[1] .

وعلى هذا النحو قضى الأيوبيون على الدعوة الإسماعيلية بمصر واليمن والشام ، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكييون فى محاربة الدعوة الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية فى إيران والشام ، بحيث لم يبق من فرق الشيعة بالعالم الإسلامى اليوم إلا الدروز بلبنان والشيعة الإثنا عشر يه بإيران والشيعة الزيدية باليمن وبعض الشيعة الإسماعيلية بجبال حراز باليمن إلى جانب بقايا الإسماعيلية الطيبية بالهند الذين يعرفون اليوم بالبُهَره والدوادية والسلمانية[2] ، وبقايا الشيعة النزارية الذين يعرفون اليوم بالأغاخانية . أما « الحافظية » فماتت دعوتهم بسقوط دولة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م[3] .

وظل التشيع يضعف فى مصرشيئًا فشيئًا ، حتى كاد يمحى منها ، وأصبحت مصر فى القرن العاشر الهجرى وما بعده تدين بمذهب أهل السنة والجماعة[4] ، وإن ظلت بعض شرازم الشيعة متقوقعة فى مدن صعيد مصر ، مثل بنو الكنز بأسوان الذين أدرك منهم المؤرخ أبو الفضل الأدفوى

(١) الداعى إدريس : عيون الأخبار ، ورقة ٢٣٣ - ٢٣٤ .
(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٧ ، ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٦١ .
(٣) طه شرف : دولة النزارية ، ص ٤ .
(٤) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

فى القرن الثامن الهجرى اثنين من أمرائهما ، كانا مشهورين بالمكارم والإحسان[١] ، ويقول الأدفوى عن مدينة أسوان أنه : لما كانت البلاد للعبيدين (أى الفاطميين) غلب على أهلها التشيع ، وكان بها قديمًا أيضًا وقد قل ذلك واضمحل ولله الحمد والمنة[٢] ، أما مدينة إدفو « فكان التشيع بها فاشيًا ، وأهلها طائفتان : الإسماعيلية والإمامية ، ثم ضعف حتى لا يكاد ينبز به إلا أشخاص قليلة جدًا »[٣] ، كذلك مدينة إسنا : كان التشيع بها فاشيًا ، والرفض بها ماشيًا فجف حتى خف ، ونزل بها الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطى (ت : ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م بإسنا) فزال بسببه كثير فى ذلك وهدى الله على يديه خلقًا كثيرًا[٤] ، وكانت « إسفون أيضًا بلدة معروفة بالتشيع الشنيع ، لكنه جف بها وقل »[٥] .

كذلك ظلت ذكرى تشيع المصريين ، تترك أثرها فى صور تشبيهات الشعراء المصريين من أهل السنة بعد سقوط الدولة الفاطمية[٦] ، كما ظهر بمصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية أيضًا بعض الشعراء المتشيعين عقيدة[٧] ، وظلت ذكرى الفاطميين ماثلة إلى اليوم فى نفوس المصريين ونلمسها بوضوح فى حَنين المصريين الجارف لآل البيت ، واعتزازهم بأضرحتهم بمصر ، رغم أن السيدة نفيسة ، هى الوحيدة من آل البيت الثابت تاريخيًا أنها مدفونة بمصر[٨] .

(١) الأدفوى ، ت ٧٤٨هـ ، الطالع السعيد ، الجامع أسماء نُجَباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن ، مراجعة طه الحجرى ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ٣٠ .
(٢) الأدفوى : الطالع السعيد ، الجامع أسماء نُجَباء الصعيد ، ص ٣٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٧ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٨ – ٣٩ ، ص ٦٩١ – ٦٩٨ ترجمة هبة الله القفطى .
(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩ .
(٦) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٣٥ – ٤٨ .
(٧) نفس المرجع ، ص ٢٨ – ٣٥ .
(٨) الزركلى : الإعلام ، ج ٩ ، ص ١٦ – ١٧ ، ابن خلكان : وفيات ، ج ٢ ، ص ١٦٩ ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج ١٢ ، ص ٣١٠ .

الفصل الثالث

إعادة الشعائر السنية إلى مصر

ونشر الفكر الأشعرى بها

- استحداث المدارس السنية بمصر .
- إنشاء دار الحديث .
- قصر القضاء على المذهب الشافعى وبسط إشرافه على المدارس .
- قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وإبطال تدريس الفكر الفاطمى به .
- استخدام الحسبة لإعادة شعائر السنة .
- تشجيع التصوف والفكرى الصوفى .
- رصد الأحباس والأوقاف للمنشآت الخيرية والتعليمية .
- نشر العقيدة الأشعرية والفقه الشافعى بمصر .

إعادة الشعائر السنية إلى مصر
ونشر الفكر الأشعرى بها

استطاع سلاطين المشرق السنيون ، منذ القرن الخامس الهجرى ، التضييق على الدعوة الإسماعيلية ، فى الهند وإيران والعراق وبلاد الشام ، وتتبع دعاتها والقضاء على كياناتها السياسية، وإرغام معتنقيها على التخلى عنها ؛ بعد أن زالت سطوتها السياسية ، خاصة بعد حلول الضعف والتدهور بالخلافة الفاطمية بمصر ، التى كانت تمثل الخلافة الشيعية الشرعية القائمة ، والتى كانت تدين لها أغلب الفرق الشيعية ، والكيانات السياسية ، المعتنقة لدعوة التشيع ، بالولاء السياسى والعقائدى[1] .

وكان لزامًا على هؤلاء السلاطين السنيين المشارقة ، فى خراسان وإيران والعراق وبلاد الشام ، أن يشغلوا الفراغ الفكرى والعقائدى للدعوة الإسماعيلية ، بفكر سياسى وعقائدى بديل ، يناقض الفكر الإسماعيلى الشيعى ، ويتواءم مع جوهر الفكر السياسى والعقائدى لأهل السنة .

ومن ثم عمد سلاطين المشرق السنيون ـ الغزنويون ومن بعدهم السلاجقة والزنكيين والأيوبيين ـ إلى اعتناق الفكر السياسى والعقائدى للدعوة الأشعرية السنية ، وتعميم وسائل هذه الدعوة ، التى هدفت إلى القضاء على الدعوة الإسماعيلية من جميع أرجاء العالم الإسلامى ، وعلى الخصوص فرعها الأساسى ، المتمثل فى الخلافة الفاطمية بمصر[2] .

والواقع أن أغلب الوسائل التى اتخذها هؤلاء السلاطين ، بإيران والعراق والشام ، ثم طبقها الأيوبيون بمصر ، منذ كانوا وزراء سيوف للخليفة الفاطمى العاضد ، كانت من وسائل الدعوة الأشعرية ، وخاصة المدارس والتصوف ، كما استخدم الأيوبيون أيضًا فى سبيل نشر الفكر السنى بمصر ، جميع النظم الدينية السنية ، التى طبقوها بمصر .

(١) أنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على المذهب الفاطمى ، وبعده الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٢) أنظر بعده ، نفس هذا الفصل الحالى .

استحداث المدارس السنية بمصر :

لقد لاحظ القلقشندى ، أن أول من أحدث المدارس بالفسطاط بنو أيوب[1] ، وأنها كانت في الدولة الفاطمية وما قبلها قليلة الوجود ، بل تكاد تكون معدومة ، ثم جاءت الدولة الأيوبية ، فكانت الفاتحة لباب الخير ، والغارسة لشجرة الفضل[2] ، فى حين لاحظ المقريزى أن صلاح الدين بإنشائه المدارس بمصر ، قد اقتدى بالملك العادل نور الدين الذى بنى بدمشق وحلب وأعمالهما عدة مدارس للشافعية والحنفية ، فبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر ، وكانت أول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضًا ، ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة ، ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر ، وبالبلاد الشامية والجزرية ، أولاده وأمراؤه ، ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم . وقدأفاد المقريزى أن حركة بناء المدارس ظلت نشطة دؤوبة إلى أيامه[3] ، كما تتبع جميع المدارس التى أنشأها الأيوبيون ، وترجم لمنشئيها وأساتذتها ، وحدد أماكنها فى مدينتى القاهرة والفسطاط ، وميز الباقى منها إلى عهده والمندرس[4] . كما قام النعيمى المؤرخ الدمشقى ، بالتأريخ للمدارس التى أنشأها الأيوبيون بدمشق والترجمة لمنشئها

(١) القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ ، س ٢٠ - ٢١ .
(٢) نفس المصدر : ج ٣ ، ص ٢٦٢ ، ص ١٥ .
(٣) أنظر المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ ، أنظر قبله .
(٤) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٩٣ - ٢٠٠ ، وهى المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق ، ثم عرفت بمدرسة زين التجار ، وقد بناها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ وجعلها برسم الفقهاء الشافعية . يقول المقريزى : وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة وهى أول مدرسة عملت بديار مصر (الخطط ج ٤ ص ١٩٣ س ١٧ - ١٩) والمدرسة القمحية بجوار الجامع العتيق بمصر ، وكان الشروع فيها للنصف من المحرم سنة ٥٦٦هـ . ورتب فيها أربعة من المدرسين ، عند كل مدرس عِدّة من الطلبة ، وهى أجل مدرسة للفقهاء المالكية (الخطط ص ١٩٣ - ١٩٤) ومدرسة يازكوج ، ومدرسة ابن الأرسوفى ، ومدرسة منازل العز ، وقد بناها الملك تقى الدين عمر بن أخ صلاح الدين ، كما بنى بمدينة الفيوم مدرستان إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية ، وبنى مدرسة بمدينة الرها ببلاد الجزيرة الفراتية (الخطط ، ج ٤ ، ص١٩٤ - ١٩٥) ومدرسة العادل ومدرسة ابن رشيق والمدرسة الفائزية والقُطبية والسيوفية ، أوقفها صلاح الدين على الحنفية ورتب لمدرسها مجد الدين الجبتى فى كل شهر أحد عشر دينارًا وباقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم وهذا ما نقله المقريزى من وَقْفِيَّة المدرسة التى ترجع إلى عصر صلاح الدين ومؤرخه بسنة ٥٧٢هـ وأفاد المقريزى أن هذه المدرسة هى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر (الخطط ٤: ١٩٦ - ١٩٧) ومحلها اليوم جامع الشيخ مطهر ، أثر رقم ٤٠ شارع المعز لدين الله ، والمدرسة الأفضلية وقفها القاضى الفاضل على الشافعية والمالكية (الخطط ٤: ١٩٧ - ١٩٩) والمدرسة الأزكشية والمدرسة الفخرية والمدرسة السيفية والمدرسة العاشورية والمدرسة القطبية ، وأنظر عن المدرسة الصالحية المقريزى : الخطط ٤: ٢٠٩ - ٢١١ والمدرسة الكاملية ، الخطط ٤: ٢١١ - ٢١٦ .

ومدرسيها[1] ، وقد حدد ابن واصل تاريخ بداية إنشاء صلاح الدين للمدارس بمصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، إبان وزارة صلاح الدين للعاضد ، وفى رأى المقريزى ، أن إنشاء المدارس السنية بمصر ، كان من أعظم ما نزل بالدولة الفاطمية[2] .

ولحسن الحظ فقد وصل إلينا وصفًا شائقًا دقيقًا لحركة بناء المدارس وترتيب الأساتذة والمدرسين والقومة عليها ، وتوفير الرعاية الصحية لطلابها وخاصة من الغرباء ، إلى جانب وقف الأوقاف الكثيرة ، للصرف على منشآت هذه المدارس وأساتذتها والمشرفين عليها ، على لسان شاهد عيان زار مصر فى مطلع العصر الأيوبى ، وهو الرحالة المغربى الشهير ابن جبير الأندلسى ، الذى زار مدارس الإسكندرية التى أنشأها صلاح الدين هناك ، وخصصها لطلاب العلم الوافدين من بلاد الأندلس والمغرب ، ووفر لهم فيها المساكن والحمامات والبيمارستانات « المستشفيات » ، كما وفر لهم الأساتذة والأطباء وأجرى عليهم الأرزاق والمرتبات والوجبات الغذائية اليومية[3] والطريف ما لاحظه

(١) أهم المدارس الشافعية التى أسسها الأيوبيون بدمشق ، هى : المدرسة الصلاحية بالقرب من البيمارستان النورى بانيها نور الدين زنكى ونسبت إلى صلاح الدين (النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ١: ٣٣١ - ٣٣٣ ، والمدرسة العمادية الصلاحية وهى مختلف فيها ، قيل بناها نور الدين زنكى وقيل بل ابنه عماد الدين اسماعيل والواقف عليها صلاح الدين وأول مدرس بها العماد الأصبهانى كاتب الإنشاء لنور الدين ثم لصلاح الدين (النعيمى ١: ٤٠٧ - ٤١٣) المدرسة الأسدية أنشأها أسد الدين شيركوه الكبير (النعيمى ١: ١٥٢ - ١٥٧) المدرسة الإقبالية بناها جمال الدين إقبال الشرابى ، حاجب نور الدين ثم صلاح الدين (نفسه ١: ١٥٨ - ١٦٦) المدرسة العزيزية لصيق الجامع الأموى ، أول من أسسها الملك الأفضل ابن صلاح الدين ، ثم أتمها الملك العزيز أخوه ونقل إليها رفات والده فى قبة جوارها (نفسه ١: ٣٨٢ - ٢٩٨) ولقد درس فيها سيف الدين الآمدى المتكلم الأشعرى الشهير طوال فترة استقراره فى بلاد الشام (نفسه ١: ٣٩٣ - ٣٩٨) المدرسة العادلية الكبرى وأول من بناها نور الدين ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب ثم أتمها ابنه المعظم عيسى ودفن فيها أباه ونسبها إليه (نفسه ١: ٣٥٩ - ٣٦٧) المدرسة العادلية الصغرى (ص ٣٦٨ - ٣٨٢) المدرسة العصرونية (١ : ٣٩٨ - ٤٠٦) المدرسة الأتابكية (١: ١٢٩ - ١٥٠) وأهم المدارس التى أنشأها الأيوبيون لفقراء الحنفيه بدمشق فهى المدرسة الأسدية (١: ٤٧٣) المدرسة الإقبالية (١: ٥٤٩ - ٥٥٠) أما أهم المدارس المالكية التى أنشأها الأيوبيون بدمشق فهى المدرسة الصلاحية (٢: ١٠ - ٢٨) ومدرسة العالمة (٢ : ١١٢ - ١١٣) والمدرسة الصالحية (٢ : ٧٩ - ٨٦) .

(٢) قال ابن واصل فى حوادث سنة ٥٥٦هـ : وفى هذه السنة حرر صلاح الدين دارًا كانت للمعونة بمصر مدرسة للشافعية ولم يكن بمصر للشافعية ولا لغيرهم مدرسة لأن الدولة كانت اسماعيلية ولم يكن لهم مَيْل إلى شىء من هذه المذاهب ثم بنى رحمه الله - دار الغزل ، مدرسة للمالكية (ابن واصل : مفرج ١ : ١٩٧ - ١٩٨) ويتضح من هذا النص أن بناء المدارس السنية ، كان عملاً مناقضًا للدعوة الإسماعيلية . وهذا النص بالإضافة إلى نص المقريزى المتقدم بأن بناء المدارس إبان وزارة صلاح الدين للفاطميين ، كان من أعظم ما نزل بالدولة الفاطمية يؤكد كون إنشاء المدارس السنية بمصر كان أحد وسائل الدعوة السنية ومن أهم عوامل نشر السنة بمصر ، وانقراض المذهب الإسماعيلى منها .

(٣) يقول ابن جبير عن مدينة الأسكندرية : ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه : المدارس والمحارس (أى الروابط ، أنظر بعده) الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية =

الدارسون المحدثون ، ونصت عليه المصادر القديمة ، من أن الأيوبيين هم أول من عين المرتبات الثابتة للأساتذة والمعيدين ، فى المدارس السنية التى أنشأوها بمصر[1] ، كذلك ترك لنا ابن جبير وصفًا شائقًا لكيفية سير العمل فى بناء مدرسة الإمام الشافعى بالقرب من ضريحه ، ومدى اهتمام صلاح الدين والفقيه الخبو شانى بإظهار هذه المدرسة ، كأحسن ما تكون عمارة وروعة وضخامة[2] .

وثمة ملحوظة هامة أبداها بعض الباحثين المحدثين ، تتعلق بأماكن المدارس التى شيدها صلاح الدين بمصر والقاهرة ، وهى أنها كانت مجاورة لأماكن العبادة والتبرك القديمة عند المصريين مثل جامع عمرو وضريح الشافعى والمشهد الحسينى ، مما يوحى بأن صلاح الدين قد حاول ربط المدارس السنية بالجديدة بأماكن العبادات التى لها الاحترام فى نفوس المصريين ، فضلاً عن إكساب الشهرة لمدارسه نتيجة لارتباطها بأسماء هذه الأماكن[3] ولازالت بعض المدارس التى شيدها الأيوبيون بمصر والشام باقية إلى اليوم[4] .

= فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوى إليه ومدرسًا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، وإجراء (مرتب) يقوم به جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانًا لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضًا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكلفوا بمعالجتهم .. راجع النص بأكمله لأهميته عند ابن جبير : الرحلة (١٥ - ١٦) .

(١) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ فكانت أجور المدرسين بالمدارس فى أيام صلاح الدين ، أربعون دينارًا للمدرس ، وعشرون دينارًا للعميد ، وكل يوم له ستون رطلاً من العيش وأنظر القفطى تأريخ الحكماء ، ص ٩٨ .

(٢) راجع ابن جبير : الرحلة ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣) عبد الغنى عبد العاطى : التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير جامعة القاهرة ، ١٩٧٥، ص ٥٧ .

(٤) أنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ٥٦٧هـ / ٦٤٨هـ (دراسة مقارنة بمصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر المماليكى ، مع ترجمة ونشر ١٤ وثيقة أيوبية من الأرشيفات الإيطالية، تنشر لأول مرة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، والجدير بالملاحظة أن الأيوبيين قد اتخذوا من إنشاء المدارس وسيلة لإعادة نشر الإسلام وعلوم الدين فى البلاد التى تم استردادها من أيدى الصليبيين ، فبعد استرداد صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٤هـ ، أبطل صلاح الدين الكنائس وأنشأ المدارس للفقراء الشافعية كما أنشأ رباط للصلحاء الصوفية وأوقف عليهما وقوفًا . أنظر العماد : الفتح ص ١٤٥ . وهنا تقتضى الإشارة إلى أن مفهوم كلمة مدرسة فى الإسلام تختلف عن مفهوم المدرسة فى المصطلح المعاصر لنا ، فى الإسلام تعنى بناء خاص يخصص له من الأوقاف والموارد ما يكفى لإطعام وإسكان الطلبة والمدرسين وسواء إذا كانت هذه المدرسة قد تولت إنشاءها الدولة أو الأفراد فقد كان للمدرس الحرية فى اختيار المؤلفات التى يدرسها للطلبة إلا إذا كان من شرط وقفية المدرسة أن تكون مخصصة بنوع من العلوم (علم الحديث مثلاً) أو بمذهب من المذاهب (الشافعى مثلاً) ولم يكن ثمة التزام بالنسبة لحضور جميع العلوم التى تدرس كذلك لم تكن تعطى شهادات للتخرج كذلك لم يكن يشترط سن معين للالتحاق بالمدرسة - معلومة شفوية عن الأستاذ محمود شاكر ؛ وإن لوحظ فى العصر الأيوبى نوع من التدريس الموجه للعلوم الحديث وللفقه السنى ، اعتمادًا على شروط وقفية المدرسة .

ولقد تطورت حركة بناء المدارس بمصر طوال العصر الأيوبى ، سواء من ناحية تخصصات هذه المدارس ؛ أو من ناحية التخطيط المعمارى الهندسى ، أو من ناحية التنظيم الإدارى ، الخاص بالإشراف على المدرسة . أو من ناحية تسجيل مواقيت الحضور والانصراف للطلبة ، وتسجيل أسماء المتخلفين عن الحضور ، والإشراف على مرافق المدرسة ، وتعيين متخصصين للإشراف على مكتبتها العامة ، ومتخصصين للإشراف على التأذين لإقامة شعائر الصلوات الخمس في أوقاتها[1] . ويبدو أن سلك الترقى كما عرف فى أوربا فى أكاديميات عصر النهضة ، وكما انتقل إلى جامعاتنا الحديثة ، قد تبلور فى صورته الأخيرة التى نقلتها أوربا عن المدارس السنية التى أنشأها الأيوبيون بمصر . فنسمع عن سلك أكاديمى يأتى على رأسه المنتهى من الفقهاء ثم المدرس ثم المفيد ثم المعيد[2] ؛ وأغلب الظن أن الصورة النهائية لبناء المدارس ، بتصميمها الهندسى القائم على الأيوانات الأربع المبنية ، قد تبلور ونضج واستقر بمصر ، فى نهاية العصر الأيوبى ، استجابة للحاجة التى أملت إنشاء مدارس سنية تجمع المذاهب الفقهية الأربعة الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية ، وقد وضح هذا فى مدرسة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، القائمة إلى اليوم بحى الصاغة بمدينة القاهرة[3] . وغنى عن البيان أن الأيوبيين قد أنشأوا المدارس السنية ، لتحل محل الجامع الأزهر ، الذى كان بمثابة جامعة شيعية ضخمة.

إنشاء دار الحديث :

وواكبت حركة إنشاء المدارس الفقهية بمصر فى العصر الأيوبى ، ظاهرة على قدر كبير من الأهمية ، وهى إنشاء مدارس متخصصة لدراسة علوم الحديث عرفت بدار الحديث . وكان السلطان الملك الكامل محمد ، ـ من أعظم سلاطين الأيوبيين ؛ وأشهر من عرف عنه العناية بالعلوم وتشجيعها ـ ، هو أول من أنشأ دارًا للحديث بمصر . وأسند التدريس فيها للمحدث الأندلسى الشهير ابن دِحْيه الكلبى[4] . والمعروف أن أول من أنشأ دار للحديث بالشام كان نور الدين زنكى[5] . ولا ريب أن المدرسة الكاملية التى أنشئت بمصر كدار للحديث النبوى ، ولازالت إطلالها باقية إلى اليوم[6] ، قد بنيت على غرار دار الحديث النورية بدمشق ، لنفس الهدف الذى شيدها من أجله نور الدين ، وهو نشر علوم السنة كوسيلة لمحاربة الدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام ، وقد أنشأ

(١) أنظر السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ .
(٢) نفسه : ص ١٠٥ – ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٨ –١٠٩ ، ١١١ ، ٦٧ – ١٠١ ، وعن التدريس للصغار فى الكتاتيب أنظر الشيزرى : نهاية أرتبه ص ١٠٣ – ١٠٥ .
(٣) أنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، ص ١٧٣ – ١٩٠ (آثار الدولة الأيوبية) .
(٤) عن المدرسة الكاملية والسلطان الكامل ، وابن دِحْيَه الكلبى ، أنظر المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ٢١١ – ٢١٦ .
(٥) أنظر النعيمى : الدارس ، ج ١ ، ص ٩٩ – ١١٣ .
(٦) راجع أحمد فؤاد سيد : المرجع السابق ص ١٧٣ – ١٩٠ (آثار الدولة الأيوبية) .

الأيوبيون ببلاد الشام أيضًا دارًا ضخمة أخرى للحديث بدمشق هي دار الحديث الأشرفية[1] التي أنشأها الملك الأشرف موسى أخو الملك الكامل وعهد بأستاذيتها إلى المحدث الكردى الشهير تقى الدين ابن الصلاح[2] ، وهو صاحب أشهر كتاب ألفه المتأخرون فى علم مصطلح الحديث ، أى فنون الحديث وعلومه ، وهو الكتاب المعروف باسم « مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث » ، ولقد صرح ابن الصلاح فى هذا الكتاب أن علوم الحديث كانت قد قل الاهتمام بها فى عصر الفاطميين ، مما دعاه إلى التأليف فيها[3].

ولا شك أن فكرة إنشاء دار للحديث بمصر ، كان الغرض منها إحياء علوم السنة النبوية القائمة على الرواية والنقل والإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، كوسيلة لمحاربة المذاهب الفلسفية التى روج لها الفاطميون من قبل فى « دار الحكمة »[4] .

(١) أنظر النعيمى : الدارس ١ : ١٩ - ٤٧ ، ٤٧ - ٥٥ وأنظر أيضًا عن دور الحديث التى أنشأها الأيوبيون بالشام ، دار الحديث الفاضلية ، النعيمى ١ : ٨٩ - ٩٦ ، ص ١١٥ - ١٢٢ .

(٢) أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات ١ : ٣١٢ (الطبعة القديمة) ، طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ١٣٧ (الطبعة القديمة أيضًا) .

(٣) صور لنا ابن الصلاح فى مقدمته لعلوم الحديث كيف أن علوم الحديث عند مجيء الأيوبيين كانت فى شبه محنة بحيث قال ابن الصلاح : " لقد كان شأن الحديث فيما مضى عظيمًا عظيمة جموع طلبته ، رفيعة مقادير حفاظه وجملته .. فلم يزل حملته فى انقراض ولم يزل فى اندثار ، حتى آلت به الحال إلى أنصار أهله إنما هم شرذمة قليلة العدد ، ضعيفة العدد (أنظر مقدمة ابن الصلاح - خطبة الكتاب) ، وعن أحوال علوم الحديث فى العصر الفاطمى بمصر ، أنظر قبله ؛ ولقد وصفه ابن خلكان بقوله : مكان أحد فضلاء عصره فى التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة وهو أحد أشياخى الذين انتفعت بهم ، وكان من جلة مشايخ الأكراد المشار إليهم (ابن خلكان : وفيات ، ج ٣ : ص ٢٤٣ من طبعة بيروت) .

(٤) عن دار الحكمة الفاطمية أنظر المقريزى : الخطط ج ٢ : ص ٣٣٢ - ٣٣٥ .

ونظرًا لموقف الفاطميين من علم الحديث ، نظرًا لتحفظهم فى الرواية إلا عن ائمتهم من الشيعة للعداوة السياسية بينهم وبين أهل السنة ، وهذا ما شرحه بالتفصيل القاضى النعمان فى أحد فصول كتابه دعائم الإسلام ، ونظرًا لتأثرهم بفكر المعتزلة التى كان بعض مشايخها يرى فى علم الحديث ، أخبار آحاد ؛ تدهورت علوم الحديث فى عصرهم بعض الشيء ، رغم أن كتابى ابن الحبال وابن الطحان عن محدثى مصر فى العصر الفاطمى عامر بتراجم الحفاظ والمحدثين وكذلك كتابى مُشْتَبَه النّسبَة والمؤتلف والمختلف للحافظ عبد الغنى المقدسى .

– لذا فقد شهد العصر الأيوبى بمصر والشام ، حركة علمية ضخمة سعت إلى نشر علوم الحديث والسنة النبوية ، ونبغ فى هذا العصر عدد من كبار حفاظ الإسلام الذين ألفوا فى شتى علوم الحديث وعلى رأسهم ابن عساكر الدمشقى ت ٥٧١هـ ، وابن الصلاح ، والنووى ، والمنذرى ، والذهبى ، وابن كثير . (راجع حسن المحاضرة للسيوطى ، باب ما كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده ، وباب من كان بمصر من المحدثين ممن لم يبلغ درجة الحفظ) ؛ ويبدو أن نهضة علوم الحديث فى العصر الأيوبى ، هى امتداد لحركة الإصلاح السنى السلجوقى ، التى كانت قاعدتها بلاد العراق .

قصر القضاء على المذهب الشافعي وبسط إشرافه على المدارس :

وكما أقدم صلاح الدين ، وهو وزير للخليفة العاضد الفاطمي ، له الإشراف على شئون الدعوة الفاطمية بمصر ، لكونه « هادى دعاة المؤمنين » على مناقضة عهود ومواثيق العاضد ، في رعاية دعوته ، بأن عمل على محاربتها بإنشاء المدارس السنية ؛ فلقد قرن صلاح الدين ، إنشائه للمدارس السنية بمصر ، ومحاربته للدعوة الإسماعيلية ، بإزالة القضاء الشيعي من مصر ، وتفويض القضاء بالديار المصرية ، إلى قاضي شافعي المذهب في الفقه ، أشعري العقيدة في أصول الدين ، كردى الجنس ؛ ولا ريب أن صلاح الدين بهذا العمل قد ناقض أيضًا عهود مواثيق العاضد ، وما فوضه إليه من تفويض أمر القضاء الشيعي بمصر ، لمن ينهض به من فقهاء الشيعة ، لكونه كوزير فاطمي « كافل قضاة المسلمين »[1] . ففي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، فوض صلاح الدين القضاء بالديار المصرية إلى قاضي القضاه صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الشافعي ، فجعل صدر الدين القضاه في سائر الديار المصرية شافعية ؛ فاشتهر مذهب الشافعية ، واندرس مذهب الفاطمية

= - ولا شك أن هذه النهضة في علوم الحديث التي شهدها العصر الأيوبي بمصر والشام ؛ هي التي تفسر ظهور طائفة من كبار حفاظ الإسلام بمصر والشام في العصر المملوكي ، فظهر بمصر زين الدين العراقي ، ونور الدين الهيثمي ، وابن حجر العسقلاني ، وشمس الدين السخاوي ، وجلال الدين السيوطي ، وشهاب الدين القسطلاني وغيرهم ، وظهر بالشام ابن ناصر الدين الدمشقي حافظ الشام في عصره كما وصفه السخاوي في الضوء اللامع . وقد ذكر السخاوي في كتابه استجلاب ارتقاء الغرَف بحب أقرباء الرسول وذوى الشرف إن لديه من مَسانيد آل البيت مُجلدات ضخمة تفوق الحصر ، وإن أصح أسانيد آل البيت عن جعفر الصادق رضي الله عنه ، بشرط أن يكون الراوى عن جعفر ثقة .

- ويستفاد من مقدمة الحافظ زكي الدين المنذرى لكتابه مختصر سنن أبي داود ، أنه قد أقدم على اختصار الكتب الستة الصحاح ، بادئًا بصحيح البخارى ثم صحيح مسلم ثم سنن الترمزى ، بهدف إملاء هذه المختصرات وتدريسها لطلبة العلم من طلاب مدرسة دار الحديث الكاملية بمصر . كما يستفاد من مقدمة الحافظ ابن الصلاح لكتابه مقدمة في علوم الحديث ، أن علوم الحديث قد شهدت تدهوراً في العصر الفاطمي .

ودار الكتب المصرية ، ومكتبة الجامع الأزهر بمصر ، والمكتبة الظاهرية بدمشق ، والمكتبة الوطنية بتونس ؛ هذه المكتبات على الخصوص لا تزال إلى اليوم عامرة بعدد كبير من مخطوطات كتب الحديث التي ألفت في العصرين الأيوبي والمماليكي بمصر والشام ، وظلت تدرس بمدارس مصر الأيوبية والمماليكية ، والجامع الأزهر بمصر ، وبمدارس الحديث بالشام ، وبجامع الزيتونة بتونس ؛ كما أن عددًا ضخمًا من هذه المؤلفات قد تم نشره بالفعل ويمثل جانبًا له أهميته بل لا يستغنى عنه ضمن كتب مصطلح الحديث وشرح وتفسير الحديث ، وكتب الزوائد ، وكتب الجرح والتعديل ونقد الرجال .

كذلك امتدت هذه النهضة الخاصة بنشر علوم الحديث والسنة إلى بلاد العراق في ظل الخلافة العباسية السنية ، فظهر الإمام أبو الفرج ابن الجوزى الحنبلي البغدادى سنة ٥٩٧هـ .

(١) أنظر قبله ..

بالكلية ، وانمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به[1] ، وقام ابن درباس بعزل سائر القضاه ، واستناب قضاه شافعية ، فتظاهر الناس من تلك السنة بمذهب مالك والشافعي .. ، واختفى مذهب الشيعة إلى أن نُسي من مصر[2] .

وتأكيدًا لسرعة تطبيق وتعميم الفقه السني بمصر ، سواء في الحياة اليومية في الأسواق ، أو في المصالح الحكومية ، وكذلك لنشر الفقه السني بين المصريين المترددين على المساجد ، أضافت الحكومة الأيوبية في سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، الخطابة والإحباس والحسبة ودار الضرب ، إلى ولاية القضاء ، وعهد بهذه الولايات مجتمعة إلى قاضي القضاه صدر الدين ابن درباس[3] ؛ وصارت مهمة الإشراف على المدارس السنية ، بل وجلوس قاضي القضاه بنفسه لتدريس الفقه السني في هذه المدارس ، من أهم وظائف قاضي القضاه بمصر ، بحيث تذكر في تقليد تعينه ، كما ورد في تقليد قاضي القضاه ، عين الدولة ابن بندار ، الذى خلف ابن درباس على قضاء الديار المصرية[4] . والمتبع لتراجم

(١) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٩٨ ويعلق الشيال على هذا الحدث بقوله : وهذه النسبة تدل على أن القاضي كردى كصلاح الدين ومن نفس القبيلة التي ينتمي إليها ، وتحويل القضاء في مصر إلى المذهب الشافعي ، وتعيين قاضي قضاه كردى والخليفة الفاطمي لا زال حيًا – إجراء له دلالته السياسية الواضحة . الشيال هامش " ٢ " على مفرج الكروب ، ١: ١٩٨ ، سبط : مرآة ٨: ٢٨٣ ، أنظر ترجمة صدر الدين بن درباس ، عند السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، الطبعة القديمة ٨: ٣٣٧ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ١: ٤٠٨ ، ابن حجر : رفع الأصر ، طبع القاهرة ١: ٣٦٧ – ٣٧٠ ، وفي ترجمة أخيه ضياء الدين ، وقد ناب عنه في القضاء ، عند ابن خلكان : وفيات ٣: ٢٤٢ – ٢٤٣ وأنظر عودته إلى القضاء سنة ٥٩٥هـ ، عند ابن تغرى بردى : النجوم ٦: ١٥٠ – ١٥١ .

(٢) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، ١: ٣٥٨ – ٣٥٩ ، وأنظر أيضًا السيوطي : حسن المحاضرة ، ٢: ١٨٠ وما بعدها . يقول : لما استولى الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب على القاهرة ، وزيرًا عن العاضد ، أزال الرفض والشيعة ، وصرف ابن كامل (أبو القاسم جلال الدين هبة الله ابن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصعدى) ، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردى الشافعي قضاء القضاه بالقاهرة .

(٣) ابن حجر : رفع الأصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١١ – ١٥ .

(٤) جاء في نص التقليد ، الذى صاغه ضياء الدين بن الأثير ، لتوليه زين الدين بن بندار قاضي قضاة للديار المصرية سنة ٥٩٥هـ : " فقد رأينا أن نجمع لك بين تنفيذ الأحكام وحفظ أصولها ، وإلا نخليك من النظر في دليلها ومدلولها ، فإن الترك يوحش العلوم من معهود أماكنها ، ويذهب بها من تحت أقفال خزائنها ، ومنصب التدريس كمنصب القضاء ، أخ يشد من عضده ويكثر من عوده ، فتول المدرسة الفلانية ، عالمًا أنك قد جمعت بين سيفين في قراب ، وسلكت بابين إلى تحصيل الثواب ، وركبت أعز مكان وهو تنفيذ الحكم ، وجالست خير جليس وهو الكتاب " ، (أنظر نص هذا التقليد كاملاً عند السيوطي ، حسن المحاضرة ٢: ١٥٤ – ١٥٩ ، وأنظر نص تقليد قاضي سنجار ، بعد أن ضمها صلاح الدين إلى ممتلكاته عند العماد : البرق الشامي ج ٥ لوحة ٢٨ أ –٢٩ ب، وأنظر منشور لمدرس بحلب من إنشاء العماد: البرق ج ٥ لوحة ٤٦ ب– ٤٨ أ، ومما يفيد تولى ابن درباس لتدريس علوم الفقه لسنوات طويلة ، ما ذكره الأديب المغربي الساخر ركن الدين الوهراني، وهو يسخر من صدر الدين بن درباس : وهو من كوادن المدارس ، له أرجون سنة يقرأ، لا يحفظ مسألة من الفقه ، ولا أية من كتاب الله تعالى (الوهراني : المنامات والمقامات، ص ٥٥ س ٧ – ٨) .

قضاة مصر فى العصر الأيوبى ، ونوابهم فى أقاليم الديـار المصرية يجدهـم جميعًا بـلا استثناء تقريبًـا ، قد جلسوا بأنفسهم للتدريس فى المدارس السنية التى أنشأها الأيوبيون بالقـاهرة والفسـطاط وأغلـب أقاليم الديار المصرية[1] .

وقامت الدولة الأيوبيـة ، منـذ عهـد صـلاح الديـن ، بتفويـض قضـاء الشـام ، لبيتـين مـن كبـار البيوتات السنية ، التى اشتهرت بتولى القضاء والوظائف الدينية منذ عهد نور الدين زنكى ، وهما بيتا الشهر زورى وابن عصرون[2] ، وبهذا تم نشر الفقـه السـنى بمصـر والشـام ، إبـان العصـر الأيوبـى ؛ وغنى عن التدليل ، أن تولى قضاة سنيون ، لمنصب قاضى القضاه فى العصر الفاطمى ، الـذى كـان لـه الإشراف على الدعوة الفاطمية ، وأغلب الظن أن ذلك تـم علـى يـد وزراء التفويـض السـنيين مثـل

(١) جاء فى ترجمة القاضى أبو طاهر الأسوانى ت ٥٩٩ أنه : أقام بأسوان حاكمًا ومدرسًا (السـيوطى : حسـن : ١ : ٤٠٨ الأدفوى : الطالع السعيد ص ٩٦) ، وفى ترجمة ابن الخراط الدمياطى ت ٦١٩هـ أنه تميز فى الفقه والخلاف ، ورجع إلى بلده فأقام بها قاضيًا مدرسًا ثم ولى قضـاء مصـر والوجـه القبلـى (السـيوطى : حسـن : ١ : ٤١٠) وفى ترجمة عماد الدين بن عصرون الكردى ت ٦٢٠هـ ، أنه قدم مصر ، فتولى قضاء دمياط ، ثم نـاب بالقـاهرة ودرس بالجامع الأقمر وغـيره (السـيوطى : ١ : ٤١٠ – ٤١١) وفـى ترجمـة صـدر الديـن موهوب الجزرى . ت ٦٦٥هـ ، أنه : تخرجت به الطلبة ، وجمعت عنه الفتاوى المشهورة ، وولى القضاء بمصـر (السيوطى ١ : ٤١٥) وفى ترجمة نجم الدين الخضراوى ت ٦٦٢ أنه : تولى قضاء أسيوط وتدريـس الفائزيـة بها (السيوطى ١: ٤١٥ – ٤١٦) وفى ترجمة شيخ الشيوخ ، صدر الديـن بـن شـيخ الشـيوخ ابـن حمويـه ، أنه : أفتى ودرس ، وولى تدريس الشافعى والمشهد الحسينى ومشيخة سعيد السعداء ، (السيوطى ١: ٤٩٧) وجاء فى ترجمته إسماعيل ابن قاضى القضاه عبد الملك ابن درباس ت ٦٢٤هـ أنه ناب عن والده فـى القضـاء ودرس بالسيفية بالقاهرة (الصفدى : الوافى ، ٩ : ١٥٣ ترجمة ٤٠٥٨) .

(٢) سبط : مرآة ، ج ٨ ص ١٢١ ، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ ، ص ٣٤٠ – ٣٤٢ ، أبو شامة ، الروضتـين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧١ – ٦٧٥ . حيث يقول نقلاً عن العماد الأصفهانى : كان السلطان لإحياء القضاء فى البيت الزكوى مؤثرًا ، وذلك بعد أن استعفى من القضاء ، القاضى ضياء الدين الشهرزورى الذى تولاه منـذ العصـر النورى ، وفى نفس هذه السنة سنة ٥٧٢هـ ، وهى التى سيطر فيها صلاح الديـن علـى أغلـب بـلاد الشـام ، وقف صلاح الدين قرية من قرى حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليـه الفقيـه أو لمن يحضر لسـماع الدروس بالزاوية الغربيـة مـن جـامع دمشـق وعلـى مـن هـو مدرسـهم بهـذا الموضـع مـن أصحاب الإمام الشافعى ، وجعل النظر لقطـب الديـن النيسـابورى . ثـم أضـاف أبـو شـامة : ورأيـت كتـاب الوقوف بذلك على هذه الصورة وعليه علامة السلطان رحمـه اللـه ، الحمـد للـه وبـه توفيـق ، أنظـر الروضتـين ص ٦٧٥، وعن نشاط تدريس علوم السنة بالجامع الأموى بدمشق ، فى عصر صلاح الدين ، أنظر ابن جبـير: الرحلة ص ٢٤٤ – ٢٤٥ ، وعن المنشآت التعليمية والخيرية بدمشق فى العصريـن النـورى والصلاحـى أنظـر أيضًا ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٥ – ٢٥٧ . وعن اقـتران وظيفـة التدريـس ببـلاد الشـام مـع وظيفـة قـاضى القضاه ، جاء فى ترجمة يونس بن بدران المعروف بجمال الدين المصرى ت ٦٢٣ ، أنه ولد بمصر سنة ٥٥٥هـ وسمع من السلفى وغيره ، واختصـر الأم للشـافعى ، وولى قضـاء الشـام ، ودرس التفسـير بالعادليـة بدمشـق (السيوطى : حسن ١ : ٤١١) .

ابن السلار وشيركوه وصلاح الدين ، أو قليلي الولاء للمذهب الفاطمي مثل المأمون البطائحي ـ ، كان من أقوى أسباب ضعف الدعوة الفاطمية بمصر ، في النصف الثاني من العصر الفاطمي[1] .

(١) قال السيوطي : وفي القرن الرابع الهجري ، ملكت العبيديون مصر ، وأفْنُوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة ، مثلاً ونفيًا وتشريدًا ، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة ولم يزالوا منها إلى أواخر القرن السادس ، فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب (السيوطي : حسن ١: ٤٨٠) ، ولكن لا شك أن في هذا القول تعصب ضد الفاطميين وإنكارًا لتسامح الفاطميين تجاه المذاهب الفقهية السنية بمصر ، خاصة وأن الفقه الإسماعيلي نفسه لا يخالف فقه أهل السنة إلا في مسائل نادرة جدًا ، أصلها الخلاف حول نظرية " الإمامة " بين السنة والشيعة ، (أنظر محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ١٢ - ١٣ ، وأنظر ماجد : نظم الفاطميين ١ : ١٣٦ حيث يذكر أنه في عهد المعز ترك أبو الطاهر الذهلي في وظيفة القضاء في ظل النظام الفاطمي الجديد ، رغم أنه تولى القضاء منذ العصر الأخشيدي وبالرغم من أنه مالكي المذهب ، كما أقام المعز بمصر مع هذا القاضي قضاة شيعة جاءوا مع المعز من المغرب مما يبرهن على تشابه التشريعيين السني والشيعي . (أنظر : ماجد نفس المرجع ص ١٣٦) . والواقع أن عبارة السيوطي سالفة الذكر لا يخفى فيها التعصب والكراهية للفاطميين ؛ ولقد أنصف القلقشندي حين ذكر أن الفاطميين تركوا مذاهب مالك والشافعي ظاهرة الشعار في مصر . أنظر القلقشندي : صبح ج ٣ ، ص ٥٢٤ . وعن تسامح الفاطميين مع أهل السنة طوال عصرهم أنظر نصوص هامة أوردها كل من المؤرخين السنيين المصريين الذين عاصروا حكم الفاطميين بمصر وهما ابن الطحان وابن الحبال ، ونص أورده القفطي وهو مؤرخ مصري عاصر سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية خاص بأسرة شيث الإسنائي التي تظاهرت بالمذهب المالكي طوال العصر الفاطمي دون معارضة من الدولة . وراجع ما ذكرته المصادر عن مدرسة السلفي ومعجم السفر للحافظ السلفي ، و عن أسرتي ابن قريش المخزومي ، والنابلسي .

غير أن تولي قضاء على غير المذهب الإسماعيلي ، منصب قاضي القضاه بمصر ، تم في نهاية العصر الفاطمي كعمل سياسي الغَرَض منه القضاء على الدعوة الإسماعيلية التي تندرج ، تحت إشراف وتوجيه قاضي القضاه . حدث ذلك في سنة ٥٢٥ ، على يد الوزير أبو أحمد علي بن الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي الملقب كتيفات . الذي رتب في الحكم أربع قضاه ، يحكم كل قاضي بمذهب ، ويورث بمذهبه ، فكان قاضي الشافعية سلطان بن رشا ، وقاضي المالكية أبا محمد عبد المولى بن الليثي ، وقاضي الإسماعيلية أبا الفضل ابن الأزرق ، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل ، ولم يسمع بمثل هذا في الإسلام (أنظر : تقي الدين المقريزي : المنتقى من اخبار مصر لابن ميسر ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨١ ، ص ١١٤ - ١١٥ وقد نقل عنه هذا النص السيوطي: حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ، س ١١ - ١٧.
ويخبرنا السيوطي أنه في سنة ٥٣٣هـ ، شغرت مصر من قاضي ثلاث أشهر ، فعرض القضاه على أبي العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحطيئه اللخمي القاسر ، فاشترط ألا يقضي بمذهب الدولة ، فأبوا وتولى غيره . السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ٤٥٣ ، القفطي : انباه الرواه ، ١: ٣٩ ، وحين تولى القاضي مجلي المخزومي لمنصب قاضي القضاه بمصر ، رغم أنه شافعي المذهب ، إبان وزارة العادل بن سلار ، وزير التفويض السني الكردي ، أنظر الذهبي : العبر ، ج ٤: ١٤١ . كذلك كان المؤرخ المصري ، القاضي القضاعي ، سني المذهب وتقدم في الدولة الفاطمية ولكن يبدو أنه كان يظهر التشيع للفاطميين . (أنظر محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ١١٢ - ١١٣ . وعن الإصلاحات السنية التي قام بها وزير التفويض الفاطمي المأمون البطائحي ، بالنسبة للنظم القضائية بمصر ، استجابة لتوجيهات الفقيه السني الطرطوشي ، أنظر قبله .

قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وإبطال تدريس الفكر الفاطمى به :

وما لبث صلاح الدين في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م أن وجه للدعوة الفاطمية بمصر ، طعنة قاتلة ، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها ، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر ، الذى اتخذه الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الإسماعيلية[١] . وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس ، فعمل بمقتضى مذهبه ، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد ، كما هو مذهب الإمام الشافعي ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمى من أجل أنه أوسع ، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام ، من ذلك التاريخ ، إلى أن أعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس[٢] .

وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة ، بإزالة الشعائر الشيعية ، التى أدخلها الفاطميون إلى مصر ، واستمرت بها طوال عصر دولتهم ، من الآذان ، وإبان إقامة الصلاوات ، فأبطل من الأذان قول (حي على خير العمل) ، وصار يؤذن فى سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة ، وفيه تربيع التكبير ، وترجيع الشهادتين ، فاستمر الأمر على ذلك إلى أن انتشر مذهب أبى حنيفة بمصر فى العصر المماليكى ، فصار يؤذن فى بعض المدارس التى للحنفية بأذان أهل الكوفة ، وتقام الصلاة أيضًا على رأيهم ، وما عدا ذلك ، فقد استمر الأذان بمصر كما أقره صلاح الدين[٣] . ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون فى العصر الفاطمى ، من السلام على الخليفة الفاطمى فى الأذان ، وذلك احترامًا للخيفة العباسى ببغداد ، فجعلوا عوض السلام على الخليفة السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر ذلك قبل الأذان للفجر فى كل ليلة بمصر والشام والحجاز[٤] . وكان الذى أملى هذا التعديل السنى فى الأذان أنه كان ينتحل مذهب الإمام الشافعى ، وعقيدة الشيخ أبى الحسن

(١) يذكر المقريزى أنه بعد بناء جوهر الصقلى للجامع الأزهر فى سنة ٣٦٠هـ ، كانت الجمعة تقام فى جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر ، وجامع القرافه الذى يعرف فى عصر المقريزى بجامع الأولياء ، ثم أن الخليفة العزيز بالله ، ثانى خلفاء الفاطميين بنى فى ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح ، الجامع الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم فى سنة ٣٨٠هـ وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله وبنى جامع المقس وجامع راشده ، فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع كلها إلى أن انقرضت دولة الخلفاء الفاطميين فى سنة ٥٦٧هـ ، فبطلت الخطبة من الجامع الأزهر ، واستمرت فيما عداه . (المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٧) .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، س ١٨ - ٢٥ .

(٤) نفس المصدر ، ٤: ٤٥ س ٢٦ - ٢٩ ، ويذكر سبط ابن الجوزى انه فى سنة ٥٨٢هـ ، دخل سيف الإسلام طغتكين الأيوبى إلى مكة (وكان أمرائها شيعة) ومنع من الأذان بحى على خير العمل ، (مرآة ، ج ٨: ٣٨٨) .

الأشعرى[1] ،وكان تحمس صلاح الدين وقاضيه ابن درباس للعقيدة الأشعرية ، حتى كانا يكفران من خالف اعتقاد الأشعرى ، سببًا فى ترتيبهم المؤذنين لقراءة العقيدة المسماة بـ « المُرشِدَة » الأشعرية ، طوال الليل على المآذن ، بدلاً من تقليد التسبيح طوال الليل على المآذن ، الذى عرف بمصر منذ العصر الطولونى ، وكان يرتب له المؤذنين والقراء من قبل الدولة[2] .

وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم بأمر الله ، على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذًا سنّياً ، يجمع فيه الدعاء للصحابة ، رضى الله عنهم ، وللتابعين ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ولعميه حمزة والعباس رضى الله عنهما ، ويأتى للخطبة لابسًا السواد على رسم العباسية ، وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود ، وعمامة سوداء ، متقلدًا سيفًا . وعند صعوده المنبر ، يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين ، كأنها أيذان بالإنصات ، وفى توسطه أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثالثة . ثم يسلم على الحاضرين يمينًا وشمالاً ، ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتا على أعلى المنبر . وجاء دعاء الخطيب فى تاريخ زيارة الرحالة ابن جبير لمصر ، للإمام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ابن الإمام أبى محمد الحسن المستضىء بالله ابن الإمام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ، ثم لمحيى دولته أبى المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين ، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين[3] .

(١) يقول المقريزى : وأما مصر ، فلم يزل الأذان بها على مذهب القوم (أى الفاطميين) إلى أن استبد السلطان صلاح الدين .. سلطنة ديار مصر ، وأزال الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ ، وكان ينتحل مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وعقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعرى رحمه الله ، فأبطل من الأذان قول حى على خير العمل، وصار يؤذن فى سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة .(الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٦، س ١٨-٢١) .

(٢) يقول المقريزى : ومن حينئذ (عصر أحمد بن طولون) اتخذ الناس قيام المؤذنين فى الليل على المآذن ، وصار يعرف ذلك بالتسبيح ، فلما ولى السلطان صلاح الدين .. سلطنة مصر ، وولى القضاء صدر الدين عبد الملك ابن درباس الهذبانى المارانى الشافعى ، كان من رأيه ورأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى الأصول ، فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده حتى يكفر من خالفه ، وتقدم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا فى وقت التسبيح على المآذن بالليل يذكر العقيدة التى تعرف بالمرشدة ، فواظب المؤذنون على ذكرها فى كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا (الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩) .

(٣) راجع تفاصيل هذا الوصف الشيق للرسوم السنية العباسية للخطبة الجامعة بمصر كما رآها ابن جبير ، فى رحلته (ابن جبير ص ٢٤ - ٢٥) . وثمة ملحوظة هامة أمدنى بها الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب وهى أن المدارس والخوانق الأيوبية كانت مساجد لإقامة الصلوات الخمس ، وليست مساجد لإقامة الخطبة الجامعة يوم الجمعة ، ويؤيد هذا المقريزى عند ذكره لموكب صوفية خانقاه سعيد السعداء ، عند انتقالهم من الخانقاه إلى المسجد الحاكمى لإقامة صلاة الجمعة أنظر المقريزى : الخطط ٤: ٢٧٣ . كما أفادنى الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب أيضًا أن المدارس الأيوبية لم يكن بها منبر ، ولم تقام خطب الجمعة فى هذه المدارس الأيوبية إلا منذ العصر المماليكى ، كما أفادنى الأستاذ عبد التواب أن القلقشندى قد فرق فى كتابه صبح الأعشى ، بين المسجد الخاص بالصلاوات الخمس ، والمساجد التى تقام بها شعائر الجمعة ، قلت : وهكذا فعل النابلسى أيضًا عند حصره لمساجد إقليم الفيوم من واقع ديوان الأحباس ، أنظر النابلسى : إظهار صنعة الحى القيوم ، ص ٢٠ - ٢٢ .

ولدينا نص تقليد بخطابة المسجد الجامع بدمشق ، فى العصر الأيوبى ، من إنشاء ضياء الدين بن الأثير ، يوصى فيه الخطيب ، أن تكون الصلاة طويلة والخطبة قصيرة ، وأن يدعو فى الخطبة للإمام العباسي ، ثم للسلطان الأيوبى ، وإن أمر الصلاة هو أيضًا موكول إلى الخطيب مقرونًا بمهمته ، وبالتبكير يوم الجمعة لوعظ الناس وترتيل القرآن . كما أوصى التقليد متولى الخطابة بأن يحتفل بصلاة الرغائب ، وصلاة النصف من شعبان ، وصلاة التراويح المسنونة فى شهر رمضان ، كذلك أوصى بالاحتفال لمصليات الأعياد ، لكون الناس فى مواظبتها أشد حرصًا من الجمعة ، كما أوصى بأن يذكر الناس فى هذه المصليات بأحسن الأذكار ، ويعرفهم ما يجب عليهم فى ذبيحة الأضاحى وصدقة الإفطار ، ويشوقهم فى العيد الأكبر إلى بيت الله الحرام[1] . ويستشف من مهام الخطبة اهتمام الأيوبيين ، بنوافل الصلاوات ، وخاصة صلاة التراويح ، وهو ما يخالف الشعائر الشيعية ، والجدير بالملاحظة أن الأيوبيين جعلوا الخطابة تابعة لولاية القضاء وإشراف قاضى القضاه[2] .

وحرص صلاح الدين ، على إزالة جميع النقوش والآثار التى تخلد أسماء خلفاء الفاطميين ، على الجوامع الكبرى بمصر ، ففى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، قلع المناطق الفضة التى كان قد عملها الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى صدر المحاريب بجوامع القاهرة ، وخاصة جامع عمرو بن العاص[3] . ومن ناحية أخرى جدد جامع عمرو فى السنة التالية ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ، وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ، ورسم عليه اسمه ، وعمر فى الجامع أغلب أجزائه ، ولقد تتبع المقريزى بالتفصيل إصلاحات صلاح الدين المعمارية فى هذا الجامع[4] . وفى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٢م ، التى كان فيها انتهاء خلفاء الفاطميين ، خلع صلاح الدين المنطقة الفضة من محراب الجامع الأزهر ، وقلع أيضًا المناطق من بقية الجوامع[5] .

وأغلب الظن أن الأيوبيين قد عنيوا ، ـ منذ قدوم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، بهدف الإشراف بنفسه من قبل نور الدين على إعادة شعائر السنة إلى مصر ومحو المذهب الإسماعيلى منها ـ ، على إنشاء عدد كبير من المساجد بمصر ، وترتيب مجالس الوعظ

(١) أنظر نص هذا التقليد بخطابة المسجد الجامع ، بإنشاء ضياء الدين بن الأثير ، فى رسائل ابن الأثير ، تحقيق أنيس المقدسى ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ١٢٤ - ١٢٧ . وعن وظيفة الخطابة كما استقرت فى العصر المماليكى ، أنظر السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١١٢ ، ١١٤ - ١١٥ .
(٢) ابن حجر : رفع الإصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١٥ ، وأنظر قبله .
(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٢ .
(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٣ .
(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

السنى بها . وهذا ما أفادنا به الوهرانى وهو معاصر لهذه الأعوام الحاسمة[1] ، ولقد نسب المقريزى إلى نجم الدين أيوب مسجدًا عرف باسمه ، فى ظاهر باب النصر وهو من أبواب القاهرة ، وذكر أنه أنشأه فى سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، وجعل إلى جانبه حوض ماء للسبيل ترده الدواب[2] . كذلك أشاع الأيوبيون ظاهرة بناء المساجد فى المشاهد والقبور المنسوبة لآل البيت أو للصحابة والأولياء ، بغرض التبرك بها واجتذاب العامة إليها . ويخبرنا ابن جبير أنهم رتبوا على هذه المشاهد القومة ، وأجروا عليهم الأرزاق[3] ، وذلك فى منطقة قبر الشافعى[4] . وفى منطقة القرافة الكبرى[5] .

ويبدو أن مدينة الإسكندرية ، لغلبة المذهب السنى عليها طوال العصر الفاطمى قد حظيت بمزيد اهتمام الأيوبيين عند بنائهم للمساجد ، فبنوا بها عددًا ضخمًا من المساجد رآها ابن جبير عند زيارته للإسكندرية ، وأبدى إعجابه الشديد بآثارها وعظمتها[6] ؛ وربما يكونوا قد أقدموا على بناء المساجد بالإسكندرية ، قبل مصر ، خاصة وأن ظهور المدارس السنية بمصر ، قد ظهر بالإسكندرية منذ وقت مبكر ، كما أن قطع الخطبة الفاطمية والدعوة لبنى العباس قد تمت بالإسكندرية قبل إعلانها بمصر

(١) أنظر الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ١٣ – ١٤ . وعن مجالس الوعظ السنى فى العصر المماليكى ، أنظر السبكى: معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١١٣ – ١١٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ – ٢٧٠ .

(٣) ذكر ابن جبير مشاهد مصر بالقرافة الكبرى ، أنظر الرحلة ، ص ١٩ – ٢٤ : وقد وكل بها قومه ، يسكنون فيها ويحفظونها . والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر ، ابن جبير الرحلة ص ٢٠، س ٢٠ – ٢١ ، ص ٢٢ س ١ – ٢ . ثم يقول : ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، والإجراء على كل موضع فيها متصل من قبل السلطان فى كل شهر ، والمدارس بمصر والقاهرة كذلك وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على الفى دينار مصرية فى الشهر ، وهى أربعة آلاف دينار مؤمنية (ابن جبير : الرحلة ص ٢٤ س ٧ – ١٢) .

(٤) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ٢٢ – ٢٤ .

(٥) أنظر بالتفصيل عن هذه المساجد . المقريزى : الخطط ، ج ٤ : ٣٠٦ ، ص ٣٢١ .

(٦) يقول ابن جبير عن الإسكندرية : وهو أكثر بلاد الله مساجد ، حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكثر والمقلل ، فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد ، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك . وبالجملة فهى كثيرة جدًا تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع وربما كانت مركبة (أى مسجد ومدرسة وغيرهما) ، وكلها بائمة مرتبين من قبل السلطان ، فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية فى الشهر .. ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه . وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان (ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧ ، س ١٠ – ١٨) .

بحوالى أسبوع[1] . ولكن للأسف أن هذه المساجد التى شيدها الأيوبيون بمدينة الإسكندرية ، قد اندرست كلها ولم يبق منها اليوم مسجد واحد ، وأغلب الظن أنها أبيدت كلها إبان حملة القبارصة على مصر فى القرن السابع الهجرى[2] .

والواقع أن نص الوهرانى وابن جبير وكلاهما معاصر لصلاح الدين ، إلى جانب نصوص المقريزى عن مسجد نجم الدين أيوب ، وعن مساجد أيوبية أخرى أنشأها سلاطين بنى أيوب ووزرائهم[3] ، تشكك فيما ذكره الدكتور أحمد فكرى فى أنه لم يجد فى المصادر ذكرًا لأى مسجد أنشأه الأيوبيون[4] .

ومما لا شك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر ، الذى ارتبط باسم السيدة فاطمة الزهراء ، بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، والأم الكبرى التى تفاخر أئمة وخلفاء الفاطميين بالانتماء إليها ، وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر ، الذى ظل طوال العصر الفاطمى أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر[5] ، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة ، وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم ، - إذا أتاحت أهمية مصر بالنسبة للعالم الإسلامى للجامع الأزهر ، أن يصبح أكبر جامعة إسلامية ، بحيث عُدّ شيخ الجامع الأزهر ، شيخًا للإسلام ؛ والواقع أن هجرة علماء أهل السنة ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، من الفسطاط إلى القاهرة ، وجلوسهم لتدريس علوم السنة بالجامع الأزهر ، بالإضافة إلى توافد علماء السنة من العراق وباقى أرجاء العالم الإسلامى[6] وتصديهم للتدريس بالأزهر ، وكان منهم الرحالة العراقى الشهير عبد اللطيف البغدادى[7] - ؛ قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر ، وفى أغلب أرجاء العالم الإسلامى ، واستمر غلبة المذهب السنى على العالم الإسلامى إلى اليوم .

(١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٤ ، وأنظر قبله وبعده .
(٢) راجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ١٧٨ - ١٨٥ .
(٣) انظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٦٦ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ .
(٤) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، الجزء الثانى ، العصر الأيوبى ، دار المعارف بمصر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م ، ص ٤٥ ، والمقدمة ص (و) .
(٥) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٥٥ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٣ - ٢٥ ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ج ١ ، ص ١٨٦ .
(٦) أنظر عبد المتعال الصعيدى : تاريخ الجامع الأزهر ، عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ١١٤ . د. عبد العزيز الشناوى : الأزهر جامع وجامعة .
(٧) عبد اللطيف البغدادى : تذكرة الأسفار .

استخدام الحسبة لإعادة شعائر السنة :

وشأن الدولتين المرابطية والموحدية ، اللتين قامتا فـي أعقـاب زوال السيطرة والنفوذ الفاطمى الشيعى من بلاد المغرب ، واستخدمتا وظيفة الحسبة السنية[1] ، للقضاء على الدعوة الإسماعيلية والتشيع ببلاد المغرب ؛ استخدمت الدولة الأيوبية أيضًا عند قيامها بمصر ، وظيفة الحسبة - وهى الوظيفة التى رتبتها النظم الإسلامية لمراقبة الأسواق والحياة اليومية العامة للتأكد من مطابقتها لأحكام الشريعة - كوسيلة للقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، والتأكد من إزالة الشعائر الشيعية فى الآذان والصلاوات بالمساجد . وفى رأى كل من الدكتور العبادى والعرينى أن عبد الرحمن الشيزرى ، الذى عاصر صلاح الدين وأهدى إليه كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك[2] ، قد ألف كتابه « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » بطلب من صلاح الدين ولمساعدة الحكومة الأيوبية فى مراقبة أرباب الحرف لميولهم للدولة الفاطمية[3] ؛ لذلك حرصت الدولة الأيوبية على إضافة الحسبة فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، إلى جملة ولاية قاضى القضاه بالديار المصرية ، القاضى الكردى ابن درباس[4] . ولما كانت الدولة الأيوبية ، كما مر بنا قد جعلت التدريس والإشراف عليه شريكًا لمهمة فصل الأحكام ومباشرة القضاء بالنسبة لقاضى القضاه[5] ، فإن إشراف القاضى على الحسبة أيضًا يعنى أن الأيوبيين قد جعلوا من منصب قاضى القضاه ، الذى كان له الإشراف الكامل على جميع شئون الدعوة الإسماعيلية فى العصر الفاطمى ، له الإشراف الكامل على تتبع مراحل القضاء على بقايا الدعوة الإسماعيلية بمصر فى العصر الأيوبى ، وفى نفس الوقت الإشراف الكامل على نشر مذهب أهل السنة وعلوم السنة فى أرجاء الديار المصرية .

(١) أنظر إقبال موسى : الحسبة فى المغرب ، مع بعض نصوص خاصة بها ، رسالة مقدمة إلى قسم التاريخ ، كلية الأداب ، جامعة عين شمس ، للحصول على درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى سنة ١٩٦٨ .

(٢) عن دراسة وافية لهذا الكتاب ، راجع الجزء الثانى من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى، تحت الطبع إن شاء الله ، وراجع الأن ، نقد مصادر رسالتنا للماجستير ، التى نوقشت بجامعة عين شمس سنة ١٩٨١م ، وكانت بعنوان نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبى بمصر .

(٣) عبد الحميد العبادى : كتب الحسبة وفائدتها فى وضع المعجمين الوسيط والكبير ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثامن ، سنة ١٩٥٥ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٧ ، وعلى الخصوص ص ٢٢٤ - ٤٢٥ ، الباز العرينى : مقدمة لكتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى ، طبع مصر ١٩٦٥ ، ص ى - ص ك .

(٤) ابن حجر : رفع الأصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١٥ .

(٥) أنظر قبله .

وثمة ملحوظة على قدر كبير من الأهمية ، لاحظها المؤرخ الكبير ابن خلدون ، خاصة بالتطور الذى طرأ على نظام الحسبة فى الإسلام ، مما اقتضى فصلها عن القضاء ، وإندراجها فى وظائف الملك السياسية ، وأفرادها بالولاية ، وذلك لما أنفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظر السلطان عامًّا فى أمور السياسة ؛ إذ قال ابن خلدون عن الحسبة : وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية ، مثل العبيدين (أى الفاطميين) بمصر والمغرب ، والأمويين بالأندلس ، داخله فى عموم ولاية القاضى ، يولى فيها باختياره . ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره عامًّا فى أمور السياسة ، اندرجت فى وظائف الملك وأفردت بالولاية[1] .

ويفسر عبد الحميد العبادى ، هذه الملحوظة الخلدونية ، على أساس أنه منذ ظهور منصب « إمرة الأمراء » فى بغداد سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ، وما تلاه من أنظمة عسكرية استحوذت السلطات الفعلية العامة فى شئون الحكم الفعلية وبقى للخلفاء الإسم والسلطة الروحية فقط ، صادف هذا الحدث السياسى قيام حالة خطيرة فى الأمصار الإسلامية الكبرى ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، مثل غزة وبغداد ودمشق والقاهرة وفاس ومراكش ومدن الأندلس ، إذ غدت هذه المدن العظام مراكز صناعية وتجارية كبيرة وبيئات اجتماعية مختلطة تتزاحم فيها الميول السياسية المتعارضة ، والمذاهب الدينية المختلفة ، الأمر الذى اقتضى من ولاة الأمور ، فى الدول الإسلامية المختلفة ، سهرًا ويقظة ، حتى لا يضطرب حبل الأمن وتعم الفوضى ، خاصة وقد كان معظم أهل الحرف والصناعات ، ذوى ميول سياسية ، ونزعات مذهبية ، وكان كثير من أهل المذاهب الدينية متعصبين لمذهبهم ، مستعدين فى سبيل نصرته لحمل السلاح وإراقة الدماء ؛ وقد ضرب العبادى أمثلة لهذه الصراعات السياسية والمذهبية بين السنة والشيعة ببغداد وبلاد الشام فى القرن الخامس الهجرى ، وبمدينة القاهرة ، بعد أن قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية ، إذ كان هوى كثير من أهل الحرف والصناعة مع الدولة الفاطمية الذاهبة[2]

وأغلب الظن ، أن وظيفة الحسبة ، كوظيفة سياسة مستقلة عن القضاء ، قد اتخذت كوسيلة سياسة لمحاربة المذهب الفاطمى ، وتتبع أنصاره المندسين فى النقابات الصناعية ، على يد سلاطين السلاجقة ، ونوابهم فى حكم بلاد الشام ، الذين عرفوا بالاتابكة ، منذ القرن الخامس الهجرى ، وذلك لاستقواء دعوة الإسماعيلية النزارية فى بلاد إيران والشام فى هذا القرن[3] ، لذلك فإن كتاب

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٦ ، س ٢ – ٥ .

(٢) عبد الحميد العبادى : كتب الحسبة ، ص ٤٢٢ – ٤٢٣ . وأنظر برنارد لويس النقابات الإسلامية ، ترجمها إلى العربية عبد العزيز الدورى ، مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠م أعداد ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ .

(٣) أنظر قبله .

عبد الرحمن بن أبي بكر الدمشقي المعروف بالجويري ، الذى يعد من أقدم كتب الحسبة المشرقية التى وصلت إلينا . كان مؤلفه من كتاب الدولة الأرتقية[1] ، وهم أتابكة السلاجقة ونوابهم فى حكم بلاد الجزيرة الفراتية التى كانت معبر النزارية من بلاد إيران إلى بلاد الشام[2] . وقد وضعه الجوبرى كما يقول فى مقدمته بطلب من السلطان مسعود ، وبناه على ثلاثين فصلاً ، كلها فى التعريف بطرق الغش والتدليس فى الصناعات المختلفة وما يقع من طوائف معينة من الناس - والمقصود أغلب الظن النزارية - من الشعوذة والاحتيال ؛ فلا غرابة أن جمع لأحد المحتسبين فى العصر الأتابكى البورى بدمشق بين نظر الحسبة ونظر الشرطة[3] .

وإذا كان انفصال الحسبة عن القضاء وصيرورتها أداة رقابة وضبط وتنفيذ سريع ، قد أدى إلى اتضاح شخصية المحتسب[4]، فإن إحدى وثائق العصر الأيوبى ، الخاصة بسجل تقليد محتسب[5]، تؤكد لنا أن متولى الحسبة فى هذا العصر - وخاصة فى بلاد الشام التى ظلت الفرق الشيعية والكلامية بها ، تظهر مقاومة مستميتة - ، قد منحته الدولة الأيوبية سلطات ضخمة جدًا ، تجاوزت السلطات التى عرفت للمحتسب من قبل ، وخاصة فى العصر الفاطمى ، على نحو ما شهدت وثيقة خاصة بسجل تقليد محتسب فاطمى[6] .

ولقد اصطلح على تسمية سلطة المحتسب ، وعقوباته التى ينزلها بالمخالفين بـ « التعزير »[7] ، بمعنى توقيع العقوبة على مرتكب إحدى المنكرات ، على أساس الاجتهاد الشخصى للمحتسب الذى

(١) أنظر عبد الرحيم (أو الرحمن) بن عمر الدمشقي الجوبرى : المختار من كشف الأسرار ، المطبعة المحمودية ، القاهرة ، د. ت .
(٢) طه شرف : دولة النزارية ، ص ٢٠٤ .
(٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٧ - ٨ .
(٤) عبد الحميد العبادى : كتب الحسبة ، ص ٤٢٣ .
(٥) أنظر تقليد أنشأه ضياء الدين بن الأثير لمنصب الحسبة ، عند ضياء الدين بن الأثير : رسائله ، تحقيق أنيس المقدسى ، ص ١٣٩ - ١٤٨ .
(٦) أنظر سجل فاطمى بولاية الحسبة ، من إنشاء القاضى الفاضل ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٦٠ - ٤٦٢ .
(٧) عن التعذير ، أنظر الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٩ ، س ١٦ - س ١٨ ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، طبع بمطبعة المؤيد ١٣١٨هـ ، ص ٣٨ - ٤٦ وهو يفرق بين " الحدود " ، و " التعذير "وهو يقرر فى ص ٤٠ أن المحتسب ليس له القتل والقطع ، ثم يضيف أن من أنواع التعزير النفى والتعريب ، وأن التعزير بالعقوبات المالية مشروع أيضًا ، وأنظر أيضًا نفس المصدر ، ص ٤٨ - ٤٩ فصلاً بعنوان : " الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل ".

كان يشترط في اختياره تفقه في علوم الشريعة[1] ، وكانت القاعدة الأساسية في تحديد طريقة «التعذير» ، المبدأ القائل بأن الجزاء على قدر جنس العمل ، وقد كانت سلطة المحتسب في تنفيذ عقوباته ، تسمح له بمعاقبة صاحب الجرم ، بأى عقاب يراه من تشهير أو زجر أو مصادرة للسلعة المغشوشة ، أو إخراج التاجر المتلاعب من السوق ، أو ضربه ضربًا يسيرًا بـ « الدرة »[2] ، وهى آلة الحسبة ، على ألا تتجاوز العقوبة التى يقررها المحتسب ، إطار « التعذير » ، إلى إطار إقامة الحدود الشرعية التى نص عليها الشرع ، بالنسبة للجرائم الكبرى ، مثل السرقة والقتل والزنا ... إلخ . وهى عقوبات ثابتة ، يحكم فيها القاضى ، وينفذها صاحب الشرطة[3] ، بحيث لم تكن عقوبة التعذير تتجاوز الضرب بأى حال من الأحوال .

إلا أننا نجد المحتسب الأيوبى ببلاد الشام ، يمنح حق إقامة الحدود فى الأسواق ، وقتل معتنقى المذاهب الشيعية والكلامية والفلسفية بحد السيف[4] ، وهذا أمر لم يسمع به من قبل بالنسبة لسلطة المحتسب ، وهو إذ دل على شيء ، فعلى مدى المقاومة القوية التى واجهها الأيوبيون من فرق الشيعة وأنصارهم فى بلاد الشام ، لذلك فإننا نجد فى سجل آخر ، خاص بتقليد محتسب أيوبى بمدينة حلب ،

(١) يقول الشيزرى : لما كانت الحسبة أمرًا بمعروف ، ونهيًا عن منكر ، وإصلاحًا بين الناس ، وجب أن يكون المحتسب فقيهًا عارفًا بأحكام الشريعة ، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه . فإن الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، ولا مدخل للعقول فى معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم (نهاية الرتبة ص ٦) .

(٢) يقول الشيزرى : ويتخذ المحتسب له سوطًا ، ودره ، وطرطورًا وغلمانًا وأعوانًا ، فإن ذلك أرعب لقلوب العامة وأشد خوفًا : (الشيزرى : نهاية الترتبة ، ص ١٠ س ١ – ٣ ، و ص ١٠٨ – ١٠٩) .

(٣) أنظر ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ص ٣٨ – ٤٠ ، وأنظر أيضًا ابن تيمية : السياسة الشرعية ، تحقيق على سامى النشار، وأحمد زكى عطية، الطبعة الثانية ١٩٥١، القسم الثانى: "الحدود والحقوق" ص ٦٦ – ١٦٦.

(٤) جاء النص على منح المحتسب سلطة القتل وإقامة الحدود على المنتسبين للفرق المبتدعة المخالفين لعقائد السلف أول أمر فى تقليد المحتسب الذى أورده ضياء الدين يقول : أعلم أن الناس قد أماتوا سننًا وأحيوا بدعًا ، وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعًا ، ونحن نأمرك أن تتصفح أحوال الناس فى أمر دينهم فابدأ أولاً بالنظر فى العقائد ، وأهد فيها إلى سبيل الفرقة الناجية الذى هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هى السلف الصالح الذين لزموا موطن الحق .. ومن عداهم فتشعب دانوا أديانًا ، واتبعوا ما لم ينزل به سلطانًا ، فمن انتمى من هؤلاء إلى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولاً ، وليكن قتله على رؤس الأشهاد (ضياء : رسائله ، ص ١٤٠) وكرر الأمر بعد ذلك بقوله (فإن أبت هذه الطوائف إلا الأضرار فخذهم عند ذلك بحد الجلد . (نفس المصدر ص ١٤١) .

مناشدة للنواب وولاة الشرطة بتقوية يد المحتسب ومعاونته على إنفاذ أحكامه[1] ، في حين كانت هيبة المحتسب الشخصية في الأسواق ، واحترام التجار له ، واستجابه نقبائهم[2] لتوجيهاته ، إلى جانب « أعوان »[3] المحتسب المكلفين بتتبع مظاهر المنكرات وإبلاغه بها ومساعدته في مهامه ، كفيلة بإذعان المدلسين من التجار لعقوباته و « تعذيره » ، طالما كان الأمر متعلقًا بالمخالفات التجارية العادية .

وقد نص سجل تقليد المحتسب ، على البحث عن كتب أهل الملل والنحل ، والفلاسفة والمتكلمين ، والمنتمين إلى الفرق الإسلامية المخالفة في المذهب لأهل السنة والجماعة ؛ وأمر المحتسب بتمزيق وإحراق كتبهم التي ألفوها للدعوة إلى مذاهبهم ، بل ذهب إلى حد القبض على كل من يوجد في بيته مثل هذه الكتب ، والتنكيل والتشهير به[4] ، ولقد خص السجل بالذكر بعض الفرق الإسلامية ، يبدو أنه كان لها خطرها بالنسبة للنظام الأيوبي ، كنظام يقوم على أساس نصرة الدعوة السنية ، ومحاربة الدعوة الإسماعيلية الشيعية ، وما يتعاطف معها من فرق إسلامية أخرى ، بسبب ميلها لقضية الشيعية السياسية ، أو للتقارب العقائدي بينها وبين العقائد الإسماعيلية ، خاصة وأن أغلب الفرق الإسلامية ، المغايرة لمذهب أهل السنة والجماعة ، القائم على ظاهر النصوص ، والاعتماد على العلوم الشرعية النقلية ، تشابه مذهب الإسماعيلية في تؤيل متشابه القرآن ، وتفسير آياته تفسيرات باطنية ، هذا إلى جانب جنوح أغلب هذه الفرق الإسلامية إلى التأثر بالفلسفات القديمة وخاصة الفلسفة اليونانية .

(١) أورد العماد الأصفهاني منشور من إنشائه لمحتسب حلب ، متضمنًا شروط الاحتساب أنظر البرق الشامي - خ ج ٥ لوحة ١٠١ ب - ١٠٤ جاء فيه : وليذع المتلبسين بالتنجيم والشعبذة والكهانة .. وليصن المساجد .. من اتخاذها .. حلقًا لذوي الخرافات وليكف صوت المحدثين في العقائد بما يرتغها (كذا) ، ويقطع عما يطلقها في أغراض السلف الصالح ويولفها .. وسبيل الولاة والأمراء والشحن والنواب معاونية على ما ولينـاه .. وتنفيذ أحكامه .. وموافقته على حبس من يراه .. وإرهاق حد من نبا على الحق ..

(٢) عن وظيفة العريف ، أنظر الشيزري : نهاية الرتبة ص ١٢ - س ٣ - ٧ .

(٣) عن أعوان المحتسب / أنظر نفس المصدر ص ١٠ ، س ٨ - ١٠ .

(٤) جاء في سجل تقليد المحتسب : وما يجده من كتبها التي هي سموم ناقعة لا علوم نافعة ، وأفاع ملففة لا أقوال مؤلفة ، فاستأصل شافتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق ، ولا ينفعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، والكشف عن مكامن أسرارها ، فمن وجدت في بيته ، فليؤخذ جهاراً ، ولينكل به إشهارًا (ضياء الدين ابن الأثير : رسائله ، نشر المقدسي ، ص ١٤٠ س ١٧ - ٢١) . ومن كان ذا مكانة نابهة فلتهبط ، أو شهادة عادلة فلتسقط ، (نفس المصدر ، ص ١٤١ ، س ٣ - ٤) .

فلم يقتصر السجل بإلزام المحتسب بالقبض على الإسماعيلية الذين سماهم بالرافضة ، واتهمهم بالخروج عن الإسلام ، وقيام مذهبهم على العصبية ، والأهواء السياسية المخالفة لجوهر الشريعة والعقيدة الإسلامية ، وإساءتهم للإمام على بن أبى طالب بادعائهم أنه أحق بالخلافة ممن سبقه من الخلفاء الراشدين ، كما اتهم الإسماعيلية أيضًا بوضع الأحاديث الخاصة بولاية على ؛ وأنهم قد أولوا هذه الأحاديث بالباطل لخدمة دعوتهم السياسية[1] ، بل نجد السجل يلزم المحتسب أيضًا بالقبض على القدرية[2] ، والمشبهة والمجسمة[3] ، والقائلين بخلق القرآن[4] ، ثم يأمر السجل المحتسب بعرض التوبة على أتباع هذه الفرق المخالفة لأهل السنة ، فإن أصروا على مذاهبهم فليأمر بجلدهم ، فإن بقوا على إصرارهم ، فليأمر بقتلهم[5] .

ولقد عقد الفقيه السنى ابن تيمية ، فى كتابه عن الحسبة فى الإسلام - الذى ألفه فى العصر المماليكى - فصولاً هامة، ناقش فيها أهمية الاحتساب على من سماهم بأهل «التدليس فى الديانات»،

(١) جاء فى نفس هذا السجل : وأما الفرقة المدعوة بالرافضة ، التى هى لما رفعة الله خافضة ، فإنهم أناس ليس لهم من الدين إلا اسمه ، ولا من الإسلام إلا رسمه ، وإذا نقب عن مذهبهم ، وجد على العصبية موضوعًا ، ولغير ما شرعه الله ورسوله شروعًا ، ذبوا على عن على فأسلموه ، وأخروه إذ قدموه ، وهؤلاء وضعوا أحاديث فنقلوها وأولوها على ما أولوها ، فتبع الآخر منهم الأول على غمه ، وقالوا أنا وجدنا آبائنا على أمه (نفس المصدر ، ص ١٤١ ، س ١٦ - ٢١) .

(٢) جاء فى نفس السجل : وأما من تحدث فى القضاء والقدر ، وقال فيه بمخالفة نص الخبر ، فليس فى شىء من ربعه الإسلام ، وإن تنسك بمداومة الصلاة والصيام . قال النبى صلى الله عليه وسلم ، القدرية مجوس هذه الأمة . والمراد بذلك أنهم ماثلوا بين الله والعبد والضياء والظلمة ، فعلاج هذه الطائفة أن تجزى بأن تجزى فليقابل حمقها بالتكسير واسمها بالتصغير ، ولتنقل إلى يقل الحدود عن خفة التعذير (نفس المصدر ، ص ١٤٠ - ١٤١) . والقدرية هم القائلين بحرية اختيار الإنسان لأفعاله ورفضهم لقول الجبرية بأن الإنسان مجبر ومصير غير مخير فى اختيار أفعاله .

(٣) كذلك مجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم ، (نفس المصدر ، ص ١٤١ س ٤) . والقول بالتشبيه هو الاعتقاد بأن الصفات الإلهية والأسماء الإلهية التى وردت فى القرآن ، يجب أخذها وفهمها على نصها الحرفى وليس المجازى ، وفى هذا تشبيه الله عز وجل ببعض خلقه من الإنسان . أما التجسيم فهو الاعتقاد بأن الله عز وجل جسم ، يمكن أن تحده الأبصار وتراه ، والقول بالتجسيم فى الواقع ، قد ترتب على القول بالتشبيه .

(٤) أو قال بحدوث القرآن القديم . ومن ملحدى القرآن ، فرقة فرقت بين المعنى والخط ، وفرقة قالت فيه بالشكل والنقط ، وكل هؤلاء قوم خبثت سرائرهم ، وعميت بصائرهم ، وعظمت عند الله جرائرهم ، (نفس المصدر ص ١٤١ س ٤ - ٦) وأول من قال بحدوث القرآن أو خلق القرآن هو المتكلم القدرى الشهير الجعد بن درهم ، الذى عاش فى نهاية العصر الأموى ، وعنه أخذ المعتزلة ، القول بخلق القرآن .

(٥) فخذهم بالتوبة .. فإن أبت هذه الطوائف إلا الأصرار .. فخذهم عند ذلك بحد الجلد ، فإن لم ينجح فنجد ذوات الحد (نفس المصدر ص ١٤١ س ٧ - ١٥) .

وأصحاب البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة من الأقوال والأفعال ، والملاحظ أن الأراء الكلامية التى ذكرها ابن تيمية . واتهمها بتهمة التدليس فى الديانات ، لا تنسحب إلا على فرق الشيعة ، وخاصة الشيعة الإسماعيلية ، وإن لم يصرح باسم الإسماعيلية صراحة ، وقد اتهم دعاتهم باللجوء إلى وسائل السحر والشعبذة(1) ، وهو أمر سبق وروده فى سجل محتسب حلب(2) واعترف به كبير دعاة الفاطميين القاضى النعمان ، حين لم ينكر أن الداعى أبو عبد الله الشيعى ، عند أول قدومه إلى المغرب ، قبل قيام الخلافة الفاطمية بها ، قد استخدم وسائل السحر والشعبذة للتأثير فى القبائل البربرية التى استجابت لدعوته(3) .

كذلك ، وجه ابن تيمية اهتمامًا خاصًا بالنسبة لفرقة كلامية أخرى ، هى فرقه المعتزلة ، على أساس أنها تأخذ من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى هو الأساس الشرعى لوظيفة الحسبة فى الإسلام ، زريعة للخروج على أئمة المسلمين وإعلان خلعهم والمطالبة بتولية غيرهم ممن تتوفر فيهم شروط الخلافة ؛ وفى رأى ابن تيمية أن الخروج على خلفاء الإسلام ، مُخالف لمذهب أهل السنة والجماعة ، لأنه يوقع الأمة فى الفتن(4) ، التى تبدد شمل وحدتها ؛ وغنى عن البيان ، أن اتخاذ مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ذريعة للخروج على الخلافة الإسلامية القائمة ، وهو المبدأ الذى عدته فرقة المعتزلة أحد أصول مبادئها الخمس الشهيرة ، على أساس أن الخروج على الأئمة الظالمين ، يعد من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان يعطى لأنصار الدعوة الإسماعيلية ، بعد سقوط خلافتهم بمصر ، سندًا شرعيًا للعمل على إسقاط الخلافة العباسية .

وعلى هذا الأساس نفسر عداء الأيوبيين بالشام لفرقة القدرية ، وهى من أقدم فرق المعتزلة بالشام(5) ، كما نفسر أيضًا قتل الأيوبيين بالشام للفيلسوف والمتصوف الشهير السهروردى(6) ، الذى كان فى الغالب يظهر التصوف وعلوم الكلام والفلسفة ، ويبطن التشيع والمذهب الإسماعيلى .

(1) أنظر ابن تيمية . الحسبة فى الإسلام ، ص ٣٧ - ٣٨ وهو نص هام فليراجع .
(2) أنظر قبله .
(3) أنظر القاضى النعمان بن حيون : كتاب افتتاح الدعوة ، طبع بيروت ، ومقدمة المحققة الدكتورة وداد القاضى .
(4) أنظر ابن تيمة : الحسبة فى الإسلام ، ص ٥٥ ، وهو نص هام فليراجع .
(5) كان ظهور هذه الفرقة فى بداية العصر الأموى ، أنظر زهدى محمد جابر الله : المعتزلة طبع مصر ١٣٦٦هـ ص ٦ - ٩ .
(6) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠ ، س ٣ - س ٧ .

وثمة إشارات عديدة أوردها الشيزرى ، توضح أهمية وظيفة الحسبة فى العصر الأيوبى ، فى محاربة المذهب الشيعى ، فقد كان المحتسب يشرف على تعليم الصبيان والصغار فى الكتاتيب ، ويمنع مؤدبيهم فى هذه الكتاتيب من تحفيظهم أشعار الشعراء الذين اشتهروا بتشيعهم ومدحهم للخلفاء الفاطميين بمصر مثل الشاعر صريع الدلا ، الذى مدح الخليفة الفاطمى الظاهر ، ومثل الشاعر أبو عبد الله بن الحجاج ، الذى اشتهر اسمه ببغداد فى عهد ملوك بنى بويه الشيعة ؛ كما أمر الشيزرى المحتسب أن ينهى مؤدبى الصبيان عن تحفيظهم الأشعار التى عملتها الروافض (أى الإسماعيلية) فى أهل البيت ، بل يعلمهم الأشعار التى مدح بها الصحابة ، ليرسخ ذلك فى قلوبهم[1].

كما أفاد الشيزرى أنه كان على المحتسب أن يتقدم إلى جيران كل مسجد ، بالمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان ، لإظهار معالم الدين وإشهار شعار الإسلام ، وأوضح الشيزرى أهمية هذه المأمورية بالنسبة لعصره ، لوجود بقايا للشيعة ، وإن فى هذا العمل تقوية لعقائد عوام الناس ، الذين قد تنجح وسائل الشيعة فى استمالتهم إلى دعوتهم[2] . كما كان على المحتسب أن ينهى الشعاذين وأهل الكدية والعميان : عن إنشاد الشعر الذى عملته الروافض فى أهل البيت ، ومن ذكر المصرع (أى ملحمة قتل الحسين فى كربلاء) وإشباهه لأن هذا كله فتنة للعامة[3] .

فمجمل القول أن وظيفة الحسبة فى العصر الأيوب ، إلى جانب المهام التقليدية للحسبة الإسلامية ، قد خضعت للإشراف المباشر لقاضى القضاه ، واتصفت بصفة سياسة لخدمة الاتجاه السياسى للسلطنة الأيوبية السنية فى محاربة بقايا الوجود الشيعى فى مصر والشام ، سواء المتمثل فى دعاة الإسماعيلية والقدرية[4] بالشام ، الذين عمد المحتسب إلى القبض عليهم وتمزيق كتبهم

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠٣ - ١٠٥ . والجدير بالذكر أن الأيوبيين فى بلاد الشام ، كانوا يعهدون بالحسبة إلى من تفقه على كبار علماء أهل السنة بالشام ، وعرف عنه التمسك بتعاليم المذهب السنى . وأنظر الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج ٤ ، ص ٩٨ ، فى ترجمة جمال الدين ابن كروس المحتسب الدمشقى ، الذى وصف بأنه كان رئيسًا محتشمًا قيمًا بالحسبة ، وأنظر عن حسبة القاهرة ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ، ص ٣٠٥ .

(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١١ ، س ٢ - س ٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٣ ، س ٥ - س ٨ .

(٤) هى فرقة جمعت بين القول بحرية الإرادة ، أى أن الإنسان له حرية الاختيار فى أفعاله وليس مجبرًا وليس مبصر ، وتعاطفوا مع الدعوة الشيعية وأظهروا العداء للحكومة الأموية التى روجت للقول بالجبر وبررت به انتقال الخلافة من البيت العلوى إلى البيت الأموى .

وإحراقها ثم استتابتهم وتوقيع حد الجلد ثم القتل على من أصر منهم على دعوته ومذهبه ؛ أو المتمثل فى النقابات الحرفية والمهنية فى أسواق القاهرة ، التى كان هوى أصحابها لا يزال مع الدولة الفاطمية الزائلة ؛ ولم تقتصر جهود الحسبة الأيوبية فى مقاومة الدعوة الإسماعيلية على التصدى لفئة المثقفين الممثلة فى دعاة المذاهب الكلامية ومعتنقها وفى أرباب الصناعات والحرف ، بل اهتمت اهتمامًا خاصًا بالعوام الذين قد تؤثر فيهم الملاحم الشيعية الخاصة بوصف مصرع الحسين ومصارع الطالبيين ، فعمدت إلى منع أهل الكُدْية من ترديدها فى الأسواق ، كما منعت الصبيان فى الكتاتيب من حفظ الأشعار التى نظمها الشعراء المتشيعين فى حب آل البيت ، ومدح خلفاء وملوك الشيعة ، هذا بالإضافة إلى التأكد من أن شعائر الآذان والصلاوات تقام وفق الشعائر السنية[١] ، حتى لا يستمر العامة على ما ألفوه من شعائر شيعية ، فرضها الفاطميون إبان دولتهم ؛ هذا بالإضافة إلى احتفاء المحتسب ، بالصلاوات الخاصة بالأعياد والمواسم السنية[٢] .

تشجيع التصوف والفكر الصوفى :

وإذا كان إنشاء الأيوبيين للمدارس السنية بمصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، قد هدف إلى نشر علوم السنة بين مثقفى الشعب المصرى ، ثم جاء قطع الخطبة والدراسة فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٢م من الجامع الأزهر معقل الدعوة الشيعية بمصر ، تأكيدًا لعدم منافسة علوم الدعوة الإسماعيلية الفلسفية ، للعلوم الفقهية السنية التى عملت المدارس السنية على نشرها بين المصريين ؛ وإذا كان تحويل المذهب الفقهى الرسمى للدولة المستخدم فى القضاء إلى الفقه الشافعى ، قد أكد أن المذهب الفقهى الرسمى للدولة الأيوبية هو المذهب الشافعى السنى ؛ وجاء إسناد مهمة الإشراف المباشر على المدارس السنية بمصر لقاضى القضاه ، نوعًا من الإشراف الرسمى للدولة على التعليم - رغم ما جرى

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١١ ، س ٣ – ٦ .

(٢) ضياء الدين بن الأثير : مجموع رسائله ، تحقيق المقدسى ، ص ١٤٢ ، الذى يوصى المحتسب بالاهتمام بالإشراف على صلاة يوم الجمعة الذى هو فى الأيام بمنزلة الأعياد فى الأعوام .. ، والصلاوات الخاصة بالمواسم والأعياد السنية ، فيقول : وفى الأعوام مواسم لصلوات مخصوصة ، كالتراويح فى شهر رمضان والرغائب فى أول جمعة من رجب ، وليلة النصف من شعبان . فلتملأ المساجد فى هذه المواسم .

عليه العرف منذ صدر الإسلام ، واعتبار التعليم ملكًا للأمة[1] ، بحيث لم تتدخل الدولة فى تنظيم شئون التعليم ، إلا فى حالات خاصة أملتها الظروف السياسية ، كما حدث فى العصرين الفاطمى والأيوبى - قد استهدف أيضًا نشر علوم السنة بين المثقفين .

وإذا كانت وظيفة الحسبة السنية قد قامت بدور مزدوج لمحاربة التشيع والتأكد من تطبيق الشريعة السنية على مستوى الفقهاء والمتكلمين ومثقفى الصناع والتجار من ناحية ، وفى نفس الوقت على مستوى طلبة الكتاتيب والعامة والجهال فى الأسواق ؛ فإن الحكومة الأيوبية ، قد لجأت إلى وسيلة أخرى ، لمحاربة الدعوة الإسماعيلية بمصر ، ونشر المذهب السنى ، استهدفت أيضًا استمالة قلوب المصريين من المثقفين والعامة الأميين على حد سواء ، وإن كانت قد استهدفت بالدرجة الأولى ، طبقة العوام ، وأعنى بهذه الوسيلة « التصوف » .

(١) المقصود بأن التعليم فى الإسلام كان ملكًا للأمة ، يعنى أن المسلمين منذ صدر الإسلام قد شغفوا بدراسة العلوم الدينية النقلية مثل الحديث ، والفقه والتفسير وباقى علوم القرآن ، فكان طلبة العلم يرتحلون فى تحصيله وجمعه من أفواه الشيوخ والأئمة ، من أطراف العالم الإسلامى ، الذى امتد فى بعض الأوقات من حدود الصين شرقًا إلى بلاد الأندلس غربًا . وكانت العلاقة بين الشيوخ وطلبة العلم ، أى بين العالم والمتعلم ، تقوم على أساس المعرفة الشخصية المباشرة بين العلماء وتلامذتهم ، وإن عنيت كثيرًا كتب آداب التعلم بوضع قواعد وأصول تنظيم أداب التعامل والسلوك فى مجالس الدرس والتعليم ، وقد استمدت هذه المؤلفات مادتها من كتب الفقه وتفريعاتها ؛ أنظر مثلاً الخطيب البغدادى : تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش ، طبع دمشق ١٩٤٩ ، ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغى فى روايته وحمله ، طبع المطبعة النيرية بمصر ، طبعة قديمة ، د. ت ، أحمد فؤاد الأهوانى : التعليم فى رأى القابسى (من علماء القرن الرابع) ، طبع القاهرة، ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م ، أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام ، طبع القاهرة ١٩٥٥ ، أحمد شلبى : التربية والتعليم فى الإسلام ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٠م ؛ مجموعة رسائل عن التعليم من تأليف إخوان الصفا ، والغزالى ، والطوسى ، وابن جماعة ، وابن خلدون ، وابن حجر ، جمعها وقدم لها مجهول لم يذكر اسمه ، وطبعت على نفقة السيد حسن الشربتلى ، بدار الفتوح للطباعة بالقاهرة ، د. ت. ؛ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى آدب العالم والمتعلم ، طبع الهند ١٣٥٣هـ .

والجدير بالالتفات ، أن مفهوم كلمة مدرسة فى الإسلام ، تختلف عن مفهوم المدرسة فى المصطلح المعاصر لنا اليوم ، فكلمة مدرسة فى الإسلام تعنى بناء خاصًا ، يخصص له من الأوقاف والموارد ، ما يكفى لإطعام وإسكان الطلبة والمدرسين ؛ وسواء إذا كانت هذه المدرسة قد تولت إنشاءها الدولة أو الأفراد ، فقد كان للمدرس ، مطلق الحرية فى اختيار المؤلفات والتصانيف التى يدرسها للطلبة ، إلا إذا كان من شرط وقفية المدرسة أن تكون مختصة بنوع من العلوم (الحديث مثلاً) ، أو بمذهب معين من المذاهب الفقهية (الشافعى مثلاً) – وهذا ما وجدناه فى العصرين الزنكى والأيوبى – ؛ ولم يكن ثمة التزام بالنسبة للطلبة لحضور جميع العلوم التى تدرس ، كذلك لم تكن تمنح شهادات للتخرج ، كما لم يكن يشترط سن معين للالتحاق بالمدرسة .

ويخبرنا ابن شداد أن صلاح الدين بدأ فى غرس التصوف فى أهل مصر لمحاربة التشيع ، وهو لايزال وزيرًا للفاطميين[1] ، ويفسر محمد كامل حسين ، اتخاذ الأيوبيين للتصوف ، كوسيلة لمزاحمة بقايا العقائد الإسماعيلية بمصر ، بأن الأراء الصوفية ، كانت منذ أواخر العصر الفاطمى ، هى التى شغلت الفراغ الذى تركه دعاة الإسماعيلية ، إذ كان المصريون قد تأثروا بمعتقدات وتعاليم الإسماعيلية ، ولما وجدوا أنفسهم بعد إنقراض الدولة الفاطمية قد حرموا مما يغذى عاطفتهم الدينية ، اتجهوا إلى التصوف ، وأحلوه في نفوسهم وحياتهم محل ما كانوا يسمعونه من الدعاة الإسماعيلية ، ويعتقد كامل حسين أن القائمين على الدولة الأيوبية ، فهموا هذه الناحية النفسية فى الشعب ، فحاربوا العقائد الفاطمية بمصر بتعاليم الصوفية[2] .

وذهب الباحثون مذاهب شتى فى تفسير سبب انتشار التصوف بمصر فى نهاية العصر الفاطمى وبداية العصر الأيوبى ، فأرجع بعضهم هذه الظاهرة من ناحية إلى سوء الأحوال السياسية والاقتصادية التي عاشها الشعب المصرى فى مرحلة الانتقال بين العهدين الفاطمي والأيوبى ، من فتن داخلية ومجاعات ، وحروب صليبية ، ردت مصر إلى لون من الحياة فيه شعور حقيقي بالفقر مما خلق فى الناس استعدادًا للخضوع لدينهم وأملاً فى نعيم الآخرة[3] ، وقوى الاتجاه الصوفى عند المصريين دخول الفكر الأشعرى إلى مصر على يد صلاح الدين وأثر ذلك فى ميل أهل مصر للعلوم الدينية النقيلة ، أكثر من ميلهم إلى العلوم الفلسفية العقلية[4] ، هذا بالإضافة إلى أن الشعب المصرى ، شعب متدين بطبيعته ، وأن للدين عليه سلطانًا عظيمًا[5] ، وأن التصوف قد عرف بمصر الإسلامية منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الثالث الهجرى ، واشتهر بمصر منذ القرن الثالث الهجرى ، متصوفه أحرزوا شهرة كبيرة ، وإن لم تنتشر مذاهبهم الصوفية الفلسفية بها مثل المتصوف ذو النون المصرى[6] . هذا بالإضافة إلى طائفة عرفت بـ « الصوفية » ظهرت بمصر بالقرن الثالث الهجرى أيضًا ، وقامت بالاحتساب على الحكام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[7] ، كما تميز التصوف بمصر الإسلامية،

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ - ٤١ .
(٢) أنظر محمد كامل حسين : بين التشيع وأدب الصوفية بمصر ، بحيث نشر بمجلة كلية الأداب بجامعة القاهرة ، الجزء الثانى ، المجلد السادس عشر ، ٥ ديسمبر ١٩٥٤م ؛ محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ٦٣ .
(٣) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ٩٥ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٨٧ - ٩٤ ، وأنظر بعده .
(٥) نفس المرجع ، ص ٩٦ .
(٦) نفس المرجع ، ص ١٢٠ ، أنظر محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٥٣ .
(٧) نفس المرجع ، وأنظر محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

باعتناق عدد كبير من الفقهاء المصريين له ، كمنهج لحياة الزهد والورع ، وذلك رغم الخصومة التقليدية بين الصوفية والفقهاء[1] .

في حين يرى البعض الآخر تقاربًا بين آراء الصوفية وآراء الإسماعيلية ، ويلاحظ أن دعاة الإسماعيلية الذين أنبثوا فى جميع أقاليم الديار المصرية فى العصر الفاطمى ، كانوا يظهرون الزهد والورع والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويظهر بهذا المظهر الخارجى من التقوى لجذب من لم يعتنق الدعوة ، بحيث لم يختلفوا فى مظهرهم عن الصوفية ، وكانوا يأمرون العامة بالتمسك بالعبادة العملية ، التى تعرف عند الإسماعيلة « بالعلم الظاهر » ، وينشرون بين الخاصة العبادة العلمية التى سموها علم الباطن أو التأويل ، مما قارب بين آراء المتصوفة وآراء الإسماعيلية :

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ص ١٣٢ ، وأنظر محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٥١ . ولكن مع تسليمنا بهذه الآراء التى علل بها عبد اللطيف حمزة انتشار التصوف بمصر فى نهاية العصر الفاطمى وبداية العصر الأيوبى إلا أننا نتشكك فيما ذكره مسايرًا لآراء آدم متز ونيكسلون والشيخ مصطفى عبد الرازق من أن التصوف الإسلامى قد ظهر بمصر ، قبل أى بلدة أخرى من بلاد العالم الإسلامى ، وذلك لكون مصر ، كانت هى المبتكرة لنظام الرهبنة المسيحية فى العصر البيزنطى ، وعن مصر انتشر نظام الرهبنة والأديرة فى كافة أنحاء العالم المسيحى ؛ ونحن نؤيد رأينا على أساس أن أول ظهور للتصوف الإسلامى كان مرتبطًا بأهل الصفة وهم جماعة من فقراء الصحابة فى أول عهد الدعوة الإسلامية ، هاجروا مع النبى إلى المدينة وأسكنهم صفة مسجده النبوى بالمدينة ، فعاشوا عيشة أشد ما تكون زهدًا وتقشفًا واشتغلوا بدراسة القرآن والسنة ، وكان أغنياء المسلمين يتصدقون عليهم ويطعمونهم ، ومن هنا جاء فتوة الفقهاء المتأخرين كما لاحظ السخاوى بأن المنقطعين للعلم والدراسة يستحقون أن تجرى عليهم الأرزاق والجرايات وتوقف للصرف عليهم الأوقاف ؛ وأكد نشأة التصوف فى الإسلام ونشأة الأوقاف التعليمية فى الإسلام اعتمادًا على أحوال أهل الصفة المؤرخ شمس الدين السخاوى ت ٩٠٢هـ فى رسالة مخطوطة له سماها : رجحان الكفة فى أحوال أهل الصفة ؛ ومن هذه الرسالة الهامة التى تعالج نشأة التصوف فى صدر الإسلام نسخة وحيدة بالجمعية الآسيوية بالهند برقم ١٣٢١ ومعهد المخطوطات برقم ١٠٦٣ت . هذا وقد أفاد المقريزى ميله لاعتبار أحوال أهل الصفة كالأصل الأول الذى بنى عليه نظام خوانق الصوفية فى الإسلام (الخطط : ٤: ٢٧٢) فهو يناقش إذا ما كان اسم الصوفية مشتقًا من أهل الصفه ثم يقول عن الرباطات والزوايا : والرباط هوبيت الصوفية ومنزلهم ، وشابهوا أهل الصفة فى ذلك . قال مؤلفه ولاتخاذ الربط والزوايا أصل من السنة وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل ولا مال مكانًا من مسجده عرفوا بأهل الصفه (الخطط ٤: ٢٣٩) ويؤيد ما ذهبنا من رفض الرأى القائل أن التصوف الإسلامى ظهر بمصر متأثرًا بنظام الرهبنة المسيحى الذى ظهر فى مصر أيضًا ، ملاحظة محمد كامل ، أن الفقهاء الذين عرفوا بالصوفية من المسلمين لم يتأثروا بالرهبنة المسيحية فى مصر ، ولم يكن لهم تعاليم خاصة تمايزوا بها عن غيرهم من المسلمين إلا مغالاتهم فى هذه الناحية فقط (الزهد) (محمد كامل حسين : دراسات س ٥١ – ٥٢) .

وفى اعتقاد صاحب هذا الرأى ، أن بعض الصوفية بمصر كانوا من دعاة الفاطميين[1] ؛ هذا وقد دللت الأبحاث الحديثة التى تدارست ظهور التشيع وتطوره ، تأثر التشيع منذ نشأته بالفكر الصوفى ، وتقارب فرق الشيعية فى أغلب فترات التاريخ الإسلامى ، مع طوائف وفرق الصوفية[2] ؛ ومما يؤكد هذا ما ردده الصوفية، من أن لخرقة التصوف سندين، أولهما ينتهى إلى على بن أبى طالب، وثانيهما ينتهى إلى على الرضى[3] .

وإذا كان عبد اللطيف حمزة ، قد لاحظ أن المدرسة السنية ، هى مؤسسة ابتكرتها الدعوة والدعاة للمذهب الأشعرى السنى[4] ؛ اعتمادًا على النقش التأسيسى لمدرسة قبة الإمام الشافعى ؛ فالذى

(١) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى ، ص ٥٧ – ٥٨ . والتأويل الباطن للقرآن معروف أيضًا عند الصوفية ، وإن لم يكن لهدف سياسى مثل الحال عند الشيعة الإسماعيلية .

(٢) أنظر على الشيبى : الصلة بين التشيع والتصوف ، طبع دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م .

(٣) قال سبط ابن الجوزى : وكان الشيخ عبد القادر الجيلى لبس خرقة المشايخ من أبى سعد المخزومى ، ولبس المخزومى من أبى الحسن على بن محمد القرشى ، ولبس القرشى من أبى الفرج الطرسوسى ، ولبس الطرسوسى من أبى الفضل بن عبد الواحد التميمى من والده عبد العزيز ، ولبس عبد العزيز من أبى بكر الشبلى ، ولبس الشبلى من أبى القاسم الجنيد ، ولبس الجنيد من خاله سرى السقطى ، ولبس سرى من معروف الكرخى ، ولبس معروف من داود الطائى ، ولبس داود من حبيب العجمى ، ولبس حبيب من الحسن البصرى ، ولبس البصرى من على بن أبى طالب عليه السلام ، وللخرقة طريق آخر إلى على بن موسى الرضا ولا يثبت سنده . (مرآة الزمان : ٨: ٢٦٦) وأنظر بعده سند " الفتوة وسراويل الفتوه " حيث ينتهى أيضًا إلى على بن أبى طالب .

(٤) يلاحظ عبد اللطيف حمزة : أن أول من ولى التدريس فى مدرسة قبة الإمام الشافعى ، التى كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر ، كان الفقيه الخبوشانى . ثم يضيف أن الخبوشانى ، كان من أخطر الفقهاء السنيين ، الذين وقعوا على الوثيقة التى خلعوا فيها آخر خلفاء الدولة الفاطمية (العاضد) ، كما كان أول من خطب فى جامع عمرو للخلافة العباسية ؛ ثم يلاحظ أيضًا أن الخبوشانى هذا فارسى الأصل وأن نشأة المدارس نفسها فارسية أيضًا ، وأن النقش التأسيسى لمدرسة الخبوشانى بقبة الإمام الشافعى ، يشير إلى أنه كان فى أصول الدين وقضايا العقائد أشعرى المذهب ، ثم ينهى د. عبد اللطيف حمزة ملاحظاته بتقرير قوله : إن المؤسسة الإسلامية التى تسمى المدرسة ، كانت أداة من أدوات الحركة الأشعرية ، (أنظر عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١٦١) .

أما النقش الوارد على شاهد قبر الخبوشانى . ويؤكد اعتناقه للعقيدة الشعرية ، فهو على هذا النحو كما أورده الأستاذ جاستون فايت Gaston Wiet فى مقاله، عن نقوش قبة الإمام الشافعى فى مجلة المعهد المصرى.

" بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الإمام الزاهد نجم الدين ، ركن الإسلام قدوة الأنام ، مفتى الفرق ، أبو البركات بن الموفق الخبوشانى ، أدام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشافعى ، رضوان الله عليه الموصوفين بالأصولية الواحدة الأشعرية ، على الحشوية وغيرهم من البتدعه ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، وأنظر .

Gaston wiet: Les Inscriptions du Mausoleé de Shafi, B. I. E., Tome Xv, Session 1932-1933. pp. 167-185; p 170.

قلت : وفى هذا النقش ما يؤكد أيضًا ما سنقرره بعد ذلك عند حديثنا عن نشر الأيوبيين للدعوة الأشعرية بمصر أن جميع فقهاء الشافعية منذ القرن الخامس الهجرى ، قد أخذوا فى قضايا أصول الدين والعقائد بالعقيدة =

نعتقده أيضًا أن الخوانق[1] ، وهى بيوت الصوفية فى الإسلام ، رغم أنها عرفت منذ القرن الرابع الهجرى ، عند الكرامية ، وهى فرقة من الصوفية القائلين ، بالأرجاء والتجسيم[2] ؛ إلا أن اتخاذ

= الأشعرية ، وأن الأيوبيين أيضًا كانوا يأخذون فى فروع الفقه بالفقه الشافعى ، ويأخذون فى أصول الدين والعقائد بالعقيدة الأشعرية . وثمة نقش على قدر خطير من الأهمية ، لم يلتفت إليه الباحثون من قبل ، يؤكد حرص بنى أيوب على نشر الفقه الشافعى بمصر ، واقتران ذلك بنشر الدعوة العباسية بمصر أيضًا، وفى نفس الوقت بنشر العقيدة الأشعرية ، كما أكد النقش السالف وهذا النقش الهام قد نشره أيضًا جاستون فايت فى نفس المقال السابق ، جاء فيه : الشافعى أمام الناس كلهم .. فى العلم والحلم والعلياء والبأس ، له الإمامة فى الدنيا مسلمة .. كما الخلافة فى أولاد عباس ، أصحابه خير أصحاب ومذهبه .. خير المذاهب عند الله والناس ، وذلك لسبع خلون من جمادى الأولى ، من سنة ثمان وستمائة (٦٠٨هـ) أنظر .
Gaston Wiet: *Les Inscriptions du. Shafi*, p. 179.
وعن دور الخبوشانى فى عزل الخليفة العاضد ، والخطبة لبنى العباس بمصر ، أنظر بعده ، الوضع الشرعى لمصر .

(١) عن الخوانق ، أنظر القلقشندى : صبح ٣: ٣٤٣ ، وص ٣٦٤ ، المقريزى : الخطط ج ٤ : ص ٢٧٣ .

(٢) أنظر عن الكرامية ومذهبهم فى التجسيم ، وأراءهم السياسية والكلامية ، أنظر على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧١ ، ج ١ ص ٤٠٥ - ٤٢٤ ، ورغم أن محمد بن كرام مؤسس مذهب الكرامية ، عاش فى بلاد خراسان فى القرن الرابع الهجرى ، إلا أن فرقته قد انتشرت فى بلاد الشام إبان الحكم الفاطمى لها ، فيقول المقدسى ، وهو رحالة قام برحلته فى القرن الرابع الهجرى عند حديثه عن الفرق الإسلامية فى بلاد الشام : مذاهبهم مستقيمة ، أهل جماعة وسنة ، وأهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة ، ولا ماء فيه لمعتزلى ، إنما هم فى خفية ، وببيت المقدس خلق من الكرامية ، لهم خوانق ومجالس .. واليوم أكثر العمل على مذاهب الفاطمى ، (المقدس : أحسن التقاسيم، طبع بريل ١٩٠٦، ص ١٧٩ - ١٨٠) . والجدير بالملاحظة ، أن متكلمى الأشاعرة ، مثل الفخر الرازى ، قد حرصوا على مجاهرة الكرامية بخراسان بالعداء والخصومة العقائدية العنيفة ، أنظر المقريزى : السلوك ١: ١٤٤ - ١٤٥ وهامش (٤) ، حوادث سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م . وأنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ص ١٧٠ و ١٨٣ ، الذى يذكر أن أهم الأراء السياسية للكرامية هى أنه يجوز أن يكون إمامان فى وقت واحد ، وأن عليا ومعاوية كانا إمامين فى وقت واحد ، إلا أن عليا كان على السنة ، ومعاوية على خلافها . وواضح أن مذهبهم السياسى يفضل على بنى أمية وأن أقروا خلافة بنى أمية ، مع التحفظ بالقول أن الخلافة الأصلية الشرعية ، هى خلافة على ، ولما كانت الكرامية ، من فرق المرجئة (أنظر عن الكرامية ومذهبهم الشهرستانى : الملل والنحل ص ٧٩ - ٨٥ ، السمعانى : كتاب الأنساب لوحة ٤٧٧ ، المقريزى : الخطط ج٤، ص ١٧٠ و ١٨٣) فواضح أن مذهبهم السياسى ، كان يهدف إلى الوقوف موقفًا وسطًا بين خلافة بنى أمية وقضية الشيعة ، وإن تعاطفوا مع قضية الشيعة ، وأقروا بأن خلافة على كانت هى الشرعية ، ولعل هذا ما يفسر انتشار مذهب الكرامية وخوانقهم فى بلاد الشام إبان الحكم الفاطمى ، وأيضًا فى مصر ، ممثلاً فى الفرقة الصوفية التى عرفت بالكيزانية . أنظر بعده . ولقد أفاد العلامة الشيخ زاهد الكوثرى أن بعد احتلال الصليبين لبيت المقدس ، هاجر هؤلاء الكرامية ، إلى شمال بلاد الشام ، وأنهم كانوا على الفقه الحنبلى ، وحملوا بدعة التشبيه والتجسيم إلى الشام . وكان السلطان صلاح الدين الأيوبى يرعى خاطرهم لكونهم مهاجرين زهادًا ويتغاضى عن معتقدهم . أنظر محمد زاهد الكوثرى : مقدمة لكتاب تبين كذب المفترى ، فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ، لابن عساكر ، ص ١٦ . فى حين أدى عداء الخبوشانى مدرس الشافعية بمصر للحنابلة ونصرته للمذهب الأشعرى : إلى محاولته إبادة الفرقة الكيزانية فى مصر ، كما أقدم على نبش قبر ابن كيزان المنسوبين إليه . (أنظر محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر الأيوبى ، ص ٦١ - ٦٣) وربما كان إبادة الصوفية من الكيزانية الكرامية بمصر ، كان بسبب بقاءهم على الولاء للدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية .

الخوانق ، كوسيلة تعليمية لنشر علوم السنة واجتذاب مريدى المذهب الإسماعيلى إلى المذهب السنى ، إنما قد تم على أيدى دعاة المذهب الأشعرى . فى القرنين الرابع والخامس الهجرى ، بحيث نسب ابن عساكر ، مؤرخ الدعوة الأشعرية للإمامين ابن فورك والغزالى وهما من ائمة الأشاعرة ، بناء الخوانق فى بلاد العراق وفارس وجلوسهما بها لتدريس علوم السنة ، وإلقاء دروس الوعظ الصوفى[1] . وفى هذا تأكيدًا لما اعتقده د. حمزة إن حركة انتشار الخوانق بمصر ، تشبه من قريب أو بعيد حركة إنشاء المدارس بمصر فى العصر الأيوبى ، وتقترن بها[2] . أما محمد كامل حسين فيعتقد أن الخانقاه أو التكايا أو مصاطب الصوفية ، وجدت منذ عصر الفاطميين ، اعتمادًا على نص

(١) يقول ابن عساكر : موضحًا جهود الإمام أبى بكر بن فورك ، فى نشر الدعوة الأشعرية وإنشاء المدارس والخوانق فى العراق وبلاد فارس ، قال ابن عساكر بعد أن وصف ابن فورك ، بالمتكلم الأصولى الواعظ " أقام أولاً بالعراق، إلى أن درس بها على مذهب الأشعرى .. وورد نيسابور ، فبنى له الدار والمدرسة من خانكاه أبى الحسن البوشنجى ، وأحيا لله تعالى .. أنواعًا من العلوم لما استوطنها ، وظهرت بركته على جماعة من المتفقهة ، وتخرجوا به " .. (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢٣٢) . ويذكر ابن عساكر موضحًا جهود الإمام الغزالى فى نشر الدعوة الأشعرية ، قول الغزالى نفسه على لسانه : " ما كنت أجوز فى دينى أن أقف على الدعوة ، ومنفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حق علىّ أن أبوح بالحق ، وأنطق به ، وأدعو إليه ، ثم علق ابن عساكر على قول الغزالى بقوله : وكان صادقًا فى ذلك ثم ترك ذلك قبل أن يترك (المقصود قبل وفاته) ، وعاد إلى بيته ، واتخذ فى جواره مدرسة لطلبة العلم و " خانقاه للصوفية " ، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين ، من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب (المقود الصوفية) ، والقعود للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه ، عن فائدة ، إلى أن أصابه عين الزمان .. فنقله الله إلى كريم جواره " ، (ابن عساكر : تبين كذب المفترى : ص ٢٩٥ – ١٩٦) ، وأنظر نصين هامين يتفاخر فيهما كل من عبد القاهره البغدادى ، وأبو المظفر الإسفراينى ، وهما من كبار دعاة الدعوة الأشعرية ، فى القرن الخامس الهجرى ، بأن منشآت أهل السنة وأئمتهم وملوكهم لنشر العلوم تفوق منشآت الفاطميين العبيدين وخلفائهم (أنظر قبله ، فلقد سبق إيراد هذين النصين بتمامهما عن حديثنا عن المدارس ، وأنظر عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ ، أبو المظفر الأسفراينى : التبصير فى الدين ص ١٧٦ ، وقد أكد الراوندى مؤرخ الدولة السلجوقية فى نصوص وافية صريحة مقدار عناية سلاطين بنى سلجوق ، بنشر المنشآت السنية الأشعرية فى جميع أرجاء دولتهم ، أنظر قبله ، وأنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٦٠ ، س ٧ – ١٦ ، ص ١١٣ ، ص ١٠٤) .

(٢) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١٠٦ .

للمقريزى[1] ، ذكر فيه مصاطب للصوفية بقصر الأندلس بالقرافة ، وأفاد أن الخليفة الفاطمى الآمر ، كان يجرى على فقراء مصاطب القرافة الأموال ، ثم يقرر كامل حسين ؛ مخالفته لرأى عبد اللطيف حمزة ، الذى ذهب إلى أن أماكن الصوفية إنما وجدت فى عصر الأيوبيين[2] .

ونحن نميل إلى ترجيح رأى عبد اللطيف حمزة ، على رأى كامل حسين ، استنادًا على دليلين ، أولهما مالاحظه حمزة ، وأكده الحافظ ابن عساكر ، من أن الخانقاه ، كوسيلة تعليمية لنشر علوم السنة ، وفى نفس الوقت منشأة اجتماعية لرعاية فقراء الصوفية ، وخاصة من الأغراب ، أبناء السبيل ، هى منشئة سنية ، استخدمتها الدعوة الأشعرية السنية ، شأنها شأن المدارس ، لنشر علوم السنة ، ومحاربة المذهب الإسماعيلى ، ومن ثم فلا يستقيم عقلاً ، أن ينشر خلفاء الفاطميون بمصر هذه المنشآة السنية ، التى تهدف إلى محاربة المذهب الإسماعيلى الفاطمى ؛ أما مصاطب الصوفية التى وصفها المقريزى ، فواضح أنها لم تكن منشآة تعليمية شأنها شأن الخوانق ؛ وثانى الدليلين على ظهور الخوانق بمصر فى العصر الأيوبى ، نصًا صريحًا للقلقشندى ، لم يقف عليه كل من عبد اللطيف حمزة وكامل حسين ، فيقول القلقشندى : إن الخوانق والربط ، لم تعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية،

(١) يقول المقريزى فى حديثه عن قصر القرافة ، أنظر الخطط ، طبع مطبة النيل ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ – ٣٧٩ . ولما كان فى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ، جدده الخليفة الآمر ، وعمل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس فى الطابق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم ، والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ، ومدت لهم الأسمطة ، .. فاستحسن الآمر ذلك .. فأمر فى الساعة والوقت فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفيه ، ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ، ونثر عليهم متولى بيت المال من الطابق ألف دينار ، فتخاطفها الحاضرون .. وما يرح قصر الأندلس بالقرافة ، حتى زالت الدولة (الفاطمية) فى شهر ربيع الآخر ، سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م . والذى نلاحظه من نص المقريزى ، أن هؤلاء الصوفية لم يكونوا من المنقطفين لدراسة العلوم ، وإنهم كانوا من جهال الصوفية الدراويش وأن الدولة كانت تقدم لهم الأموال والكسوات والأسمطة كهبات ، وليس كمرتبات محددة فى كل شهر ؛ كما أن المصاطب تختلف فى تخطيطها وبنائها عن الخوانق والتكايا ؛ ولازالت كثير من الخوانق الأيوبية والتكايا العثمانية موجودة إلى اليوم ؛ وأخيرًا ، فإن هدم الأيوبيين لهذه المصاطب فى أول قيام دولتهم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، تفيد بأن هؤلاء الصوفية ، كانوا من أنصار الخلافة الفاطمية ، وأغلب الظن أنهم كانوا كما ذهب د. محمد كامل حسين يقومون بالدعوة للخلافة الفاطمية والعقائد الإسماعيلية خاصة فى نهاية العصر الفاطمى ، الذى شهد تدهور الفكر الإسماعيلى ، وضعف الدعوة الإسماعيلية بمصر .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٥٦ .

وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، فإبتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء[1] ، ولقد أعاد القلقشندى نفس النص تقريبًا في موضع آخر[2] . كما نص المقريزى أيضًا على أن خانقاه سعيد السعداء « أول خانقاه عملت بديار مصر »[3] .

ولعل ما يؤكد ، أن نشر الخوانق بمصر ، كمنشأة تعليمية اجتماعية ، تضم الصوفية المنقطعين للعلم والعبادة ، قد تم على يد الأيوبيين ، ما ذكره البدليسى ، مؤرخ الدول الكردية الإسلامية ، من أن نجم الدين أيوب ، والد الملوك الأيوبية ، قد أنشأ خانقاه ، حينما كان دزدارا (أى أمير القلعة) لقلعة تكريت ، نيابة عن سلاجقة العراق[4] ، كذلك نسب النعيمى ، المؤرخ الشامي المتأخر ، لكل من نجم الدين أيوب ، وأخيه أسد الدين شيركوه ، أنشاء بعض الخوانق والربط والمدارس بدمشق ، إبان خدمتهما لنور الدين زنكيى[5] .

ولقد أفاد ابن جبير تطابق وظيفتى كل من الخوانق والربط ، كدور للعبادة والتعليم ، تخصص للصوفية ، وتتولى الدولة الإشراف عليها[6] ، كما أكد الوهرانى أن بداية نشر هذه المنشآت الصوفية بمصر ، ومنها « الزوايا » ، قد تم منذ قدوم نجم الدين أيوب إلى مصر سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ، واقترن

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ ، س ١٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، س ١٥ .
(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، س ٢٣ . والواقع أن تخطيط الخانقاه من الناحية المعمارية يختلف تمامًا عن وصف المقريزى لمصاطب الصوفية التى ذهب محمد كامل حسين إلى القول بأنها كانت أول ظهور للخوانق لمصر . فالخانقاه تتكون من صحن مكشوف تطل عليه غرف صغيرة متعددة يعيش فيها المتصوفون ، ثم أيوانات أربعة ، أكبرها أيوان المحراب حيث يقيمون فيه الصلاة (أنظر محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامي فى العصر الأيوبى ص ٣٩) . وللأسف أن خانقاه سعيد السعداء لم يتبق منها سوى بعض الجدران لم يستطع علماء الآثار تميزها عن البناء المماليكى الحديث الذى احتواها ، وهو المعروف اليوم بمسجد الشيخ مطهر بشارع المعز لدين الله بالقرب من حى الصاغة ؛ ومع ذلك فقد وصلت إلينا خانقاه من العصر الأيوبى بمدينة حلب هى خانقاه الفرافرة تعطينا تصورًا دقيقًا لتخطيط الخانقاه فى العصر الأيوبى وعن خانقاه الفرافرة (محمد طلس : الآثار الإسلامية والتاريخية فى حلب ص ٨٨ – ٩٠ ، وأنظر فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ج ١: ٢٥٠ ، وأنظر دولة عبد الله عبد الكريم : الخوانق فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى رسالة دكتوراه نوقشت بكلية الآثار ١٩٧٣ ؛ والجدير بالذكر أن الخوانق صارت تعرف فى العصر العثمانى " بالتكايا " .
(٤) البدليسى : الشرفنامه الكردية ، ص ٥٦ – ٥٧ .
(٥) أنظر الحديث عن المدرسة الأسدية ، النعيمى : الدارس ، ج ١ ، ص ١٥٢–١٥٧ وعن الخانقاه الأسدية ، النعيمى : الدارس ، ج ٢ ، ص ١٣٩ – ١٤٠ ، وعن الخانقاه النجمية ، النعيمى : الدارس ٢: ١٧٤ – ١٧٧ ، وعن رباط أسد الدين شيركوه ، أنظر النعيمى : الدارس ٢: ١٩٤ ، رقم ٢٠١ .
(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٦ ، وأنظر بعده .

بحركة إنشاء المدارس والمساجد[1] . كذلك أوضح كل من المقريزى والقلقشندى ، ارتباط ظهور المنشآت التعليمية والخيرية السنية بمصر ، مثل المدارس والخوانق والربط والزوايا والأسبله[2] ، بقيام الدولة الأيوبية بمصر .

والخوانك جمع خانكاه ، وهى كلمة فارسية ، معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه ، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك ، وقد حدثت فى الإسلام ، فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة ، وجعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى[3] ، ولما استبد صلاح الدين بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد ، حول دار سعيد السعداء، وهو أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر الفاطمى، إلى خانقاه ، عرفت بالخانقاه الصلاحية ، وبدار سعيد السعداء ، وبدويرة الصوفية . وجعلها برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، ووقف عليها فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، وولى عليهم شيخًا ، ووقف عليها بعض البساتين والقيساريات وبعض الأراضى الزراعية بإقليم الديار المصرية[4] ، وشرط أن من مات من الصوفية ، وترك عشرين دينارًا فما دونها ، كانت للفقراء ؛ ولا يتعرض لها الديوان السلطانى ، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره ، ورتب للصوفية فى كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا ، وبنى لهم حمامًا بجوارهم ، فكانت أول خانكاه عملت بديار مصر ، وعرفت بدويرة الصوفية ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ[5] ، وجعل شرط الوقف على الخانقاه ، أن الخانقاه تكون وقفًا على الطائفة

(١) الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ١٣ – ١٤ ، وأنظر قبله .
(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، القلقشندى : ج ٣ ، ص ٣٤٢ ، ص ٣٦٤ .
(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧١ – ٢٧٣ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ .
(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، الذى يقول : لقب كل شيخ خانقاه بشيخ الشيوخ ، وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وتُرجى بركتهم ، وولى مشيختها الأكابر والأعيان كأولاد الشيوخ بن حمويه مع ما كان لهم من الوزاره والإمارة وتدبير الدولة ، وقيادة الجيوش وتقدمه العساكر . والجدير بالملاحظة أن أسرة أولاد شيخ الشيوخ بن حمويه الجوينى ، هى أسرة فارسية الأصل ، وشافعية المذهب ، سفر مؤسسها بين الخلافة العباسية وصلاح الدين فى أول قيام دولته ، وكان أكبر سفراء الخلافة العباسية مسموع الكلمة لدى جميع ملوك وسلاطين الإسلام ، أنظر بعده ؛ والطريف أن هذه الأسرة كانت تجمع بين الوظائف الإدارية والدينية والعسكرية وتولى أكثر من واحد منهم الوزارة وقيادة الجيش ، وكانت تلبس زيًا يجمع بين زى العسكر وأرباب الأقلام ، وإزداد نفوذ هذه الأسرة بصفة خاصة منذ عهد السلطان الملك الكامل محمد ، لأنه كان أخوهم من الرضاع ، ولقد صبا أحدهم وهو فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى منصب السلطنة ذاته بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، أنظر بعده فصلى السلطنة والوزارة ؛ عن وظيفة شيخ الخانقاه ، أنظر تقى الدين السبكى ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٢٤ ؛ والجدير بالاهتمام أن تولى أسرة اولاد شيخ الشيوخ لكبرى الوظائف الدينية ، الخاصة بالإشراف على المنشآت والمؤسسات الصوفية قد بدأ إبان خدمتهم لنور الدين زنكى بالشام . ففى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م ، فوض نور الدين أمر الربط والزوايا والأوقاف بدمشق وحماة وحمص وبعلبك وغيرها ، إلى شيخ الشيوخ ، أبى الفتح عمر بن على بن محمد بن حمويه ، وكتب له العماد منشورًا ، وذكره فى البرق الشامى (سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٢٧٢) .

الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، والقاطنين بالقاهرة ومصر ، فإن لم يوجدوا، كانت على الفقراء من الفقهاء والشافعية والمالكية ، الأشعرية الاعتقاد[1] ، وثمة نقش أثرى هام ، من عهد السلطان العزيز عثمان ابن صلاح الدين ، يوضح أوقاف صوفية سعيد السعداء ، ويؤكد مكانتهم المرموقة[2] .

ويخبرنا المقريزى ، عن بعض شيوخه ، أنه كان لصوفية خانقاه سعيد السعداء ، رسومًا طريفة ، وموكب حافل ، فى كل يوم جمعة ، بحيث يخرجون من خانقتهم - ومكانها اليوم جامع الشيخ المطهر بشارع المعز لدين الله من ناحية حى الصاغة - يتقدمهم شيخهم ، حتى يصلون إلى جامع الحاكم بأمر الله ، وهو الذى كانت تقام به الخطبة الجامعة فى العصر الأيوبى ، فيقومون بأداء شعائر الصلاة الجامعة ، ثم يختمون القرآن ، ويقوم أحد القراء منهم بالدعاء للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، واقف الخانقاة عليهم ، ثم يعودون بنفس موكبهم الرائع - الذى كان جميع أهل مصر والقاهرة ، حتى قبيل عصر المقريزى ، يحرصون على الاصطفاف على جانبى الطريق للتفرج عليه - حتى يصلون مرة أخرى إلى الخانقاه[3] .

ولقد حالف بعض الباحثين الصواب ، حين لاحظ اعتمادًا على نصوص المقريزى أن الحياة داخل هذه الخوانق ، جديرة بأن توصف بالترف والسعه ، على أن توصف بالفقر والخشونة ، ولذلك لأن أولئك الفقراء ، كانوا يحصلون على أموال تزيد عن حاجتهم ، مع أنهم قدموا إلى الديار المصرية بغير مال ولا متاع ؛ كذلك لاحظ بدقة أن هؤلاء الصوفية لم يكونوا يعيشون لبطونهم ، بل كانوا يشتغلون دائمًا بالعلم ، وإن كان مقدار العلم الذى كان يدرس فى الخوانق ، أقل درجة من مقدار العلم الذى كان يلقى بالمدارس ، ويختتم هذا الباحث ملاحظاته الدقيقة عن الحياة داخل الخانقاه ، بأن

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ ، س ٧ - ٩ .

(٢) توجد لوحة من الخشب بمتحف الفن الإسلامى ، تتضمن النص التأسيسى بوقف قيسارية على صوفية خانقاه سعيد السعداء ، مؤرخ سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م فى عهد الملك العزيز عثمان (٥٨٩هـ/١١٩٣م - ٥٩٥هـ/١١٩٨م) . ونص هذا النقش : العزة لله وحده ، اللهم ارحم الملك الناصر صلاح الدين ، ورضى الله عنه ، الذى أنعم على الصوفية بهذه القيصرية ، وأوقفها على بقعتهم التى تعرف بدار سعيد السعداء بمحروسة القاهرة ، وأمر بهذا الباب الجديد والفتح السعيد ، سيد الملوك والعبيد ، عماد الدنيا والدين ، وسلطان الإسلام والمسلمين ، عضد الدولة القاهرة ، تاج الملة الزاهرة نظام العالم ، ملك المعالى ، الملك العزيز عثمان بن يوسف ابن أيوب ، ظهير أمير المؤمنين ، خلد الله ملكه ، فى تاريخ ربيع الأول سنة أربع وتسعين وخمسمائة (٥٩٤هـ / ١١٩٨م) وصلى الله على محمد وآله وأصحابه أجمعين (عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، ص ٣٦ - ٣٧) .

(٣) راجع هذا النص الهام عند المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ٢٧٤ .

إستدل من كون الشيوخ المقيمين بها ، كانوا من الغرباء النازحين من البلاد الأخرى بأولادهم ، فإن هذا يعنى أن النساء ، كن يقمن فى هذه الخوانق مع أزواجهن[1] .

أما الربط ، فهى جمع رباط ، وهو دار يسكنها أهل طريق الله ، واصل كلمة رباط فى اللغة ، ما تربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط ، ثم استقرت كلمة رباط ، للدلالة على بيت الصوفية ومنزلهم ، وفى رأى المقريزى ، أن اتخاذ الربط والزوايا أصل من السنة ، وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل ولا مال ، مكانًا من مسجد كانوا يقيمون به ، عرفوا بأهل الصفة ، ويلاحظ المقريزى أيضًا أن القوم فى الرباط ، سواء من المجاهدين والصوفية ، مرابطون متفقون على قصد واحد ، ومن هنا جاءت تسمية الرباط[2] ، ولقد شهد الرحالة ابن جبير ، الربط ببلاد الشام ، وأوضح أنها تكاد تتطابق فى غرضها ونظمها بالخوانق ، كما أوضح ابن جبير مدى رفاهية العيش التى يحظى بها الصوفية داخل هذه الرباطات ، والمكانة الاجتماعية المرموقة التى يتمتع بها أهل المتصوفة بحيث وصفهم بأنم « هم الملوك بهذه البلاد »[3] .

أما الزوايا ، فلم يقدم لها المقريزى تعريفًا دقيقًا وافيًا ، شأن بقية المنشآت التعليمية الخيرية ، التى أدخلها الأيوبيون مصر ، ولكن من الممكن جمع تعريف لها مما أورده المقريزى من تاريخ الزوايا الكثيرة ، التى ذكرها فى كتابه الخطط ، ويرجع أغلبها إلى العصر المماليكى ، فالزاوية مبنى صغير ، يسكنه شيخ من شيوخ الصوفية ، سواء أكان هو بانيه ، أو أن أحد السلاطين قد اعتقد فيه بعض الكرامات ، أو لمس فيه العلم والفقه ، وتبرك به ، فبنى له زاوية ، وأسكنه فيها ، وأوقف عليها بعض

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١١٠ - ١١١ وأنظر بحث عن حياة الصوفية بالهند داخل الخوانق فى العصور الوسطى :
K.L.A. Nizami: Some Aspects of Khanqah life in Medival india, Studia Islamica, VIII, 8, 1957, p. 51-70.

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٣) يقول ابن جبير : وأما الرباطات ، التى يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهى برسم الصوفية ، وهى قصور مزخرفة، يطرد فى جميعها الماء على أحسن منظر يبصر ، وهذه الطائفة الصوفية ، هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادتهم من الفكرة فى أسباب المعايش ، وأسكنهم فى قصور تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم ، قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة وسنة فى المعاشرة عجيبة وسيرتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا فى تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقًا . وبالجملة فاحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشًا طيبًا هنيئًا (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٦) .

الأوقاف للصرف عليها وعلى شيخها ، وكان المتصوف يداوم فى هذه الزاوية على تدريس علوم الفقه والحديث ، وأحياناً كان يتردد عليه أعيان الدولة ، لتلقى العلوم الشرعية عنه ، وعادة ما كان المتصوف ، يسكن هذه الزاوية ويلازمها حتى وفاته ، وعادة أيضًا ما كان يدفن بها ، ويتبرك الناس به ويتوسلون إليه فى قضاء الحاجات ، ولكن فى العصر المماليكى ، أصبحت هذه الزاوية ، مسكنًا لطوائف معينة من الصوفية ، انتموا إلى طرق صوفية محددة ، وسكنوا بأعداد كبيرة ، وتميزوا بلبس زى صوفى مميز ، قريب بزى الأعاجم ، وما لبست هذه الطرق الصوفية ، التى تركت أسماءها على زوايا أن ابتدعت بدعًا مخالفة للشريعة ، فتهاونوا فى شئون العبادات والفرائض ، على أساس أن تشدّدهم فى صفاء العقيدة وجوهر الإيمان ، يسقط عنهم الفروض والعبادات الشرعية ، وتميزوا فى هيئاتهم بحلق لحاهم ، وخالفوا سلوك مسلك التقشف ، والزهد ، الذى عرف عن الصوفية ، مما أدى التى تحامل أهل السنة ، وخاصة الحنابلة عليهم ، وإنكار مذاهبهم وطرقهم وبدعهم[1] ، ولقد نبهنا تقى الدين السبكى ، أن أغلب الزوايا ، كانت فى البرارى[2] .

والخلاصة أن الزوايا ظهرت فى العصر الأيوبى ، كمنشأة تعليمية أيضًا ، ثم ما لبثت فى العصر المماليكى ، أن تحولت إلى مراكز للطرق الصوفية ، التى أهملت التعليم ، بل أهملت الفرائض الشرعية ، وهم الذين عرفوا بعد ذلك « بالدراويش »[3] .

ولقد حدثنا تقى الدين السبكى ، عن نظم الصوفية ومجتمعاتهم داخل الخوانق والربط والزوايا، فأظهر إعجابه بالصوفية ، ودفاعه عنهم ، وفنّد آراء الأئمة المنكرين لمجتمعاتهم ، ولقد أوضح السبكى أن أحق الناس باسم الصوفية ، هم الذين يلتزمون بالعلم والزهد والتقشف بواعز من أنفسهم ، دون طمع فيما تجريه الدولة على الصوفية فى الخوانق من أطعمة ومرتبات ، فهو يقول: أعلم أن الصوفية أكثرهم لا يرضى بدخول الخوانق ، ولا التعلق بشىء من أسباب الدنيا[4] ، ولقد حدد السبكى ، مهام شيخ الخانقاه ، الذى كان يسمى بـ « شيخ الشيوخ » أو « شيخ شيوخ العارفين » ، ووصف له طرق تربية المريدين ، أو التدرج بهم فى شرح مراتب التصوف ، وعدم مصارحتهم لأول وهلة بأحوال الصوفية التى يصلون إليها بالمداومة على الصلاة والتلاوة والذكر ، بحيث يقتربون

(١) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ - ٣٠٦ .
(٢) السبكى : معيد النعم ، ص ١٢٦ .
(٣) أنظر بعده ..
(٤) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١١٩ - ١٢٣ .

من الله ، ويصلون إلى أحوال السكر ثم الكشف ، وهـي أحـوال قـد تنتهـي بـالمتصوف إلى رؤيـة اللـه سبحانه[1] .

كذلك تحدث السبكى ، عن فقراء الخوانق ونهـى النـاس القـادرين علـى التكسـب مـن منافسـة الفقراء فى سكنى الخوانق ، وجعل التصوف وظيفة يتمتع منها بـإدرارات أوقـاف الخوانـق ، كمـا نبـه السبكى على فقراء الصوفية ، عدم الاسـتكانة إلى البطالـة ، واسـتمراء العيـش الرغـد السـهل داخـل الخوانق ، ونصحهم بضرورة ترك الخوانق والضرب فى الأرض للبحث عن الرزق ، فدخـول الخانقـاه للفقير فى رأيه ، لمجرد سد الرمق ، وليس للبقاء فيها إلى الأبد[2] .

وأيضًا حدد السبكى مهام خادم الخانقاه ، فألزمه بالحرص على توفير أوقاتهم للعبادة ، كما أمره بالاحتفاظ بفاضل أقواتهم ، ووضعه فى مستحق من مسكين أوهره ونحو ذلك ، ونبه عليه بألا يرميـه ، فليس من شيمة الصوفية طرح زاد ، كما ناشده بتميز وقفهم ، ومطالعة مباشرى الأوقاف بذلك[3] .

أما شيخ الزاوية ، فعليه تهيئة الطعام للواردين والمجتازين ، ومؤانستهم إذا قدموا ، بحيث تـزول خجلة الغربة عنهم . وينصح بإفراد مكان للوارد إذا أمكن هذا ، لئلا يستحى وقت أكله وراحته[4] .

وعلى هذا النحو ، أصبح للصوفية بمصر ، نظام اعترفت به الدولة ، واحاطته بعنايتها كما كانت الدعوة الإسماعيلية فى العصر الفاطمى ، فكان الصوفية يعيشون فى الخوانق مما تدره عليهـم الدولـة ، الأمر الذى حدا بكثير من المصريين إلى اتخاذ طريق التصوف كوسيلة للحياة الدنيا ، بل منهم مـن اتخـذ التصوف مذهبًا دينيًا له[5] . فمنذ العصر الأيوبـى ، أمسـى التصـوف مـن الظواهـر اللافتـة فـى الحيـاة المصرية[6] .

وَوَشَتْ الألقاب الفخرية لسلاطين بنى أيوب ، بميلهم للتصوف ، وبغلبة الـروح الصوفيـة علـى عصرهم ، فجاء نقش مؤرخ سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م ، بقبة الإمام الشافعى ، خاص بقـبر والـدة الملـك

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٦ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٢٦ .
(٥) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر الأيوبى ، ص ٦٥ – ٦٦ .
(٦) نفس المرجع ، ص ٥٠ .

الكامل محمد : « هذا قبر .. المرحومة الفقيرة إلى رحمة ربها ، والدة الفقير إلى رحمة به ، محمد ولد مولانا السلطان الملك العادل العالم العابد ، المجاهد المرابط .. إبى بكر بن أيوب»[1] ، وجاءت ألقاب الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فى قبته بتاريخ ٦٤٧هـ/١٢٤٩م . « هذه التربة المباركة بها ضريح مولانا السلطان الملك الصالح ، السيد العالم ، العادل ، المجاهد المرابط ، المثاغر .. » [2] ، ولا يخفى أن حرص سلاطين بنى أيوب المتأخرين ، على أن يدفنوا فى قباب ، ويقام لهم أضرحة ، هو فى حد ذاته أثرًا من أثر سمو مكانة الصوفية فى أيامهم .

كذلك أفصحت النقوش الأيوبية ، عن مكانة الصوفية فى هذا العصر ، وما قاموا به من جهود فى سبيل محاربة المذهب الإسماعيلى ، ونشر علوم السنة . فلقد جاء على شاهد قبر الشيخ محمد الفارسى الصوفى بتاريخ ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م ، « هذا قبر الصدر الإمام ، الحبر الهمام ، شيخ مشايخ الإسلام ، سيد فضلاء الأنام ، إمام الموحدين ، سيد المحبين ، قدوة المحققين والعارفين ، قطب الوقت ، سر الله فى أرضه ، فخر الحق والدين ، حجة الإسلام والمسلمين ، قامع المبتدعين ، شيخ الورى ، حجة الحق على الخلق ، الغريب ، أبى عبد الله محمد بن إبراهيم ابن أبى الفوارس .. الفارسى »[3] .

وليس أدل على احتفاء سلاطين وملوك بنى أيوب ، بشيوخ وعلماء الصوفية ، من وصول أجازتان علميتان ، أجاز بهما الصوفى الأشهر ، محى الدين بن عربى[4] لملوك بنى أيوب ببلاد الشام حين زارهم ونزل فى ضيافتهم بدمشق ، الأولى أجازة إلى السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازى ،

(١) العماد : الفتح ، ص ١٤٥ ، والأدلة متعددة على ميل ملوك البيت الأيوبى إلى التصوف ، فقد حكى عن أحد أولاد الملك الكامل ، وهو الملك الأشرف موسى ، أنه أوصى أن يكفن بعد موته فى ثوب أحد الفقراء . (الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب – خ ، ورقة ٢٥) ، كما حكى عن الملك المعظم سليمان بن الملك المظفر تقى الدين عمر ، وكان ملكًا على اليمن بين عامى ٦١١هـ – ٦١٢هـ ، أنه كان فقيرًا يحمل الركوه على كتفه ، وينتقل معه الفقراء من مكان إلى مكان (الحنبلى : شفاء القلوب ، ق ١١١) .

(2) Wiet: Les Inscriptions du Mausolée de shafiei, B. I. E., Tome XV. 1932-1933, p. 175.

(3) Van Berchem: Materiau... p. 96-97, 105.

(٤) أنظر ترجمته عند ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ، الحميدى ، جذوة المقتبس ، ص ١٧٥ ، ابن حجر : لسان الميزان ، ج ٥ ، ص ٣١١ ، المَقَّرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٠٤ ، ابن الأبار: التكملة ، ١: ٣٥٦ ، أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٧٠ ، الصفدى : الوافى ، ج ٤ ، ص ١٧٣ – ١٧٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٦: ٣٣٩ – ٢٤٠ ، الذهبى : ميزان الاعتدال ، ٣: ١٠٨ – ١٠٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ٥ : ١٩٠ – ٢٠٢ ؛ وهو محمد بن على بن العربى ، أبو بكر الحاتمى الطائفى الأندلسى ، المعروف بمحى الدين بن عربى ، الملقب بالشيخ الأكبر ، ولد بمرسية بالأندلس سنة ٥٦٠هـ وانتقل إلى أشبيليه وقام برحلة ، فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز . وأنكر عليه أهل الديار المصرية " شطحات " صدرت عنه ، فعمل بعضهم على إراقة دمه ، وحبس فسعى فى خلاصة بعض مريديه فنجا ، واستقر فى دمشق فتوفى فيها سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .

ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأولاده ، ومؤرخه سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م[١] ، والثانية إلى الملك العادل أبى بكر ابن أيوب وأولاده ، ولمن أدرك حياته ، بأن يرووا عنه جميع ما رواه عن أشياخه وما ألفه وصنفه[٢] . ويبدو أن الأيوبيين ، وهم من جنس كردى[٣] ، قد شابهوا الأتراك فى ميلهم نحو التصوف[٤] ، إذ أشتهر بعض مشاهير فقهاء الأكراد ، بالميل إلى الزهد والتصوف على مذهب أهل السنة والجماعة[٥] .

ولعل فى هذه الحفاوة ، التى قوبل بها كبار الصوفية الوافدين على مصر ، من بلاد الأندلس ، مثل ابن عربى ، وبلاد فارس مثل ابن أبى الفوارس ، وما أغدقته الدولة الأيوبية على المنشآت الصوفية من رواتب وخدمات ، ما يفسر نشاط الصوفية فى مصر الأيوبية ، نشاطًا منقطع النظير ، لم تشهده البلاد من قبل ولن يتكرر مثيله بعد ذلك ، خاصة وأن كثيرًا من هؤلاء المتصوفة ، تفرد بأراء ، خلقت

(١) جاء فى أول هذه الإجازة : والحمد لله رب العالمين .. أقول وأنا محمد بن على العربى الحاتمى ، وهذا لفظى ، استخرت الله تعالى ، وأجزت السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر وأولاده ، ولمن أدرك حياتى ، الرواية عنى فى جميع ما رويته عن أشياخى ، من قراءة وسماع ، ومناولة وكتابة وإجازة ، وجميع ما ألفته وصنفته من ضروب العلم .. وما لنا من نثر ونظم على الشرط المعتبر ، وتلفظت بالإجازة عند تقييدى هذا الخط ، وذلك فى غرة المحرم سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ، بمحروسة دمشق .. ومن هذه الإجازة ثلاث نسخ خطية بدار الكتب المصرية ، برقم ٣٦٥ مصطلح ، ١٥٨ طلعت ، ١٩٩٤٥ ب ، وأنظر فؤاد سيد : فهرست المخطوطات ، المجلد الأول ، مصطلح الحديث ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م ، ص ١٢٣ ، ولقد أورد نص هذه الإجازة العياشى فى رحلته ، أنظر الرحلة العياشية ، ج ١ ، ص ٣٤٤ . وتوجد إجازة ثالثة لابن عربى للملك المعظم ، ضمن مجموعة خطية بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم ٤٦٧٩ عام ورقة ١٥ - ٢٠ .

(٢) ونص الإجازة الثانية يكاد يتطابق مع نص هذه الإجازة ومنها نسخة ضمن مجموعة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٦٣٣ مجاميع طلعت ، أنظر فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المجلد الأول ، مصطلح ، ص ١٢٣ .

(٣) البدليسى : الشرفنامة الكردية ، ص ٥٦ .

(٤) أنظر حسين مجيب المصرى ، الأدب التركى ، مجموعة كتابك رقم ٨٢ ، طبع دار المعارف ، ١٩٧٨ ، ص ١١ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٥) ذكر ابن تغرى بردى فى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م ، وفاة على بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الحافظ الفقيه الهكارى وقال : كان ينعت بشيخ الإسلام .. ، كان إمامًا عالمًا ، سمع الحديث ورواه ، وبنى أربطة ، وقدم بغداد ، وكان صالحًا متعبدًا ، شيخ بلاده فى التصوف ، وكان من أهل السنة والجماعة ؛ ولقد أفاد ابن تغرى بردى أن الهكارية جبال فوق الموصل ، فيها قرى يسكنها الأكراد ، أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٣٨ ، ومع ذلك فإننا نرى فى رأى د. محمد كامل حسين فى أن اهتمام الأيوبيين والمماليك بحركة التصوف مصدره أن الجنس الآرى يميل إلى التصوف بعض المغالاة .

تيارات فلسفية شديدة ، لم يكن للتصوف بمصر الإسلامية عهدًا بها من قبل[1] ، مثل رأى ابن عربى فى وحدة الوجود[2] ، وهو الرأى الذى قال به أغلب متصوفه مصر[3] .

كذلك شهد عصر بنى أيوب ، اشتهار بعض الصوفية المصريين المولد ، مثل ابن الفارض[4] ، الذى خلف شعرًا ، يفيض بالرقة والعذوبة ، ويجنح فى تصوفه ، إلى القول بمذهب

(١) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٦٦ .

(٢) يرى أصحاب هذا المذهب ، أن الوجود كلمة حقيقة واحدة ، وينظرون إلى الكثرة والتعدد على أنهما أمران ناجمان عن حواس الإنسان الظاهرة ، والعقل الإنسانى قاصر بطبيعته عن إدراك الوحدة الذاتية ، وقد عبر ابن عربى عن هذا المعنى بقوله :

يا خالق الأشياء فى نفسه	أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما ينتهى كونه	فيك فأنت الضيق الواسع

أى أن ابن عربى لم يفرق بين الواحد والكثير ، وبين الخالق والمخلوق ، وأنه أدرك ذلك بذوقه لعجز حواسه عن إدراكه أنظر تعليق د. أبو العلا عفيفى على الترجمة العربية .

Encyclopedie de l'Islam II: 383-384.

لدائرة المعارف الإسلامية : عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ص ١٠١ ، لطفى جمعة ، تاريخ فلسفة الإسلام ، ص ٢٧٥-٣٠٣ ، عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ، ص ٢٧٥ - ٢٨٢ .

(٣) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٤) هو عمر بن على بن مرشد بن على الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاه ، أبو حفص وأبو القاسم شرف الدين ، ابن الفارضى ، عرف بأشعر المتصوفين ، وكان يلقب بسلطان العاشقين ، لقوله بمذهب الحب الإلهى ، قدم أبوه من حماه إلى مصر فسكنها ، ولما شب عمر اشتغل بفقه الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر ، وأخذ عنه الحافظ المنذرى وغيره . ثم حبب إليه سلوك طريق الصوفية ، فتزهد وجعل يأوى إلى المساجد المهجورة فى خرابات القرافة (بالقاهرة) وأطراف جبل المقطم . وذهب إلى مكة فى غير أشهر الحج ، فكان يصلى بالحرم ويكثر العُزلة فى واد بعيد عن مكة ، وفى تلك الحال نظم أكثر شعره . وعاد إلى مصر بعد خمسة عشر عامًا ، فأقام بقاعة الخطابة بالأزهر ، وقصده الناس بالزيارة ، حتى أن الملك الكامل كان ينزل لزيارته . وتوفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م . أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٨٣ - ٤٨٤ (الطبعة القديمة) ، ابن حجر : لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٣١٧ - ٣١٩ ، الذهبى : ميزان الاعتدال ، ٢: ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ٢٨٨-٢٩٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ٥: ١٤٩ - ١٥٣ ، الخوانسارى : روضات الجنات ٥٠٥ - ٥٠٦ . وفى وجود ترجمة لابن الفارض عند الخوانسارى ما يفيد أن الشيعة كانت تعد ابن الفارض من المتشيعين لعلى ، وفى هذا ما يؤيد تأثر الصوفية المصريين بالمذاهب الشيعية ، ولقد وجد كامل حسين أبيات صريحة فى شعر ابن الفارض تؤكد تشيعة وهو يلاحظ أن ابن الفارض اعترف فى شعره فى صراحة تامة بالأئمة من نسل على بن أبى طالب وبالتأويل الباطن الذى خص به على .

« الحب الإلهى »[1] ، ولاشك انه لولا تشجيع سلاطين بنى أيوب للتصوف ، لما قدرت الأيام لابن فارض ، أن يحقق هذه الشهرة والمكانة بين متصوفى عصره .

وفى رأى كل من محمد كامل حسين وأبو العلاء عفيفى ، أن ابن عربى قد انتفع فى صياغة مذهبه بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية والقرامطة وإخوان الصفا[2] ، كما اتفقت بعض أراء محى الدين بن عربى مع أراء الإسماعيلية ، لكون مذهبه ، شأن مذهب الإسماعيلية ، يقوم على مزج الآراء والفلسفات القديمة[3] ، ولعل هذا التشابه بين مذهب ابن عربى والمذهب الإسماعيلى من ناحية المصطلحات ، كان السبب فى أن ابن عربى ، كان أشد المتصوفة أثرًا فى صوفية مصر ، فقال أكثرهم برأية في وحدة الوجود[4] ، رغم الخلاف الشديد بين رأى ابن عربى فى وحدة الوجود ، وبين رأى الإسماعيلية في التوحيد[5] ، الذى يقوم على نفى الصفات والتشبيه عن الله ويؤكد مغايرة ذاته لذوات مخلوقاته .

ويتفرد عبد اللطيف حمزة ، برأى وصفه بأنه لا يستند إلى نصوص علمية صريحة ، وإنما يستمده من المذاهب الصوفية التى انتشرت فى مصر فى العصر الأيوبى ، وهو أن التصوف كان يمثل فى هذا العصر ، نوعًا من السُمُوّ الروحى والعقلى ، فوق جميع العصبيات الدينية المختلفة التى ولدتها الحروب الصليبية ، وتجل هذا الاتجاه ، فى مذهب المعرفة - أى معرفة الله عن طريق القلب لا الحواس - ومذهب وحدة الوجود ، وكلها مذاهب تصرح بأنه لا فرق بين دين ودين ، لأن الله تعالى عام للجميع .

(١) الحب الإلهى : يعنى الفناء والاتحاد فى الذات الإلهية عن طريق المبالغة فى تهذيب النفس ومفارقة اللذات والتدرج فى مصافاة النفس ، حتى يصفوا الطبع عن البشرية ؛ ولقد تأثر ابن الفارض فى رأيه فى "الحب الإلهى" برأى ابن عربى فى وحدة الوجود ، ولقد أورد ابن حجر لابن الفارض أبيات صَرّح فيها بمذهب الاتحاد وهى :

وفى موقفى لابل إلىّ توجهـى ولكن صلاتى لى ومنى كعبتى

وعن مذهب الحب الإلهى ، أنظر محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحب الإلهى ، (ابن حجر : لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٣١٨) طبع القاهرة د.ت. ، عبد الرحمن بدوى : شهيدة العشق الإلهى ، رابعة العدوية ، طبع القاهرة مكتبة النهضة المصرية د.ت. وعن آراء ابن الفارض الفلسفية الأخرى ، أنظر أحمد فؤاد الإهوانى : مجلة الكتاب ، ج٨ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص ٦٦ ، أبو العلا عفيفى : فصوص الحكم ، ١: ٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٦٦ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٧ .

(٥) عبد اللطيف حمزة : نفس المرجع ، ص ٩٥ ، وص ٩٩ .

والطريف أنه قد واكب انتشار هـذه المذاهب الصوفيـة الفلسفية فـى مصـر ، انتشـار مذاهـب صوفية أخرى ، لا تقوم على فكر فلسفي ، ولا يتمتـع شـيوخها بقـدر مـن العلـم الشـرعى ، بـل لعـل بضاعتهم العلمية كانت أقرب إلى فكر العوام ومعارفهم منها إلى فكر العلماء وثقافتهم ، وأعنى بهؤلاء مشايخ الطرق الصوفية مثل الأحمدية المنسوبة للسيد أحمد البدوى[1] والشاذلية المنسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى[2] .

كما اشتهر بالتصـوف أيضًا فى هذا العصر بعض الفقـهاء ، مثل عبـد الرحـيم القـنائى[3] ،

(١) هو أحمد بن على بن إبراهيم الحسينى أبو العباس البـدوى ، المتصوف صـاحب الشـهرة فـى الديـار المصريـة ، أصله من المغرب ، ولد بفاس سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م ، وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة ، وزار سورية والعراق سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م ، ودخل مصر فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، فخـرج لاسـتقباله هـو وعسـكره وأنزلـه فى دار ضيافته ، وعظم شأنه فى ديار مصر ، فانتسب إلى طريقته جمهور كبير ، بينهـم الملـك الظـاهر ، وتوفى فى طنطا سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م . حيث تقام فى كل عام سوق عظيمة يفد إليها الناس مـن جميـع أنحـاء القطـر المصرى احتفاءًا بمولده ، أنظر ترجمتـه عنـد ابـن العمـاد : شـذرات الذهـب ، ٥: ٣٤٥، الشـعرانى : طبقـات الصوفية ، ١: ١٥٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ٧: ٢٥٢ ، وهو فيه أبو الفتيان ، ويعرف بأبى اللثامين السطوحى ، لأنه مكث على السطوح مدة ١٢ سنة ، وأنظر K. Vollers دائرة المعارف الإسـلامية ، الترجمـة العربيـة ، ج ١ ص ٤٦٥ – ٤٧٢ ، وأنظـر إبراهيـم أحمـد نـور الديـن : حيـاة السـيد البـدوى ، طبـع مصـر ١٩٥٨، سعيد عاشور : السيد أحمد البدوى ، طبع القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧ .

(٢) هو على بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمـز الشـاذلى العربـى ، أبـو الحسـن رأس الطائفـة الشـاذلية ، ولد فى غمازة ، من قرى أفريقية سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م ، وتفقه وتصوف بتونـس ، وسـكن شـاذلة ، فنسـب إليها ، وطلب الكيمياء فى ابتداء أمره ، ثم تركها ورحل إلى بلاد المشرق ، فحج ودخـل العـراق ، ثـم سـكن الإسكندرية . وتوفى بصحراء عيذاب فـى طريقـه إلى الحج . وكـان ضريـرًا ينتسـب إلى الا دارسـه أصحـاب المغرب أخبره بذلك أحد شيوخه عن طريق المكاشفة ، وقد أنكر ذلـك الحـافظ الذهبـى قـائلاً : نسـب مجهـول لا يصح ولا يثبت ، كان أولى به تركـه . أنظر ترجمته عنـد الصفـدى : نكـت الهميـان فـى نكـت العميـان ، ص ٢١٣ ، الشعرانى : طبقات الصوفية ، ٢: ٤ ، الزبيـدى : تاج العـروس ، ٧: ٣٨٨ ، وأنظـر علـى سـالم عمار : أبو الحسـن الشـاذلى ، والواقـع أن كـل مـن الطائفـة الأحمديـة والشـاذلية قـد تأثرتـا بالطائفـة الرفاعيـة التى ظهرت بـالعراق والسـيد أحمـد البـدوى نفسـه زار العراق واحتـك بالرفاعيـة ، أنظـر عـن ترجمـة القطـب الرفاعى ، سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٧٠ .

(٣) هو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون بن محمد القنائى ، مغربى الأصل ، ينتهى نسبه إلى الإمام جعفـر الصـادق ، مولده فى إحدى قرى سبته سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م ، أقـام بمكـة سـبع سـنين ، واسـتقر فـى قنـا بصعيـد مصـر الأعلى ، وقبره فيها . أنظر ترجمته عند الأدفوى : الطالع السعيد ، ص ١٥٦– ١٦٦ ، على مبـارك : الخطـط التوفيقية ، ج ١٤ : ١٢٢ . والملاحظ أن كل من السيد البدوى وأبو الحسن الشـاذلى وعبـد الرحيـم القنـائى ينتسبون إلى الأشراف العلويين . وأن ثلاثتهم قد وفدوا إلى مصر من بلاد المغرب .

وأبى الحسن ابن الصباغ[1] ، فلا ريب أن خلفت هذه الاتجاهات الصوفية المختلفة المشارب والاتجاهات ، أثرا ملحوظًا فى الحياة الأدبية والعقلية فى العصر الأيوبى[2] .

ولكن مع كل هذا الاهتمام الذى أبداه الأيوبيون فى تشجيع التصوف ، ورعاية الصوفية ، وإنشاء المؤسسات الخاصة بهم التى تشرف عليها الدولة . وتخصص لها من الأوقاف ، ما يكفل لها الاستمرار والبقاء ، ويحقق للصوفية الحياة الرغدة الكريمة ، ومع ما قوبل به مشاهير الصوفية الوافدين على مصر والشام فى ذلك العصر بالحفاوة والترحاب ، ومع ما حظى به الصوفية من مكانه مرموقة لدى ملوك وسلاطين بنى أيوب ، فإننا على العكس نجد السلطات الأيوبية ، تُبادل بعض فرق الصوفية العداء السافر ، وتسعى فى إبادة اتباعها والتمثيل برؤسائها .

وينسحب هذا الموقف العدائى للإيوبيين ، تجاه بعض الصوفية ، على الفرقة الكيزانية[3] ،

(١) هو على بن حميد بن إسماعيل بن يوسف، أبو الحسن بن الصباغ القوصى ، توفى بعد سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، وصفه الأدفوى بشيخ الدهر بلا منازع ، صاحب المعارف والعوارف والكرامات المشهورة . أنظر ترجمته عند الأدفوى : الطالع السعيد ، طبع الهند ١٩٦٦ ص ٣٨٣ - ٣٨٧ ، الذهبى : دول الإسلام ، ٢: ٨٧ ، اليافعى : مرآة الجنان ٤: ٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٥: ٥٢ ، وأنظر على صافى حسين : الأدب الصوفى فى مصر ، ابن الصباغ القوصى ، شيخ التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٦٨ - ٨٥ ، عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١٢٠ - ١٤٦ .

(٣) هى تنسب إلى محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرج الكنانى المقرىء الأديب الشافعى المصرى ، المعروف بابن الكيزانى ، واعظ وشاعر مصرى ، كان معتزليًا ومع ذلك فقد كان يقول بمذهب التشبيه على عكس المعتزلة ، كما كان يقول أن أقوال العباد قديمة . توفى بالقاهرة سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م . قال ابن خلكان : دفن بالقرب من قبة الإمام الشافعى ، بالقرافة الصغرى، ثم نقل إلى سفح المقطم ، وقبرة مشهور هناك يزار ، وزرته مرارًا . وقال العماد الأصفهانى : فقيه واعظ .. عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع .. وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، إلا أنه مبتدع مقالة ضل بها اعتقاده .. وادعى أن أفعال العباد قديمة ، والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة ، .. توفى بمصر سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م ، والكيزانية بمصر فرقة منسوبة إليه ويدعون قدم الأفعال وهم أشباه الكرامية بخراسان . وقال ابن سعيد المغربى : كان من عباد الفسطاط الملازمين للقرافة وجبل المقطم ، وكان مذهبه الاعتزال . وقال القفطى : رأيت فى بعض المجاميع أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، لقى ابن الكيزانى بمصر لما طلع فى نصرتها ، وقبل أن يلى على مملكتها ، واستكتبه جزءًا من شعره ، وفى نص القفطى ، الذى أورده أيضًا العماد الأصفهانى ، ما يفيد محاولة صلاح الدين ، قبل توليه الوزارة استمالة ابن الكيزانى ، الذى كان شيخًا لأكبر طريقة صوفية فى مصر ، تحظى بعطف الخلفاء الفاطميين ، أنظر عن ترجمة ابن الكيزانى : العماد الأصفهانى : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، ج ٢ ، ص ١٨ - ٤٠ ، وهى ترجمة مطولة فيها مختارات كثيرة من شعره ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، طبع بيروت ، ج ٤ ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ ، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، السفر الرابع ، نشر تلكوست ص ٩٣ ، القفطى : المحمودون من الشعراء ، تحقيق حمد الجاسر ، ص ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨: ٢٥٤ - ٢٥٥ ، الصفدى : الوافى ، ٢: ٢٤٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٦: ٩٥ ، الذهبى : العبر ٤: ٢٣٨ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ٤: ٧٥ ، ابن العماد : الشذرات، ٤: ٢٦٦ ، وأنظر على صافى حسين : ابن الكيزانى ، طبع دار المعارف .

إذ عملت السلطات الأيوبية بتحريض من الفقيه السنى الشافعى المتعصب الخبوشانى على قتل اتباع هذه الطائفة ، وإخراج رفات ابن كيزان ، رئيس طريقتهم والتمثيل بها[1] ، وأغلب الظن أن تفسير هذا المسلك العنيف مرده إلى ميل هذه الفرقة للمذهب الإسماعيلى ، والدعوة الإسماعيلية ، خاصة وأنها نعمت بعطف خلفاء الفاطميين المتأخرين[2] ، شأنهم شأن الكرامية ، وهم أيضًا من صوفية الشام ، قالوا بمقالة قريبة الشبه من مقالة الكيزانية ، بخصوص القول بالتجسيم بالنسبة للذات الإلهية وحظوا بعطف الفاطميين ثم الأيوبيين[3] .

وأغلب الظن أن مقتل السهرودى[4] ، الفيلسوف المتصوف على أيدى الأيوبيين[5] ، أيضًا ، وهو صاحب الفلسفية الإشراقية[6] ، كان بسبب تشيعه أيضًا وتعاطفه مع الدعوة الإسماعيلية[7] .

(١) قال سبط ابن الجوزى فى ترجمة الخبوشانى : كان يلقب بالنجم بالديار المصرية ، وأظهر الناموس ، ونفق على السلطان (صلاح الدين) وأهله ، وأعطاه السلطان مالاً فبنى به المدرسة التى إلى جانب الشافعى ، وكان كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات ، ومازالت الفتن قائمة بينه وبين الحنابلة وابن الصابونى وزين الدين بن نجيه، ويكفروه ويكفرهم ، وكان طائشًا مهمومًا ، نبش ابن الكيزانى ، وأخرج عظامه من عند الشافعى .. وكانت وفاته فى صفر (٥٨٧هـ / ١١٩١م) وسكنت واصطلح الناس .. وولى بعده تدريس مدرسة الشافعية ، شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه . (سبط ابن الجوزى : مرآة ج ٨: ٤١٤ - ٤١٥) . وواضح من ترجمة سبط إبن الجوزى للخبوشانى ، أنه متحامل عليه لعداوته للحنابلة لأنه من مشاهير الحنابلة بل كان جده أبو الفرج ابن الجوزى من كبار مشايخهم ؛ وواضح أن عداء الخبوشانى للحنابلة بمصر وللكيزانية ، مرجعه إنه - كما تقدم نقلاً عن نقش قبره - من أنصار العقيدة الأشعرية ، ومن ثم فهو يعادى من يقول بالتشبيه مثل الحنابلة والكيزانية ؛ والجدير بالالتفات أن سبط إبن الجوزى قد أثنى على زهد ابن الكيزانى ومدح شعره عندما ترجم له أنظر ، مرأة ، ج ٨: ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) أنظر محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٥٩ - ٦٣ وهو يفيد أن ابن الكيزانى كان أول من أظهر من الشعراء والصوفية المصرية مذهب الحب الإلهى ، ولحن لا نستبعد أن يكون ابن الفارض من تلامذة ابن الكيزانى أو من أتباع فرقته ، لأنه كان - كما أسلفنا اعتمادًا على ترجمته عند الخونسارى فى روضات الجنات - شيعيًا ، كما أنه قال بمذهب ابن الكيزانى فى الحب الإلهى .

(٣) صرح العماد الأصفهانى بأن الكيزانية هم أشباه الكرامية بخراسان (الخريدة ٢: ١٩) وقد أفاد المقدسى أن الكرامية قد حظوا بعطف الفاطميين بالشام ، أنظر أحسن التقاسم ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وعن تسامح صلاح الدين مع الكرامية بالشام ، أنظر محمد زاهد الكوثرى : مقدمة كتاب تبين كذب المفترى ، فيما نسب للإمام أبى الحسن الأشعرى ، لابن عساكر ، ص ١٦ . وأنظر قبله .

(٤) هو يحى بن حبش بن أميرك ، أبو الفتوح ، شهاب الدين السهرورى . ولد بسهرورد بعراق العجم ، سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م ، وسافر إلى حلب ، فنسب إلى فساد العقيدة ، فأفتى العلماء بإباحة دمه ، فسجنه الملك الظاهر غازى ، وخنقه فى سجنه بقلعة حلب ؛ أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢: ٣٤٥ - ٣٤٨ (الطبعة القديمة) ، ياقوت : معجم الأدباء ، ١٩ : ٣١٤ - ٣٢٠ ، ابن حجر : لسان الميزان ، ٣: ١٥٦ - ١٥٨ ، الصفدى : الوافى ، ٢: ٣١٨ - ٣٢٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ٦: ١١٤ - ١١٥ ، ابن العماد : شذرات ، ٤: ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٥) ابن شداد : النوادر ، ص ١٠ ، س ٣ - ٧ وأنظر قبله .

(٦) مصطفى حلمى : من أين استقى السهرورى فلسفته الإشراقية ، حولية كلية الأداب ، جامعة القاهرة .

(٧) أنظر قبله ؛ والذى نلاحظه هنا أن الشهرورى ، قد نشأ فى عراق العجم وهو موطن قديم للشيعة ، كما استقر عند مجيئه إلى الشام فى حلب ، وهى أقوى معاقل الشيعة بالشام ، أنظر قبله .

ولقد أدرك بعض المتخصصين فى التصوف[1] ، أن دعاة الإسماعيلية ، قد استغلوا بعض مشايخ الطرق الصوفية الذين عرفوا بالدراويش ، لمحاولة نشر التشيع فى مصر مرة أخرى ، وإعادة الدولة الفاطمية ، وكان أشهر هؤلاء الدعاة ، الصوفى الشهير السيد أحمد البدوى ، الذى يظن أنه صاحب المقام الشهير بمدينة طنطا ؛ ولا شك أن السلطات الأيوبية ، لم تكن غافلة عن هذه المحاولات الخفية ، التى عمد الإسماعيلية عن طريقها ، إلى استغلال حركة التصوف لإعادة نشر الدعوة الإسماعيلية بمصر .

وهذا أمر غير مستبعد فى الواقع ، لأن المصريين فى العصر الفاطمى ، كانوا يهرعون إلى دعاة الإسماعيلية ، ويستغيثون بالأئمة عندما تحل بهم نوائب الدهر ، اعتقادًا منهم بأن الأئمة ملاذ كل مستغيث ، كما تأمرهم العقيدة الإسماعيلية ، ولكن فى العصر الأيوبى والمماليكى ، لم يجد المصريون هذا الملاذ ، فاتجهوا إلى شيوخ الطرق الصوفية[2] .

ومن هنا يتضح ، كيف حاول الأيوبيون ، استغلال التصوف ، فى نشر علوم السنة ومحاربة المذهب الإسماعيلى ، فى نفس الوقت ، الذى حاول فيه دعاة الإسماعيلية بث الدعاة فى مسوح الصوفية والدراويش ، لإعادة نشر الدعوة الإسماعيلية بمصر ، وإن كان النصر جاء فى صالح العقيدة السنية ، بحيث أنزوت العقيدة الإسماعيلية وتلاشت تدريجيًا من مصر .

أيا كان الأمر . فلقد كان لحركة التصوف التى عاشتها مصر فى العصر الأيوبى والمماليكى ، وجهان ، وجه إيجابى تمثل فى نشر علوم السنة ، والنهوض بالطبقات الفقيرة ، ونشر الحماس الدينى للجهاد بين الناس ، وإثراء الحركة الفكرية والأدبية فى هذين العصرين ، إلى جانب بث المثل الأخلاقية الإسلامية بين الناس[3] . ووجه سلبى تمخض عن استقواء النفوذ السياسى والاجتماعى للطرق الصوفية والدراويش ، الأمر الذى أدى إلى تدهور المجتمع المصرى فى نهاية العصر المماليكى[4] ، وإبان العصر العثمانى[5] . والواقع أن سلبيات التصوف ، وتردى الصوفية فى مذاهب العوام ، وجهل

(١) راجع محمد فهمى عبد اللطيف : السيد أحمد البدوى أو دولة الدراويش ، القاهرة ١٩٥٨م .

(٢) محمد كامل حسين: دراسات فى الشعر، ص ٦٥ . وفى رأينا أن ظهور علم المعاملات والحقائق عند الصوفية، كان رد فعل للمذاهب الباطنية فى الفكر الإسماعيلى ، أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٣) عن دور التصوف فى الأدب والأخلاق ، فى التراث الإسلامى ، وإثر ذلك فى المجتمع الإسلامى ، راجع زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ، ج ١ - ٢ طبع المكتبة العصرية ببيروت ، د.ت. والواقع أن كثيرًا من الصوفية فى العصر الأيوبى والمماليكى الأول كانوا يصاحبون الجيوش الإسلامية ويشتركون فى الجهاد ، أنظر قبله وليس أدل على ارتباط التصوف بالجهاد فى ذلك العصر ، مما ذكره سبط فى ترجمة الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن ، الذى تصدى لحركة الاسترداد المسيحى بالمغرب والأندلس إذ وصفه بأنه كان لابسًا للصوف ، مجاهدًا فى سبيل الله ، سبط : مرآة ج ٨ ، ص ٣٧٤ .

(٤) أنظر سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .

(٥) توفيق الطويل : التصوف فى العصر العثمانى .

بعضهم بعلوم الدين ، وركونهم إلى البطالة والتواكل ، ظاهرة اجتماعية ظهرت على استحياء فى العصر الأيوبى ، وإن قابلها الفقهاء والأدباء بالنقد اللاذع[1] .

رصد الأحباس والأوقاف للمنشآت الخيرية والتعليمية :

واقترن بنشر الأيوبيين للمنشآت التعليمية والخيرية السنية بمصر ، كثرة وقف الأوقاف والأحباس على هذه المنشآت التعليمية والخيرية السنية بمصر ، سواء من قبل الحكومة[2] ، أو من قبل الأفراد ، مثل كبار الأمراء والموظفين ، أو من التجار وغيرهم من أغنياء الشعب المصرى[3] ، بحيث أصبح الوقف ظاهرة تسترعى النظر فى العصر الأيوبى[4] .

(١) شايع سبط : وهو فقيه حنبلى ، جده أبو الفرج ابن الجوزى ، فى حملته الشعواء على الصوفية ، كما أظهرها فى تاريخه المسمى المنتظم . إذ عمد سبط على وصفه الصوفية بأنهم أصحاب طريقة ، وأنهم " يدعون المعرفة " و " المكاشفة " و " علوم الباطن " وأنهم عارون من علوم الشريعة ، أنظر : مرآة الزمان ، ٨: ٧ ، ٤٩، ٩٥، ١٣٨ ، وإن عمد أحيانًا إلى تفنيد اتهامات جدة التى اشتط فى توجيهها للصوفية ، أنظر مرآة ، ٨ : ١٣٩ ، أما الأديب الساخر ركن الدين الوهرانى ، فهو فى الواقع من أول النقاد الاجتماعيين الذين أدركوا خطورة ظاهرة " الدروشة والدراويش " فى تدهور المجتمعات وتواكلها واستسلامها للبطالة والأوهام فكتب فى مقاماته يسخر من عوام الصوفية متخيلاً رؤية رآها فى منامه ؛ جمعت النبى صلى الله عليه وسلم بهم ، فيقول الوهرانى : فلما انتهى " النبى صلى الله عليه وسلم " إلى شاطىء المشرعة ، وقف عندها فتقدمت إليه الصوفية من كل مكان وعلى أيديهم الأمشاط وأخله الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال صلى الله عليه وسلم من هؤلاء فقيل له : هؤلاء قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم فتركوا المعايش وانقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فبماذا ينفعون الناس أو يعينون بنى أدم ، فقيل له : والله ولا بشىء البته فساق ولم يلتفت إليه (المقامات والمنامات ص ٤٨ - ٤٩) وفى مقامة أخرى يوجه الوهرانى حديثه اللاذع، لشيخ من شيوخ الصوفية لقيه فى القرافة . البس مرقعتك الملونة وعبائتك الصوف ، واركب حمارك القصير ، وشق أسواق مصر والقاهرة واخدع الناس بلطف سلامك وكلامك وغرهم بسالوسك (السالوس ثوب من الكتاب يلبسه الصوفية) وناموسك وعلمهم بلطف اختيالك كيف يكون النصب والمحال (الوهرانى : المنامات ص ٨٨) .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، وأنظر نسخة توقيع من العصر الأيوبى بتدريس مدرسة والنظر عليها ، والتحدث على أوقافها وسائر متعلقاتها عند القلقشندى : صبح ج ١١: ٣٤ - ٣٧ ، ولقد نص المقريزى على أنه وقف بنفسه على حجة وقف المدرسة السيوفية التى أوقفها صلاح الدين ونقل شبروط الوقفية ؛ الخطط ، ٤ : ١٩٦ . كما أورد أيضًا شروط حجة وقف الخانقاه الصلاحية ، الخطط ج ٤ ، ص ٢٧٥ وفى سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م حبس الملك العزيز ناحية الخربة من المنوفية على زاوية الإمام الشافعى بالجامع العتيق بمصر ، وفوض تدريسها إلى البهاء ابن الحميرى ، (المقريزى : السلوك ، ١: ١٢١) .

(٣) نفس المصدر : ج ٤، ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ .. إلخ . ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٥، ص ٥ - ٧ .

(٤) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، ص ٦٣ .

والجدير بالالتفات ، أنه منذ العصر الفاطمي ، أفردت الأوقاف بديوان مستقل ، لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية كما لاحظ المقريزي ، واسندت مهمة الإشراف على هذا الديوان إلى قاضي القضاه الفاطمي[1] ، في حين ظلت الأوقاف بمصر ، منذ الفتح الإسلامي ، وحتى عهد الفاطميين ، في أيدى المستحقين أو نظار الوقف ، حسب شروط الواقف[2] ، دون أى تدخل أو إشراف من الدولة ، رغم كثرة هذه الأوقاف ، ولما زالت الدولة الفاطمية ، واستقرت دولة بني أيوب ، أضيفت الإحباس أيضًا إلى القاضي[3] ، وذلك حين أضافها صلاح الدين إلى قاضية ابن درباس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[4] ، وحين صرف ابن درباس عن القضاء ، ثم أعيد إليه في سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م ، استمرت الأحباس ضمن ولايته بالإضافة إلى الخطابة والحسبة ودار الضرب[5]، كذلك أسند الأيوبيون بالشام نظر الأحباس إلى قاضي قضاة الشام[6] .

وفي رأينا أن إفراد الأوقاف بديوان ، وجعلها تحت إشراف الدولة ، وإدخالها في جملة ولاية قاضي القضاة في العصرين الفاطمي والأيوبي ، يشير إلى أن كلتا هاتين الدولتين ، اللتين قامتا على أساس مذهبي ، قد استخدمتا الأوقاف كوسيلة لاجتذاب المصريين إلى مذهب الدولة ، وذلك لأن قاضي القضاة ، كان في العصر الفاطمي المشرف الأعلى على الدعوة الإسماعيلية بمصر[7] ، ثم أصبح في العصر الأيوبي ، المشرف الأعلى على المدارس السنية بمصر ، التي حلت محل الدعوة الإسماعيلية[8] ، بمعنى أن الدولة الفاطمية ، قد استخدمت الأوقاف لاجتذاب المصريين للدعوة الإسماعيلية ، في حين استخدمة الدولة الأيوبية الأوقاف لاجتذابهم للدعوة السنية .

(١) المقريزي : الخطط : ج ٤ ، ص ٨٣ .
(٢) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص ٤٨ .
(٣) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، س ٢٢ - ٢٣ .
(٤) ابن حجر : رفع الأصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ، س ٩ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١٥ .
(٦) أنظر ابن شداد : ملجأ الحكام عند التباس الأحكام مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦ فقه شافعي م ، البابين قبل الأخيرين من الكتاب ، المتعلقين بـ " الأوقاف " و " أموال الأيتام " المحفوظة وثائقها في مجلس القاضي . وقد ذكر المقريزي في حوادث سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م أنه وصل إلى (الملك العزيز عثمان) القاضي محي الدين أبو حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبي عصرون ، فاحترمه ، وولاه قضاء الديار المصرية ، وضم إليه نظر الأوقاف ، المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١١٨) .
(٧) ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٤٠ وما بعدها .
(٨) أنظر السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٩ ، سجل تقليد القاضي ابن بندار .

ويؤيد ما ذهبنا إليه ، ما ذكره المقريزى ، أنه منذ العصر الفاطمى ، أصبح من مهمة قاضى القضاة تفقد أحوال المساجد والجوامع قبيل شهر رمضان ، للتأكد من سلامة مرافقها ، وحسن رعاية القائمين عليها لها ، وقيامهم بواجباتهم فى خدمة المساجد ووعظ المترددين عليها ، وإقامة شعائر الصلاوات خير قيام[1] ، ولا شك أن هذا الأمر ينسحب أيضًا على العصر الأيوبى ، إذ كانت المساجد فى جميع أرجاء القطر المصرى ، تابعة لديوان الإحباس ، مسجلة فى سجلاته ، حيث قام النابلسى بحصر أسماء جميع مساجد وجوامع بلاد الفيوم ، اعتمادًا على سجلات ديوان الأحباس ، وذلك لأنه أراد التمييز بين المساجد التى تقام بها صلاة الجمع ، من المساجد القاصرة على الصلاوات الخمس ، وأيضًا لتميز المساجد العامرة مقامة الشعائر ، من المساجد التى تسرب إليها الإهمال ، فهدمت وتعطلت منها الشعائر[2] ، وهذا ما تقوم به وزارة الأوقاف بمصر ، فى يومنا هذا .

كذلك فإن فى إفراد الأحباس بديوان مستقل ، وجعله تحت إشراف قاضى القضاه ، تفسيرًا لما لاحظه الباحثون ، من أن الأوقاف أصبحت تمثل موردًا من موارد الدولة فى العصرين الفاطمى والأيوبى[3] ، خاصة وأن هذه الملاحظة ، قد استوقفت من قبل الرحالة الأندلسى ابن جبير[4] ، وقدم لنا أبى مماتى[5] والنابلسى[6] ، تفاصيلاً وافية بصددها .

وترجع الأصول الأولى لارتباط الأوقاف بالمنشآت التعليمية والخيرية ، التى أقيمت لنشر علوم السنة ، إلى علماء ودعاة المذهب الأشعرى ، الذىأنشأوا الكثير من هذه المنشآت السنية ، وخاصة فى بلاد العراق ، وبلاد أفغانستان (غزنة) وإيران (نيسابور وخراسان) إبان العصرين الغزنوى والسلجوقى ، وأوقفوا عليها أوقافًا من أموالهم الخاصة ، وكانت هذه المنشآت الأهلية ، بجوار منازلهم ، بحيث كان هؤلاء العلماء مثل أبو بكر بن فورك ، وأبى حامد الغزالى ، يجلسون فيها

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٨٤ .
(٢) النابلسى : إظهار صنعة الحى القيوم : ص ٢٠ – ٢٢ .
(٣) حسنين ربيع : النظم المالية ، ص ، محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٥٢ .
(٤) يقول ابن جبير عن ثغر الإسكندرية : وأما أهل بلدة ، ففى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيفة البتة ، ولا فائدة للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسة المعينة من قبل لهذه الوجوه ، وجزية اليهود والنصارى ، وما يطرأ من زكاة العين خاصة ، وليس له منها سوى ثلاثة أثمانها والخمسة أثمان مضافة للوجوه المذكورة (ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦) .
(٥) أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٥٦ – ٣٥٧ ، ص ٣٥٦ هامش "٢" ففيه زيادة قيمة جدًا عن إحدى النسخ المخطوطة فى تعريف نظام الإحباس فى العصر الأيوبى .
(٦) النابلسى : إظهار صنعة الحى القيوم ، ص ٢٥ ، النابلسى : لمع ، ص ٢٥ ، حيث يقول أن ديوان الإحباس يدخل فى ديوان المال وأحد فروعه .

بأنفسهم لتدريس علوم السنة ، والوعظ الصوفى على المذهب الأشعرى[1] . وكان الوزير السلجوقى نظام الملك ـ وهو أيضًا أشعرى المذهب[2] ، هو أول من جعل من نظام الوقف[3] ، نظامًا حكوميًا ، تصرف منه الحكومات السنية ، على المنشآت التعليمية والخيرية ، التى تدرس علوم السنة .

ولقد تبلور نظام الوقف ، كنظام حكومى ، تشرف عليه الحكومات السنية ، وتصرف من ريعه على رعاية المنشآت التعليمية والخيرية ، وإصلاح ما تطرق إليه الخلل من مبانيها ، إلى جانب ترتيب المرتبات والجرايات على الأساتذة والطلبة بالمدارس ، وعلى الخطباء والمقرئين والمؤذنين والقومة ، بالمساجد والمشاهد ، فى العصرين السلجوقى[4] والزنكى[5] وأغلب الظن أن الأوقاف الحكومية ، كانت تمثل موردًا هامًا من موارد الدولة ، فى هاتين الدولتين ، وخاصة وأن ثمة نصوص من العصر الزنكى ، تؤيد هذا الترجيح[6] .

وهنا يستوقفنا أن الأيوبيين ، كانوا هم أول من أنشأوا ديوان للزكاة فى تاريخ مصر الإسلامية[7] ، على أساس أن تتولى الدولة جباية الزكاة ممن تجب عليهم أداءها ، لتوفر الشروط

(١) أنظر ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢ .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٠٠ ، ١٠٩ حيث يقول ص ١٠٨ - ١٠٩ سُبَّ حزب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى دولة السلطان طغرلبك ووزارة أبى نصر منصور بن محمد الكندرى ، وكان السلطان حنفيًا سنيًا ، وكان وزيره معتزليًا رافضيًا ، فلما أمر السلطان بلعن المبتدعة على المنابر فى الجمع ، قرن الكندرى للتسلى والتشفى اسم الأشعرية بأسماء أرباب البدع وامتحن الأئمة الأماثل .. ، فلم يكن إلا يسير حتى تقشعت تلك السحابة ، وتبدد بهلك الوزير شمل تلك العصابة ، ومات ذلك السلطان ، وولى ابنه ألبأرسلان ، واستوزر الوزير الكامل ، والصدر العالم العادل ، أبا على الحسن بن على بن إسحاق (نظام الملك) ، فأعز أهل السنة وقمع أهل النفاق ، وأمر بإسقاط ذكرهم من السب .. ، واسترجع من خرج منهم إلى وطنه ، وبنى لهم المساجد والمدارس ، وعقد لهم الحلق والمجالس ، وبنى لهم الجامع المنيعى فى أيام ولد ذلك السلطان .. فاستقام فى وزارته الدين وصفا عيش أهل السنة . وعن سياسات نظام الملك أنظر يحى الخشاب ، الوزير نظام الملك ووحدة المسلمين ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الثانية ، العدد الثالث ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م ص ٣١٣ - ٣١٧ .

(٣) قال البندارى عن نظام الملك : ومن وجد فى بلدة قد تميز وتبحر فى العلم ، بنى له مدرسة ووقف عليها وقفًا وجعل فيها دار كتب .. وكان ينظر فى الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء ويشدد فى أمرها ويخوف من وزرها . ويرغب فى أجرها ، ويكلها إلى الأمنة ، ولا يدعها مأكله للخونة . (البندارى : تاريخ آل السلجوقى ، ص ٥٤ - ٥٥) .

(٤) أنظر الراوندى : راحة الصدر ، ص ١٦٠ ، ١١٩ ، ١١٣ ، ١٠٤ ، وأنظر قبله .

(٥) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ١: ق ٢ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٠ ، سبط مرآة ، ٨: ١٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ابن واصل : مفرج ، ١: ٢٨١ ، ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٦) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٠٨ .

(٧) المقريزى : الخطط ، ص ١٧٤ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ٤٨ .

الشرعية فيهم ، وانطباق الظروف الشرعية التى نصت عليها الشريعة ، بخصوص الأموال التى تجب عليها الزكاة ، ثم تتولى الدولة صرف أموال الزكاة فى وجوهها الشرعية[1] ، وأهم أوجه صرف الزكاة ـ كما هو معروف ـ هو للأيتام والمساكين وأبناء السبيل ، وهو ما ينسحب على مكاتب الأيتام التى أنشأها الزنكيون والأيوبيون[2] ، وعلى ما أنشأوه من خوانق ، ومدارس للغرباء الوافدين[3] على البلاد ، الذين ينطبق عليهم تعريف « أبناء السبيل » .

ولا يخفى أن كلاً من « فريضة الزكاة » ، و « نظام الوقف » ، قصد بهما فى النظم الإسلامية ، تحقيق التكافل الاجتماعى ، بين الأغنياء والفقراء ، وضمان توفير ضروريات أسباب المعايش مثل التعليم والرعاية الصحية والطعام والملبس والكساء ، للفقراء والمحتاجين والعاجزين عن العمل ، مثل المرضى والأيتام والأيامى ، فليس من قبيل المصادفة وحدها أن يتجه الأيوبيون ، وهم مؤسسو دولة جديدة ، راغبين فى نشر عقيدة جديدة أيضًا ، وهى العقيدة السنية ، إلى الاهتمام بالزكاة والوقف ، وجعل هذين الموردين الهامين ، فى خدمة المنشآت التعليمية والخيرية التى أنشأتها الحكومة الأيوبية بمصر ، بغرض نشر علوم السنة .

ولعلنا لا نعدو الصواب ، إذا قلنا أن إفراد الزكاة بديوان خاص ، قد تم على يد نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، إذ تذكر المصادر ، أن صلاح الدين قد حكمه فى جميع الخزائن[4] ، كما أفاد الوهرانى ، وهو معاصر لقدوم نجم الدين أيوب بالشام ، أنه عمد فى نشر المذهب السنى بمصر ، ومحو بدعة التشيع وعقيدة الفاطميين ، إلى كثرة إخراج الصدقات وتعميم النفقات فى الناس[5] . كما تحدث الوهرانى أيضًا عن ديوان الزكاة كظاهرة أصبح لها صداها فى الحياة الاجتماعية ، فى ذلك الوقت[6] ، والراجح أن ديوان الزكاة فى العصر الأيوبى بمصر ، قد نظم على نحو ما كانت عليه « دار الزكاة »[7] فى العصر الزنكى ؛ ومن هنا يتضح أن أغلب وسائل نشر العقيدة السنية ، ومحو العقيدة الإسماعيلية من مصر . قد تمت على يد والد صلاح الدين ، بعد قدومه من الشام سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، ولا ريب أن قدومه كان بتكليف من نور الدين زنكى ، كما رجحنا من قبل .

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠٨ – ٣١٧ .
(٢) أنظر قبله .
(٣) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥ الذى يفيد أن السلطان بنى مدارس ومستشفيات للغرباء المغاربة وأوقف عليها أوقاف ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ : ٢٧٥ ، الذى يفيد أن صلاح الدين أوقف خانقاه سعيد السعداء على الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة والقاطنين بالقاهرة ومصر .
(٤) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٨٦ .
(٥) الوهرانى: المنامات والمقامات ، ص ١٤ ، يقول : وتفجرت يمينة بالنفقات ، حتى عم أهل الأرض بالصدقات.
(٦) الوهرانى : المنامات ، ص ٨٣ .
(٧) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، س ٧ .

ومما يؤكد اعتماد الأيوبيين على ديوان الأحباس ، كوسيلة من وسائل نشر الدعوة السنية أن ناظر هذا الديوان ، كان هو الذى يتولى تقدير رواتب أساتذة المدارس ، ويقوم بدفعها لهم من أموال الأوقاف ، وكان صاحب ديوان الأحباس هو الموظف الوحيد فى الدولة ، الذى كان له حق صرف المرتبات والأموال اعتمادًا على توقيعه الشخصى ، دون رفع الأمر إلى السلطان لأخذ توقيعه « العلامة السلطانية » ، شأن الحال بالنسبة للموظفين الماليين بالدولة ، بل كان من حق صاحب ديوان الأحباس ، زيادة ونقصان مرتبات الأساتذة المدارس والطلبة المترددين عليها ، والقومة القائمين على العناية بها ، بقدر ما يرى فيه الصالح العام[1] .

فلا غروا أن اشترط فى ناظر ديوان الأحباس ، أن يكون من العلماء المتفقهين فى الدين ، ليستطيع الفصل فى المسائل الفقهية التى قد تطرأ على أحوال الأوقاف ، أو على أحوال المستحقين فى ريعها[2] ، ولا غرو أن تمتع ناظر ديوان الأوقاف فى العصر الفاطمى برتبة ، كانت تزاحم قاضى القضاه نفسه ، بل كثيرًا ما كانت تحدث المنافسة فيما بين الإثنين ، لنوال الحظوة والمكانة المرموقة ، فى المجلس العام للخليفة الفاطمى ، عند الاحتفال بالمواسم والأعياد[3] ؛ ولا غرو أن وجدنا متولى ديوان الأحباس فى بداية العصر الأيوبى ، يركب وبين يديه « الغاشية » ، وهى إحدى الآلات السلطانية الخاصة بسلاطين بنى أيوب ، ويفسر مسلكه هذا بأنه ملك على العلماء ، كما أن السلطان ملك على الرعايا[4] ، وفى هذا أيضًا تلميح على إشراف ديوان الأحباس فى العصر الأيوبى ، على المدارس والمؤسسات التعليمية .

وفى رأى محمدمحمد أمين أن صلاح الدين اتخذ من نظام الأوقاف سبيلاً لتدعيم حكمه السياسى ، إذ يلاحظ أننا لو حاولنا تتبع أسبابا كل وقف أمر به ، لوجدنا أن غالبية أوقافه تهدف إلى تدعيم حكمه السياسى من ناحية ، وخدمة المذهب السنى والقضاء على المذهب الشيعى من ناحية أخرى[5] ، ونلمس ذلك مثلاً فى وقفة دار العيار على سور القاهرة ، مع ما كان جاريًا فى أوقاف السور من الرباع والنواحى الجارية فى ديوان الأسوار[6] ، وفى وقفة بعض الأوقاف على ديوان الأسطول[7] ، وفى وقفة صادر الفرنج - أى الضرائب الجمركية - على

(١) أنظر ابن مماتى : قوانين ، ص ٣٥٦ ، هامش " ٢ " ، النابلسى : لمع ص ٢٥ - ٢٦ .
(٢) أنظر النابلسى : لمع القوانين ، ص ٢٦ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨ .
(٤) كان اسم متولى الأحباس هذا ، شهاب الدين الطوسى ، أنظر نفس المصدر ، ص ٢٦ - ٢٧ .
(٥) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ٦٦ .
(٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ .
(٧) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٣ ، المقريزى : الخطط (بولاق) ج ١ ، ص ٢٨٤-٢٨٣ ، ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٧ ، القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٢ ، ص ٤٤٠ - ٤٤٣ .

الفقهاء بالإسكندرية[1] ، مما يوحى بأن أغلب هـذه الأوقـاف كان فى الحقيقة أرصادًا وليست أوقافًا[2] .

والواقع أن صلاح الدين قد استخدم نظام الأوقاف أيضًا كوسيلة سياسية لاكتساب سمعة سياسية على المستوى الإسلامى العام ، بحماية فريضة الحج ، واستمالة شرفاء مكة بمنحهم الأوقاف والإقطاعات بصعيد مصر[3] ، ليتنازلوا عن رسوم الغفارة التى أرهقت حجاج بيت الله[4] ، كما وقف الأوقاف للصرف على القومة والسدنة والمتكلفين بخدمة الكعبة من قبل الدولة الأيوبية[5] ، بالإضافة إلى إيقافه الأوقاف على فكاك أسرى المسلمين الذين أسرهم الصليبيون[6] ، واهتمامه الخاص بوقف الأوقاف التعليمية والخيرية على الغرباء الوافدين على مصر من مغرب العالم الإسلامى ومشرقه[7] ، الأمر الذى حقق لصلاح الدين ، سمعة ومكانة مرموقة فى العالم الإسلامى .

ولا شك أنه كان لنظام الوقف ، الذى انتشر انتشارًا منقطع النظير فى العصر الأيوبى ، والعصر المماليكى التالى له ، آثارًا إيجابية كثيرة فى المجتمع المصرى ، إذ حقق هذا النظام قدرًا كبيرًا من الرفاهية والعناية الصحية والتعليمية للطبقات الفقيرة من المجتمع المصرى فى هذين العصرين[8] ، كما

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣ .
(٢) محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ص ٦٤ ، هامش "٣" .
(٣) أنظر سجل محكمة الباب العالى بمصلحة الشهر العقارى ، سجل رقم ٢٧٤ ، الوثيقة رقم ٦٦٨ ، صفحة ٣٧٣ ، وأنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤ .
(٤) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٣ - ١٤ ، ص ٣٠ - ٣١ ، ص ٣٨ - ٣٩ ، ص ٨٠ وخاصة ص ٧٤ ، س ١ - ٧ ، وأنظر قبله .
(٥) يقول المقريزى : وفى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٢٣م ، وقف السلطان صلاح الدين ناحية نقاده من عمل قوص بناحية الصعيد الأعلى ، وثلث ناحية سنديس من القليوبية ، على أربعة وعشرين خادمًا لخدمة الضريح الشريف النبوى ، وضمن ذلك كتابًا ثابتًا تاريخه ثامن عشرى شهر ربيع الآخر منها ، فاستمر ذلك إلى اليوم ، (المقريزى ج ١ ، ص ٥٧) وأنظر عن أوقاف الأيوبيين على مكة والمدينة فى عهد الملك العادل الأول ، المقريزى : السلوك ١ : ١٥١ .
(٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، نشر د. الشماع ، المجلد الرابع ص ٢٣ ، محمد أمين المرجع السابق ، ص ٦٢ .
(٧) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .
(٨) محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص ٤ ، ص ١ .

أدى إلى استمرار العناية بالعمائر الدينية والخيرية بمصر الإسلامية ، فإليه يعود الفضل فى بقاء أغلب آثار مصر الإسلامية سليمة إلى اليوم ، فاعتمادًا على إيرادات الوقف ، استمر الصرف على تعمير وإصلاح هذه المنشآت الدينية على مر العصور[1] ، بحيث ظلت المساجد معمورة مقامة الشعائر ، وظلت الخوانق والتكايا تستقبل المعوزين ، والبيمارستانات تعنى بالمرض ، حتى نهاية العصر العثمانى ، حين حل محمد على باشا أغلب الأوقاف الحكومية[2] ؛ كذلك ساهم هذا النظام ، وما وفره من عناية بالعمائر الإسلامية ، فى النهوض بالفنون الإسلامية الزخرفية والتطبيقية[3] ، بما كفله للصناع والفنانين ، من استمرارية لفنونهم ، كما كفل لهم الشهرة والخلود ، فاحتفظت كثير من حُجَج الوقف بأسمائهم[4] .

والخلاصة أن الأيوبيين قد استخدموا نظام الوقف ، للصرف على منشآت الدعوة السنية بمصر ، ونشر المذهب السنى بها ، واستمالة قلوب المصريين ، وتحقيق المكانة المرموقة للسلطنة الأيوبية على مستوى العالم الإسلامى ، توطيدًا لدولتهم السنية التى قامت على أنقاض الخلافة الفاطمية الشيعية ؛ وقد احتفظ العصر المماليكى بأغلب خصائص نظام الوقف ، كما استقر فى العصر الأيوبى .

ولا ريب أن نجاح الأيوبيين فى حشد كل هذه الوسائل التعليمية والخيرية ، لنشر علوم السنة بمصر ، واجتذاب قلوب المصريين إلى المذهب السنى ، بالإضافة إلى توجيههم للنظم الدينية بمصر وجهة تخدم هذا الغرض ، كان من شأنه ولا ريب إضعاف الوجود المذهبى والعقائدى والسياسى للفكر الإسماعيلى الشيعى ، وتمهيد التربة فى مصر ، لبث دعوة عقائدية جديدة ، تهدف إلى نشر النفوذ السياسى للخلافة العباسية السنية على مصر ، وللسلطنة الأيوبية التى استمدت منها الشرعية .

(١) أنظر عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ، العصر المملوكى ، المؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية ، بغداد ١٨– ٢٨ نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٢٠٥ – ٢٨٧ ، فريد شافعى . العمارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٢) محمد محمد شاكر : أباطيل وأثمار .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، ص ٦٤ .

(٤) عبد اللطيف إبراهيم : المقال السابق .

نشر العقيدة الأشعرية والفقه الشافعى بمصر :

والجدير بالتنويه أن ثمة حقيقة هامة لم يلتفت إليها[1] ، خاصة بالتطور الفكرى والعقائدى لمصر الإسلامية ، تلك الحقيقة هى أن الدولة الأيوبية ، كانت دولة متمذهبة ، تسعى إلى نشر دعوتها المذهبية فى مصر وفى كافة أرجاء دولتها ، شأنها فى ذلك شأن الدولة الفاطمية السابقة لها ، وإذا كانت عقيدة الفاطميين هى العقيدة الإسماعيلية التى ترمى فى جانبها السياسى إلى نشر ولاية الخلفاء الفاطميين وسلطتهم الروحية والسياسية على العالم الإسلامى ، فإن عقيدة الأيوبيين ، كانت العقيدة الأشعرية ، التى ترمى فى جانبها العقائدى والكلامى إلى تقريب أوجه الخلافات الفكرية بين الفرق الإسلامية ، وفى جانبها السياسى إلى نشر الدعوة السياسية لخلفاء بنى العباس السنيين ، ولسلاطين أهل السنة القائمين على حماية خلافتهم والناهضين بفريضة الجهاد[2] .

ولقد صرح المقريزى بهذه الحقيقة الهامة فى أكثر من موضع من كتابه الخطط ، فيقول فى الفصل الذى عنونه بـ حقيقة مذهب الأشعرى[3] وهو الفصل السابق مباشرة لحديثه عن « المدارس بمصر »[4] « انتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ، وانتقل منه

(١) لعل الدكتور عبد اللطيف حمزة ، هو أول من التفت لهذه الحقيقة الهامة عن أثر العقيدة الأشعرية فى الحركة الفكرية والروحية بمصر الإسلامية ، طوال العصرين الأيوبى والمملوكى ، فأفرد فصلاً مستقلاً من كتابه : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول بعنوان عقيدة الأشعرى ، قال فى أوله : ليس بد لمن أراد وصف الحركة الروحية فى مصر وما وليها من الأقطار الإسلامية ، من العناية بالعقائد الدينية التى كان لها أبلغ الأثر فى توجيه هذه الحركة ، وعقيدة الأشعرى فيما نعتقد ، هى التى صدر عنها الناس فى مصر والشام منذ القرن الرابع الهجرى (عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ٨٧) ثم قال فى نهاية هذا الفصل : والخلاصة أنه لم يكن بد لمذهب الأشعرى ، من أن يكون له أوضح الأثر فى نوع الحياتين الفكرية والاجتماعية اللتين سادتا مصر وغيرها من أجزاء الدولة الأيوبية والدولة المملوكية أما من حيث الحياة الفكرية فسنرى أن العلوم فى عصر كهذا كانت علومًا نقلية لا عقلية فى أكثرها .. من أجل هذا سيطر التصوف على الحياة الاجتماعية فى مصر ، سيطرة شملت جميع أنحائها (نفس المرجع ، ص ٩٤) .

(٢) أنظر الجوينى : غياث الأمم فى التياث الظلم ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمى ، ١٩٧٩ ، ص ١٥ – ص ١٣١ ، وخاصة ص ١٢٥ ، حين ينص على منع نصب إمامين ، و ص ١٣٣ – ٢٨٢ ، حيث يوضح مهام السلطان ، المستولى على السلطة الزمنية بالقوة .

(٣) المقريزى : الخطط ، طبع مطبعة النيل ، ج ٤ ، ص ١٨٤ – ١٩١ .

(٤) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩١ – ٢٥٨ .

إلى الشام » ، فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر ، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني على هذا المذهب ، قد نشأ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق ، وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري ، وصار يحفظها صغار أولاده ، فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري ، وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه ، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب ، ثم في أيام مواليهم الملوك من الأتراك ، واتفق مع ذلك توجه أبي عبد الله محمد بن تومرت أحد رجالات المغرب إلى العراق ، وأخذ عن أبي حامد الغزالي مذهب الأشعري ، فلما عاد إلى بلاد المغرب ، .. وضع لهم عقيدة .. ، فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب ، تستبيح دم من خالف عقيدة ابن تومرت ..، فكان هذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعري ، وانتشاره في إمصار الإسلام ، بحيث نسي غيره من المذاهب وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، إلا أن يكون مذهب الحنابلة[1] ؛ أي أن المقريزي يفيد أن العقيدة الأشعرية قد غلبت على العالم الإسلامي في القرن الخامس والسادس الهجري بعد أن أصبحت العقيدة الرسمية للدولة الأيوبية بمصر والشام والجزيرة الفراتية والحجاز واليمن ، والدولة المحمدية بالمغرب والأندلس ، وذلك بعد غلبته على بلاد العراق منذ الربع الأخير من القرن الرابع الهجري .

ويقول المقريزي في الفصل الذي خصصه لـ « مذاهب أهل مصر »[2] ، « وأما العقائد ، فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري تلميذ أبي علي الجبائي ، وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر ، كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة ، والمدرسة الناصرية التي عرفت بالشريفة بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر ، والمدرسة المعروفة بالقمحية بمصر ، وخانكاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر ، وبلاد الشام ، وأرض الحجاز واليمن ، وبلاد المغرب أيضًا ، لإدخال محمد بن تومرت رأي الأشعري إليها ، حتى أنه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد ، بحيث أن من خالفه

(١) المقريزي : الخطط ، طبعة مطبعة النيل ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، س ٣ - س ٢٠ .

(٢) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٤٣ - ١٦٢ .

ضرب عنقه ، والأمر على ذلك إلى اليوم[1] . وهذا النص بالإضافة إلى تأكيده للحقيقة السابقة ، فهو يؤكد حقيقة جديدة ، أن الأوقاف التى أوقفها صلاح الدين على المدارس والخوانق التى أنشأها بمصر ، كانت قاصرة على معتنقى العقيدة الأشعرية فقط .

ولقد أكد المقريزى فى نص ثالث ، أن خانقاه سعيد السعداء ، التى أوقفها صلاح الدين على غرباء الصوفية الوافدين من مشرق العالم الإسلامى ومغربه كانت قاصرة فقط على الصوفية المعتنقين للعقيدة الأشعرية فهو يقول عن الخانقاه الصلاحية المعروفة بخانقاة سعيد السعداء : «.. شرط الواقف، هو أن الخانقاه ، تكون وقفًا على الطائفة الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، والقاطنين بالقاهرة ومصر ، فإن لم يوجدوا ، كانت على الفقراء من الفقهاء الشافعية والمالكية والأشعرية الاعتقاد »[2] .

وفى نص رابع يفيدنا المقريزى أن الأيوبيين قد حرصوا على قراءة ملخص للعقيدة الأشعرية على مآذن مصر طوال الليل ، وعرف هذا الملخص بالعقيدة المرشدة ، فيقول المقريزى : « لما ولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر ، وولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذبانى المارانى الشافعى ، كان من رأيه ورأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى الأصول ، فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده حتى يكفر من خالفه ، وتقدم الأمر إلى المؤذنين ، أن يعلنوا وقت التسبيح على المآذن بالليل ، بذكر العقيدة التى تعرف بالمرشدة ، فواظب المؤذنون على ذكرها فى كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا »[3] .

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦١ ، س ١٣ – س ١٩ ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن تسامح الفاطميين إبان الحديث عن عائلة ابن شيث القفطى مؤلف كتاب السياسة الملوكية لصلاح الدين ، عن مدى تسامح الفاطميين تجاه فقهاء أهل السنة فى عصرهم مثل عائلة ابن شيث القفطى وتجاهرهم بمذهبهم طوال العصر الفاطمى كما أفاد القفطى فى أنباه الرواه فى ترجمة ابن شيث ، كذلك استدللنا من إقدام كل من ابن الحبال ، وابن الطحان، وهما من علماء الحديث السنيين المصريين فى العصر الفاطمى على جمع تراجم المحدثين المصريين فى تاريخين رتبا على التراجم على تسامح الفاطميين تجاه أهل السنة المصريين الذين كانوا يمثلون عددًا ضخمًا جدًا من علماء الأقاليم المصرية (أنظر الجزء الثانى من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى – تحت الطبع إن شاء الله – إبان الحديث على كتابى تراجم المصريين لابن الحبال وابن الطحان) . وقد أكد القلقشندى تسامح الفاطميين تجاه رعاياهم من أهل السنة فى نص صريح قال فيه : وأما سيرهم (الفاطميين) فى رعيتهم ، واستمالة قلوب مخالفيهم ، فكان لهم الإقبال على من يفد عليهم من أهل الأقاليم جل أو دق .. وكانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح فى الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم فى ذلك (والتجاهر) بذكر الصحابة رضوان الله عليهم ، ومذاهب مالك والشافعى وأحمد ظاهرة الشعار فى مملكتهم بخلاف مذهب أبى حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ، ومن سألهم الحكم به أجابوه (القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٥٢٠) .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ ، س ٧ – ٩ ..

(٣) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٨ – ٤٩ . ويبدو أن العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، قد قصد الرد على المقريزى حين قال : إن مذهب الأشعرى ، نشر بسلطان العلم ، لا شوكة السلاطين ، مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٦ .

وقد أشار القاضى بهاء الدين بن شداد قاضى عسكر صلاح الدين الأيوبى ومؤرخ سيرته المعنونة بـ (النوادر السلطانية والمحاسن اليسوفية) إلى حسن عقيدة صلاح الدين وأخذه لعقيته عن شيخه قطب الدين النيسابورى أحد كبراء متكلمي الأشاعرة ؛ فيقول ابن شداد فى الفصل الذى عنونه بـ(ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية رحمه الله) : ورد فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (بُنى الإسلام على خَمْسٍ : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة وإيتاءِ الزّكَاة ، وصَوْمِ رَمَضَان ، والحَجّ إلى بيت الله الحرام) .

وكان (أى صلاح الدين) رحمه الله حَسَن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يد يقول فيه قولاً حسنًا ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء .

« وكان ـ رحمه الله ـ قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى ـ رحمه الله ـ عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم فى الصغر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم ، وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه ، رحمه الله[1] .. ، وأما الصلاة .. وأما الزكاة .. وأما صوم رمضان .. وأما الحج .. إلخ »[2] وهكذا أخذ ابن شداد يتتبع من سيرة صلاح الدين ما شاهده من مواظبته على القواعد الدينية ، وملاحظته للأمور الشرعية

ومما يجزم بصحة ما أورده المقريزى ، بصدد اعتقاد الأيوبيين وقاضى قضاتهم العقيدة الأشعرية ، وعملهم على نشرها بمصر ، أنه قد وصلت إلينا رسالة ألفها قاضى قضاتهم عبد الملك بن درباس : فى الذب عن عقيدة الأشعرى ، أغلب الظن أنها كانت خطبة منبرية ، يقرأها خطباء المساجد ، وفيها تقرير أن عقيدة الأشعرى ، هى مذهب أهل السنة والجماعة وأهل الحديث ، وأنها شرح لعقيدة

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٧ – ١٣ .

الصحابة والتابعين ، وموافقة لاعتقادات أئمة الفقه الإسلامى بما فيهم الإمام أحمد بن حنبل[1] ، كذلك نظم محمد بن هبة الله المكى[2] ، قصيدة للسلطان صلاح الدن الأيوبى ، سماها حدائق الفصول وجواهر العقول ، وضمنها علم الكلام على أصول الأشعرى[3] . وفى هذا كله ما يعلل نشر الأيوبيين لكتب الدعوة الأشعرية فى بلاد اليمن بعد فتحهم لها لمحاربة الدعوة الإسماعيلية هناك[4] .

ولقد أكد الفقيه تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) الذى عاش بمصر فى العصر المماليكى ، ما ذكره المقريزى ؛ إذ أفاد أن جميع فقهاء المذاهب الأربعة ، عدا بعض الحنابلة ، قد أخذوا فى أصول الدين بالعقيدة الأشعرية . فيقول السبكي : هؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة ولله الحمد ـ فى العقائد يد واحدة كلهم على رأى أهل السنة والجماعة ، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة أبى الحسن الأشعرى رحمه الله[5] .. ويقول السبكى فى موضع آخر : وهذه المذاهب الأربعة

(١) أنظر رسالة فى الذب عن أبى الحسن الأشعرى ، الطبعة الثانية ، بمطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أبان الركن ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م أولها : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس ، الحمد لله وسلام على عباده الذين أصطفى .. أما بعد فاعلموا معشر الإخوان ، وفقنا الله وإياكم للدين القويم ، وهدانا أجمعين للصراط المستقيم ، بأن كتاب الإبانة عن أصول الديانة الذى ألفه الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، هو الذى استقر عليه أمره فيما كان يعتقده وبما كان يدين الله سبحانه وتعالى بعد رجوعه عن الاعتزال بمن الله ولطفه ، وكل مقالة تنسب إليه الآن ، مما يخالف ما فيه فقد رجع عنها وتبرأ إلى الله سبحانه وتعالى منها ، كيف وقد نص فيه على أنه ديانته التى يدين الله بسبحانه بها ، وروى وأثبت ديانة الصحابة والتابعين وائمة الحديث الماضيين ، وقول أحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين ، وأنه ما دل عليه كتاب الله وسنته ورسوله ، (ابن درباس : رسالة فى الذب عن أبى الحسن الأشعرى، ص ١ ، والرسالة صغيرة تقع فى ٦ صفحات مما جعلنا نرجح أنها خطبة منبرية) وقد نشرت رسالة ابن درباس ضمن مجموعة رسائل طبعت بالهند ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م بعنوان الرسائل السبعة فى العقائد . وجاء ترتيب رسالة ابن درباس رقم ٧ كما نشر فى هذه الرسائل السبع كتاب الإبانة فى أصول الديانة لأبى الحسن الأشعرى الذى أشار إليه ابن درباس فى رسالته على أنه تلخيص لعقدية الأشعرى . وجاء ترتيب كتاب الإبانة رقم (٤) فى الرسائل السبعة .

(٢) أنظر ترجمته عند السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ١٩٥ - ١٩٧ .

(٣) طبعت قصيدة حدائق الفصول وجواهر العقول ، لمحمد بن هبة المكى ، التى نظمها لصلاح الدين ، بالقاهرة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م .

(٤) أنظر يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ، فى تاريخ اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ورقة ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٥) السبكي : معيد النعم ومبيد النعم ، تحقيق محمد على النجار ، أبو زيد شلبى ، طبع بدار الكتاب العربى بمصر، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ، ص ٧٤ - ٧٥ ؛ وراجع النص بأكمله فهو فى منتهى الأهمية ويوضح أوجه الخلاف بين الأشاعرة والحنفية والمالكية والحنابلة والشافعية ، ويوضح تطابق عقيدة الأشعرى ، مع عقيدة أبو جعفر الطحاوى وعقيدة أبو القاسم القشيرى والعقيدة المعروف بالمرشدة .

ولله الحمد في العقائد واحدة ، إلا من لحق منها بأهل الاعتزال والتجسيم ... ويدينون الله برأى الشيخ أبى الحسن الأشعرى الذى لم يعارضه إلا مبتدع[1] ؛ وينصح تاج الدين السبكى ، المسلمين بعدم النظر فى الكتب الكلامية التى ألفها المتكلمون المتأخرون ، والاقتصار على كتب ائمة متكلمى المذهب الأشعرى ، فيقول : لم أجد أضر على أهل عصرنا وأفسد لعقائدهم من نظرهم فى الكتب الكلامية التى أنشأها المتأخرون .. ، ولو اقتصروا على مصنفات القاضى أبى بكر الباقلانى والأستاذ أبى إسحق الأسفرايني ، وإمام الحرمين أبى المعالى الجوينى وهذه الطبقة لما جرى إلا الخير[2] ؛ ثم أوضح السبكى أسباب طعن الحنابلة فى عصره على عقيدة الأشعرى لكون الأشعرى ينفى التشبيه عن الله فلا يقول أن صفات الله هى هو ، وهو فى ذلك يخالف الحنابلة الذين يثبتون صفات الله ، ومن ثم يعتقدون بالتشبيه والتجسيم[3] .

وتؤكد أحداث التاريخ ، أن أشهر متكلمى المذهب الأشعرى فى القرن السادس الهجرى قد أهدوا مؤلفاتهم إلى سلاطين بنى أيوب ، سواء ألفوها وهم فى إحدى عواصم ملك الأيوبيين مثل دمشق ، أو ألفوها وهم فى بلاط سلطنة أخرى لا تقل قوة ونفوذًا سياسيًا عن سلطنة بنى أيوب ، أعنى الدولة الخوارزمشاهية ـ التى امتلكت بلاد خوارزم وحدود بلاد الترك وبعض إقليم الجزيرة وبعض إقليم عراق العجم ـ فنجد الإمام فخر الدين الرازى ، ت ٦٠٦هـ[4] ، إمام مذهب الأشعرى دون

(١) السبكى : معيد النعم ، ص ٢٢ - ٢٣ . وراجع النص بأكمله أيضًا لأهميته .
(٢) السبكى : معيد النعم ، ص ٧٩ - ٨٠ .
(٣) السبكى : معيد النعم ، ص ٨٧ - ٨٨ .
(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين التيمى البكرى ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ولد بالرى بعض أعمال فارس سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، ونسبته إليها ورحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وأخذ عنه خلق كثير ، وسار إلى شهاب الدين الغورى سلطان غزنة ، فبالغ فى إكرامه وبنى له مدرسة بقرب جامع هراه ومعظم أهلها كرامية وحصلت له منه أموال طائلة واتصل بالسلطان علاء الدين خوارزمشاه فحظى لديه وكان ينال من الكرامية وينالون منه سبًا وتكفيرًا حتى قيل أنهم سموه وتوفى بهراه سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م . أنظر ترجمته وأخباره عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ، الطبعة القديمة ، ج ١ ، ص ٦٠٠ - ٦٠٢ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ٣٥ وما بعدها ، أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٦٨ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ الذى يذكر أن ملك الغوريه فارق مذهب الكرامية وتقلد مذهب الشافعى بعد مناظرة فخر الدين الرازى للكرامية بهراه ؛ وأهم مؤلفات فخر الدين الرازى ، تفسيره المسمى " مفاتيح الغيب " ، وهو مطبوع فى ثمان مجلدات ضخام ، وله كتاب " مناقب الشافعى " ، مطبوع وكتاب " اعتقادات فرق المؤمنين والمشركين " ، مطبوع ومؤلفاته كثيرة .

منازع فى عصره، يهدى كتابه أساس التقديس إلى الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب، ويصفه بأنه أعظم سلاطين الإسلام القائمين لنصره مذهب الحق والسنة ، رغم أنه ألفه فى بلاط الدولة الخوارزمشاهية[1] ، ونجد المتكلم الأشعرى الشهير الآمدى[2] ، يستقر فى بلاد الشام فى العصر الأيوبى ، ويقوم بالتدريس فى مدارسها ، ويهدى أهم مؤلفاته الكلامية فى شرح العقيدة الأشعرية إلى سلاطين بنى أيوب بالشام[3] .

(١) قال الإمام الفخر الرازى فى ديباجة كتابه " أساس التقديس " : أما بعد فإنى وإن كنت ساكنًا فى أقاصى بلاد المشرق ، إلا أنى سمعت أهل المشرق والمغرب ، مطبقين متفقين على أن السلطان المعظم العالم العادل المجاهد سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أفضل سلاطين الحق واليقين أبا بكر بن أيوب ، لازالت آيات راياته فى تقوية الدين الحق ، والمذهب الصدق ، متصاعدة إلى عنان السماء .. ، أفضل الملوك وأكمل السلاطين فى أيات الفضل ، وبينات الصدق ، وتقوية الدين القويم ، ونصرة السراط المستقيم ، فاردت أن اتحفه بتحفة سنية ، وهدية مرضية ، فاتحفته بهذا الكتاب الذى سميته " بأساس التقديس " ، على بعد الدار ، وتباين الأقطار ، وسألت الله الكريم أن ينفعه به فى الدارين بفضله وكرمه " . (الفخر الرازى : أساس التقديس فى علم الكلام ، طبع مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م ، ص ٢ - ٣) .

(٢) هو على بن محمد بن سالم التغلبى ، أبو الحسن ، سيف الدين الآمدى ، أصولى باحث ، أصله من آمد بديار بكر ، ولد بها سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م ، وتعلم فى بغداد والشام ، وانتقل إلى القاهرة ، فدرس فيها واشتهر وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل (أى فى الصفات الإلهية) ومذهب الفلاسفة ، فخرج مستخفيًا إلى حماه ومنها إلى دمشق فتوفى بها سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م وله نحو عشرين مصنفًا فى علم الكلام وأصول الدين طبع عدد منها . أنظر ترجمة عند ابن خلكان : وفيات (الطبعة القديمة) ج ١ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ ، أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٦١ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ، القفطى : أخبار الحكماء ص ٢٤٠ - ٢٤١ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ٥: ١٢٩، الخوانسارى : روضات الجنات ، ص ٤٨٩ - ٤٩٢ .

(٣) أفاد الأستاذ حسن محمود عبد اللطيف أن الآمدى المفكر الأشعرى ، عاش أكثر أيامه فى ظلال دولة صلاح الدين وخلفائه من أمراء الأيوبيين ، وتنقل بين مصر والشام حيث درس فى مدارسهما ؛ وفى حوالى سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م ، انتقل الآمدى إلى مصر ، فى عهد العزيز عثمان بن صلاح الدين ، الذى ألف له الآمدى رسالة موجزة فى العقائد لم نعثر عليها بعد سماها : اللواء العزيز تذكرة الملك العزيز ، حيث داوم على التدريس بمدارس مصر مثل مدرسة منازل العز بالفسطاط ، والمدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعى حوالى عشرين عامًا ، ثم طعن الفقهاء فى عقيدته واتهموه بعقائد الفلاسفة ، فظهر الآمدى بعد ذلك فى حماه ، حيث استضافه أميرها الملك المنصور بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى ، وولاه التدريس فى المدرس المنصورية ، ثم انتقل الآمدى بعد وفاة المنصور إلى دمشق بدعوة من الملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب صاحبها الذى ولاه شئون المدرسة العزيزية ، فقام بها عشر سنين ؛ وكان الأمدى يعقد مجالس النظر فى المسجد الأموى بدمشق ، فى يومى الثلاثاء والجمعة (أنظر حسن محمود عبد اللطيف : مقدمة كتاب غاية المرام فى علم الكلام ، لسيف الدين الأمدى ، بتحقيقه ، طبع القاهرة ، ١٣٩١ - ١٩٧١ ، وأنظر بالإضافة إلى ذلك النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

وقصة ظهور المذهب الأشعرى وانتشاره ، والوسائل التى اتخذها دعاته لنشره فى أرجاء العالم الإسلامى ، هى فى الواقع الأصل الأول للوسائل التعليمية والروحية والاجتماعية ، التى استخدمها الأيوبيون فى مصر لنشر العقيدة الأشعرية ، والفقه الشافعى ، وعلوم السنة والفكر الصوفى بمصر . بحيث أننا نجد أن النظم الدينية ، التى استخدمها الأيوبيون فى مصر ، تتطابق فى خصائصها الجديدة ، التى استجدها الأيوبيون ، مع وسائل الدعوة الأشعرية ، التى استخدمها دعاة المذهب الأشعرى من قبل لنشر مذهبهم فى أرجاء العالم الإسلامى ، ومحاربة المذهب الشيعى الإسماعيلى ، فى مصر والشام والمغرب ، وخاصة بلاد الشام التى شهدت مقاومة عنيفة من فقهاء ومتكلمى الأشاعرة للحكم الفاطمى بالشام وخاصة دمشق ، إذ اتخذ دعاة الأشاعرة من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسيلة لمناوءة الحكم الفاطمى بالشام[1] ، ويبدو أنهم نجحوا فى إضعاف الدعوة الإسماعيلية هناك ، بحيث استطاع السلطان شيث بن أرسلان السلجوقى القضاء على الوجود السياسى للفاطميين بالشام ، ثم اعتنق العقيدة الأشعرية وقرب دعاتها[2] .

أما فى مصر ، فلقد أدى النشاط المتزايد لدعاة الأشاعرة فى عصر الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى ووزيره المأمون البطائحى ، إلى استمالة الكثيرين من أتباع الدعوة الإسماعيلية المترددين على « دار الحكمة » وهى ثانى مركز لنشر الدعوة الإسماعيلية بمصر بعد الجامع الأزهر ، بل استطاع هؤلاء الدعاة استمالة بعض حاشية القصر الفاطمى من الأساتذة المحنكين ، الأمر الذى هدد بانقلاب مذهبى سنى على الخلافة الفاطمية ، لولا نجاح الوزير البطائحى فى قتل هؤلاء الأستاذين ، والقضاء على فتنة دعاة الأشاعرة بمصر التى عرفت بفتنة القصار ، نسبة إلى أشهر هؤلاء الدعاة الأشاعرة بمصر ؛ وقد اضطرت هذه الفتنة الخطيرة إلى إغلاق « دار العلم »[3] ، بعد أن تحولت على يد دعاة الأشاعرة إلى أداة لمحاربة الدعوة الإسماعيلية بمصر .

(١) أنظر ابن عساكر الدمشقى ت ٥٧١هـ : تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ، طبع مطبعة التوفيق بدمشق ، ١٣٤٧هـ ، بتحقيق محمد زاهد الكوثرى ، ص ٢١٥ – ٢١٦، ص ٢١٦ – ٢١٧، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ ، وأنظر بعده .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢٨٦ .

(٣) أنظر ما كتبه المقريزى عن " نوبة القصار " خلال كلامه عن دار العلم التى أنشأها الفاطميون بمصر ، ونسب هذه النوبة إلى داعى أشعرى اسمه حميد بن مكى الأطفيحى القصار وحددها بسنة ٥١٦هـ ، وقال أنها طويلة أولها من أيام الوزير الأفضل بن شاهنشاه ، واستمرت حتى حكم الآمر بأحكام الله الفاطمى ووزيره المأمون البطائحى ، وأنظر المقريزى : الخطط ، مطبعة النيل ، ج ٢: ٣٣٤ – ٣٣٥ ، عن فتنة . القصارة أنظر أيضًا محمد كامل حسين : درسات فى الشعر الأيوبى ص ٥٩ ، وأنظر بعده .

تبدأ قصة ظهور المذهب الأشعرى بتحول الإمام أبى الحسن الأشعرى[1] ، وكان من كبراء متكلمى المعتزلة والمناظرين لنصره مذهبهم عن مذهب الاعتزال ، وإنكاره لمذاهب المعتزلة الكلامية ، ورجوعه إلى مقالات أهل السنة والجماعة ، وأهل الحديث ، ومحاولته لصياغة العقيدة الإسلامية فى مسائل الإيمان ، على أساس الصورة الأولى لهذه العقيدة فى عهد الصحابة والتابعين ؛ ردًا على تأويل المعتزله للآيات الواردة فى القرآن فى المسائل التوحيدية ، بمذهب المعتزله دون مذهب أهل السنة .

ويصور لنا ابن عساكر، مؤرخ الدعوة الأشعرية، ما قام به الأشعرى فى الانقلاب على المعتزلة، وكأنه انقلاب ضد مذهب المعتزلة ، بعد أن أصبح المذهب الرسمى للدولة العباسية طوال عهد المأمون والمعتصم والواثق[2] ، فذكر أن الأشعرى رد على المعتزلة الذين تغلبوا على ملوك المسلمين فى الخافقين[3] ؛ ويروى المؤرخون عدة حوادث لتعليل هذا التحول ، منها مناظرة الأشعرى لأستاذه وزوج أمه وكبير المعتزلة فى عصره أبى على الجبائى فى رأى شهير من أراء المعتزلة هو « القول بالأصلح » أى أن الله ييسر لعباده من الأعمال ما فيه صالح لهم ، وذلك ترتيبًا على قول المعتزلة بفكرة « العدل الإلهى » بحيث قطع الأشعرى الجبائى فى هذه المناظرة والزمة الحجة[4] . ثم تبع ذلك حادثة أخرى وهى رؤية الأشعرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأمره بالرجوع إلى سنته ، والرد على الفلاسفة والمتكلمين[5] ، بحيث راح الأشعرى يناظر المعتزلة ويفند أراءهم ويؤلف الكتب

(١) هو على بن اسماعيل بن إسحاف ، أبو الحسن ، من نسل الصحابى أبى موسى الأشعرى مؤسس مذهب الأشاعرة . كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين . ولد فى البصرة سنة ٢٦٠هـ ، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم . وتوفى ببغداد سنة ٣٢٤هـ . قيل بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب . أنظر ترجمته عند ابن عساكر : تبين كذب المفترى فيما نسب للإمام أبى الحسن الأشعرى ، ص ٣٤ - ٥٦ ، وأنظر حصر لمصنفات الأشعرى عند ابن عساكر ، نفس المصدر ، ص ١٢٨ - ١٤٠ ، وأنظر أيضًا ترجمته عند المقريزى : الخطط ، ٤: ١٨٦ ، ابن النديم : الفهرست ، ١ : ١٨١ ، الخطيب البغدادى تاريخ بغداد ، ١١: ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١: ٤١٢ - ٤١٣ ، السبكى طبقات الشافعية ، ٢: ٢٤٥ - ٣٠١ ، ومحمود غراب كتاب " الأشعرى " مطبوع .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١١٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٥ .

(٤) أنظر ابن خلكان : وفيات ، ج ١ ، ص ٤١٢ - ٤١٢ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .

(٥) ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ٤٣ - ٤٥ .

في الرد عليهم[1] ، ثم ما لبث أن أعلن على المنبر في مدينة البصرة ، وكانت مقر سكناه ، أنه قد تبرأ من مذاهب المعتزلة ، وكرس حياته للرد عليهم[2] بحيث يقول المؤرخون : كانت المعتزلة قد رفعوا رؤسهم ، حتى أظهر الله تعالى الأشعرى ، فحجزهم في أقماع السمسم[3] ؛ ورغم أن حزب المعتزلة كان قويًا بمدينة البصرة آنذاك ، فكان منهم القاضي وأصحاب الرياسة[4] ، إلا أنه كان بالبصرة أيضًا جماعة من البيت الأشعرى لهم مكانة ورياسة ، مما ساعد على ظهور أمر الأشعرى ، كما يحدد ابن عساكر - بعد الثلاثمائة واستمر إلى سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م[5] ، وهى سنة وفاة الأشعرى[6] .

ولاشك أن ثمة عامل سياسى قد ساعد على استقواء الدعوة الأشعرية ، وهو انتصار الخليفة المتوكل على الله لأهل السنة ، وعدم اعترافه بعقيدة المعتزلة كعقيدة رسمية للخلافة العباسية ، مما أدى إلى انزواء المعتزلة ، وعودة الغلبة الفكرية لأهل السنة والمحدثين ، وكان الحنابلة - أتابع أحمد بن حنبل - أقوى الممثلين لأهل السنة ، فقربهم الخليفة العباسى بعد محنتهم ومحنة إمامهم ابن حنبل على يد المعتزلة في مسألة خلق القرآن ، التي تعد من أهم عقائد المعتزلة[7] .

والجدير بالاهتمام أن المقريزى ، قد ألمح عند حديثه عن عقيدة المسلمين منذ صدر الإسلام ، حتى ظهور الدعوة الأشعرية ، أن ظهور المذهب الأشعرى جاء رد فعل لانتشار مذاهب المتكلمين من الفلاسفة والقدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية ، إبان حكم الدولة الشيعية البويهية في العراق وإيران ، وإبان حكم الخلافة الشيعية الفاطمية في مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب ، كما ألمح إلى غلبة عقيدة المعتزلة على العالم الإسلامى كله إبان حكم البويهيين والفاطميين[8] .

(١) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٩٤ - ٩٩ - ، ص ١١٠ - ١١١ ، ص ١٢٨ - ١٤٠ .
(٢) قال ابن عساكر : قام الأشعرى على مذاهب المعتزلة أربعين سنة ، وكان لهم إمامًا ، ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يومًا ، فبعد ذلك خرج إلى الجامع ، فصعد المنبر وقال إنى .. أشهدت الله .. فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده ، .. ودفع الكتب إلى الناس ، فمنها .. كتاب أظهر فيه عوار المعتزلة ، سماه بكتاب (كشف الأسرار وهتك الأستار) ، فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة ، أخذوا بما فيها ، وانتحلوه ، واعتقدوه تقدمه ، واتخذوه إمامًا حتى نسب مذهبهم إليه . (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ٣٩ - ٤٠) .
(٣) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٩٤ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .
(٤) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١١٦ .
(٥) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٢٧ .
(٦) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٤٧ .
(٧) أنظر زهدى جار الله : المعتزلة ، ص ١٦٢ - ١٩٣ .
(٨) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

ويفسر المقريزى هذه الملحوظة بأن الأراء الكلامية والفلسفية فى الإسلام ، قد ابتدعت فى الإسلام ، على يد حركة الشعوبية الفارسية ، التى خلطت أراء الديانات الفارسية القديمة بعقائد الإسلام ، ثم أن الشعوبية استمالة أهل التشيع ، بإظهارها حب آل البيت[1] .

ولقد أرجع المقريزى أصول الأراء الفلسفية للإسماعيلية والقرامطة ، إلا الآراء اليهودية التى نشرها عبد الله ابن سبأ اليهودى إبان الفتنة الأولى فى الإسلام، وإلى الأراء الفارسية الشعوبية[2]، ثم أعلن المقريزى صراحة ، انتقاده لأهم أسس الفكر السياسى والعقائد الإسماعيلى وهما فكرتى « النص » و « العلم اللادنى » ، على أساس أنه لا أسرار فى الدين الإسلامى ، وأن عقيدة الإسلام واضحة كما جاء بها القرآن ، وأن النبى لم يكتم عن المسلمين شيئًا من أمر دينهم ، ولم يختص آل بيته ببعض الأسرار[3] .

لذلك فقد عمد الأشعرى ، إلى الانتصار لعقيدة اكبر متكلمى أهل السنة والحديث ، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب القطان ، فسلك الأشعرى طريق الكلابى ، وبنى على قواعده[4] .

ثم نهج الشعرى فى القضايا العقائد الإيمانية المتعلقة بالأسماء والصفات الإلهية ، وبرؤية اللـه بالأبصار ، وهى المسألة التى عرفت اصطلاحًا « بالرؤية السعيدة » منهجًا وسطًا[5] ، بين المعطلة ، أى الذين ينفون عن الأسماء والصفات الإلهية كونها ذات اللـه ، وهم الجهيمة والمعتزلة والشيعة ، وبين المشبه والمجسمة ، الذين يثبتون الأسماء والصفات الإلهية الواردة فى القرآن ، ويعتقدون أنها

(١) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٠ – ١٩١ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٩١ ، ص ١٨٢ . والواقع أن هذه الحقيقة التى ذكرها المقريزى ، قد انتهى إليها أيضًا الدكتور محمد كامل حسين، بعد دراسته لعقائد الإسماعيلية، كما جاءت فى كتب الدعوة الإسماعيلية ، فيقول د. كامل حسين : والذى ألاحظه على عقائد الفاطميين ، انها مزيج من مجموعة المذاهب والديانات القديمة ، التى عرفت وانتشرت فى الأقطار الإسلامية ، منذ زمن بعيد ، بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من الشعوب المختلفة ، واستطاع الفاطميون أن يخضعوا هذه المذاهب والأراء القديمة ، للأراء الإسلامية ، ويصبغوها بالصبغة الإسلامية ، فالباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد الفاطميين ، ويردها إلى أصولها القديمة .. (محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٧) .
(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩١ .
(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٤ ، ص ١٨٦ ، ابن عساكر : تبين كذب المفترى ص ١١٦ – ١١٨ ، وعن مدرسة ابن كلاب أنظر على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ١٩٧١ ، ج ١ ، ص ٣٥٠ – ٣٨٤ .
(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ ، ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٤٩ – ١٥٠ ، محمد زاهد الكوثرى : مقدمته لكتاب تبين كذب المفترى ، ص ١٥ .

ذات الله ، ومن ثم فقد شابهوا بين صفات الله وصفات مخلوقاته ، ولقد قال بهذا الرأى كل من الكرامية والحنابلة[1] ، فأوضح للمعطلة ، من الجهيمية والمعتزلة ، أن نفى المحاذاة والصورة عن الله سبحانه صواب ، على أنه يجب الاعتراف بتجلى الله سبحانه ، من غير كيف ، أى دون معرفة للعباد بكيفية هذا التجلى ، وفى نفس الوقت نها المشبه من الحنابلة والمجسمة من الكرامية ، عن إثبات الصورة والمحاذاة لله سبحانه . ثم مال إلى رأى الحنابلة فى إثبات رؤية المؤمنين لربهم بالأبصار يوم القيامة ـ وهو ما قال المعتزلة باستحالته ـ وإن تحفظ الأشعرى ، فقال أن الله يرى للمؤمنين يوم القيامة ، ولكن بغير كيف ، أى أن كيفية هذه الرؤية مجهولة[2] .

كذلك نهج الأشعرى ، منهجًا وسطًا فى مسألة خلق القرآن ، التى اعتبرها المعتزلة جزءًا أساسيًا من عقيدتهم ، وامتحنوا العالم الإسلامى كله إبان سيطرتهم على الخلافة العباسية فى عصر الخليفة المأمون العباسى ، بضرورة الإيمان بخلق القرآن[3] ، فسلم للمعتزلة أنهم على الحق ، إذا كانوا يريدون بخلق القرآن ، اللفظ والتلاوة والرسم ، وسلم للحنابلة بأنهم مصيبون فى قولهم بقدم القرآن وأنه ليس مخلوقًا ، إذا كان مقهصودهم بالقديم ، الصفة القائمة بذات الله البارىء ، غير البائنة منه ، يعنى الكلام النفسى ، وأن تحفظ الأشعرى أيضًا فى هذه المسألة ، فنبه الحنابلة إلى أنه لا يصح إنكارهم لحدوث لفظ لافظ القرآن وتلاوة من يتلو القرآن ، كما أنه نبه المعتزلة ، بأنهم ليس لهم نفى الصفة القائمة بالله تعالى من غير لفظ ولا صوت ، أى الكلام النفسى[4] .

وأيضًا وقف الأشعرى، موقفًا وسطًا ، بين رأى المعتزلة ، ورأى أهل السنة فى مسألتى التكليف، وحرية الإرادة الإنسانية ، فخالف المعتزلة القائلين بحرية إرادة الإنسان فى اختيار أفعاله ، بأن قرر بأن جميع أفعال العباد مخلوقة مبدعة من الله تعالى ، وهو مذهب أهل الحديث والحنابلة والجبرية ، الذين يعتقدون أن الإنسان مُصيّر غير مُخيّر فى أفعاله ، بل مجبر عليها ، وفى نفس الوقت خالف الأشعرى مذهب الجبر الذين يقول به الجبرية وقال بنظرية « الكسب » وفسرها ، بأنه إذا كانت أفعال الله

(١) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، و ج ٤ ، ص ١٨٤ ، ابن عساكر: المصدر السابق، ص١٤٩ .

(٢) أنظر ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ١٤٩ – ١٥٠ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ . محمد زاهد الكوثرى ، مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٥ .

(٣) أنظر زهدى جار الله : المعتزلة ، ص ١٦٢ – ١٧٩ .

(٤) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٥ ، ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٥٠ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

مخلوقة مبدعة من الله تعالى ، فهى أيضًا مكتسبة للعبد ، حين يهم العبد بفعلها ، فالكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد[1] .

وعلى هذا النحو سلك الإمام أبى الحسن الأشعرى فى مسائل أصول الدين ، طريقًا وسطًا بين المتكلمين فى مشكلة الأسماء والصفات ، ومشكلة الرؤية السعيدة ، ومشكلة الجبر والاختيار ، ومشكلة خلق القرآن ، وبقية المشكلات الكلامية والاعتقادية الأخرى ، مثل مشكلة مرتكب الكبيرة ، ومشكلة الإيمان هل يزيد وينقص ، ومشكلة شفاعة النبى يوم القيامة « ودلل الأشعرى على عقيدته ببراهين عقلية ، وأدلة شرعية » ثم لخص عقيدته فى كتابه : الإبانة عن أصول الديانة[2] .

وواضح أن الأشعرى فى منهجه فى الاستدلال على صحة عقيدته ، قد جمع بين منهج المعتزلة ، فى الاستدلال العقلى ، وبين منهج أهل السنة والمحدثين والحنابلة فى الاعتماد على النصوص والأدلة الشرعية ، كما جاءت فى القرآن والسنة ، وهو ما عرف بتغليب النقل على العقل ، بعد أن دلل الحنابلة ، بأنه ليس ثمة أى تعارض بين النقل والعقل ، فمنهج الأشعرى إذًا ، فى التدليل على صحة معتقده ببراهين عقلية وأدلة شرعية ، منهج شمولى جمع بين منهجى المعتزلة وأهل السنة ، ولا شك أن الأشعرى قد حاول أن يجعل من مذهبه مذهبًا لجمع الشمل ، بعد أن تفرق المسلمون حول هذه العقائد فرقًا وأشياعًا[3] .

ولعل سعى الأشعرى ، إلى تقريب وجهات النظر الكلامية والاعتقادية بين فرق المسلمين هو الذى دفعه فى رأينا إلى الاقتراب من فكر المرجئة المتسامح ، فى مسألة الإيمان ، وعدم تكفير مرتكب الكبيرة ، وإرجاء الحكم فى أمرة إلى الله يوم القيامة[4] .

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٧ ، ابن عساكر : تبين ، ص ١٤٩ .
(٢) راجع ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٤٨ – ١٦٣ .
(٣) يقول الدكتور على سامى النشار فى مقدمته لكتابه " نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام " إنى كمفكر أشعرى ، يرى أن عمله الأساسى فى الحياة ، هو المحافظة على كيان المذهب الأشعرى ، مذهب الجمهور العظيم من المسلمين ورباط حياتهم ، أرى أن الأشعرية هى آخر من وصل إليه العقل الإسلامى الناطق باسم القرآن والسنة ، وأن ما بقى للمسلمين بعد فى الحياة حتى نهاية الدنيا ، هو الأخذ بهذا المذهب كاملاً ، وتطويره خلال العصور ، وعلى حسب مقتضيات الأجيال المقبلة ، وأنظر على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، الطبعة الخامسة (١٩٧١م ، مقدمة الكتاب ، ص ج) وفى رأى الدكتور النشار أيضًا أن الأزهر أصبح معقل الدعوة الأشعرية ، وعمل على بعثها وتوضيح حقائقها والوقوف بالمرصاد لأوروبا وعلمائها جميعًا (نفس المرجع ، مقدمة الكتاب ، ص ى) .
(٤) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

كما أننا نلاحظ مع المقريزى ، ملحوظة على قدر كبير من الأهمية ، هى أن آراء الأشعرى السياسية استهدفت بالدرجة الأولى ، الرد على آراء الشيعة الخاصة بفكرة النص ، هذا رغم اعترافه بتعاطفه مع مواقف الإمام على بن أبى طالب ، فى حروبه فى صفين ضد حزب معاوية ، وفى النهروان ضد حزب الخوارج[1] .

كذلك نلاحظ ملاحظة أخرى لا تقل أهمية ، وهى ميل الإمام الأشعرى إلى آراء الصوفية ، فذهب إلى القول بأن « كرامات الأولياء حق »[2] ، كما سلم بكل ما جاء به القرآن من أمور الغيب ، مثل اللوح والقلم والعرش والكرسى والجنة والنار ، وعذاب القبر ويوم القيامة والميزان والصراط .. إلخ[3] .

وفى هذا كله ما يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أن مذهب الأشعرى ، قام لمقاومة المذاهب الكلامية الفلسفية التى راجت تحت حكم الخلافة الفاطمية بمصر والشام والحجاز واليمن والمغرب ، وأمراء بنى بويه ، فى العراق وخراسان والمشرق الإسلامى ، فأقام الأشعرى فكره السياسى على أساس تفنيد مذاهب الشيعة فى النص بخصوص الإمامة ، وفى اعتقادنا أيضًا ، أنه كما كان المذهب الأشعرى مذهبًا لجمع شمل المسلمين فى عقيدة إيمانية واحدة ، فإنه فى رفضه لأراء البويهيين والفاطميين السياسية بخصوص « النص » وبخصوص « الإمام المعصوم »[4] ، وباعترافه بخلافة واحدة تجمع خطة الإسلام كلها[5] ، كان يهدف أيضًا لجمع شمل المسلمين تحت خلافة سنية واحدة ، وإن اضطر الأشاعرى

(1) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ١٨٨ ، س ٨ – ١٤ ، ابن عساكر : تبين كذب المفترى ص ١٢٩ .
(2) نفس المصدر ، ص ١٨٨ ، س ٤ .
(3) نفس المصدر ، ص ١٨٨ ، س ٥ – ٨ .
(4) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٢٩ .
(5) الجوينى : غيات الإمام ، ص ١٢٥ ، وأنظر قبله .

ولقد أشار ابن عساكر لعدة أراء سياسية أخرى للإمام أبى الحسن الأشعرى ، فمفهوم الفتنة عنده ، هى التباس الحق على الخلق (ابن عساكر : تبين ، ص ٩٩) ، والأشاعرة وعلماء السنة متفقون فى مسائل أصول الدين ، أن الله جعل استقامة أمور الدنيا والدين ، بصلاح الولاة والسلاطين (ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٠٧) ، وأولى الأمر ، المستحقين الطاعة فى رأى الأشعرى ، هم أهل الفقه والدين يعلمون الناس معانى دينهم ، ويأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، فاوجب الله عز وجل طاعتهم (ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٢٦) ومذهبه فى الإمامة أنه يثبت خلافة أبى بكر ، ويرفض رأى الشيعة فى (النص ، والإمام المعصوم) ، (ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٢٩) ، والجدير بالملاحظة أن فكرة جعل . الولاية، للعلماء، لا للأمراء والسلاطين ، نجدها مشروحة عند مفكرة الأشاعرة ، أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ٤٦ – ص ٥٧ ، وهم الذين يطلقون عليهم مصطلح " أهل الحل والعقد " .

إلى التسليم بالظروف السياسية القائمة ، فسلم بجواز وجود سلطنة عسكرية سنية تساند الخلافة ، إذا ما أقرت الأمن فى بلاد الإسلام ، وأمضت شرائع الإسلام والتزم المسلمون بطاعتها ، وتولت فريضة الجهاد[1] .

فلا غرو أن عمد المفكرون والفقهاء السياسيون للدعوة الأشعرية ، إلى تفنيد فكرة النص التى قال بها الإسماعيلية وبنوا عليها مذهبهم فى الإمامة ، وأوضحوا تهافتها اعتمادًا على ما تم من اختيار أبو بكر ومبايعة المسلمين له فى يوم السقيفة[2] . وفى نفس الوقت ، راح دعاة الأشاعرة يؤكدون أحقية خلفاء بنى العباس السنيين فى الخلافة ، وحكم جميع بلاد المسلمين[3] ، ويظهرون مثالب الفكر الباطنى الإسماعيلى ، وما انطوى عليه من مغالطات وتدليس[4] . بل ويطعنون حتى فى صحة النسب الفاطمى ، وانتسابهم لعلى بن أبى طالب[5] ؛ وضمانًا لحماية الخلافة العباسية السنية ، واستقرار أمور

(١) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٩١ - ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ، الباب الثانى ، فصل فى القول فى النص ، وفى حكم ثبوته وانتفائه ، ص ١٩ - ص ٤٢ ، ثم يسوق الجوينى من الأدلة التاريخية والفقهية ، ما يؤكد صحة القول بإثبات الاختيار والانتخاب ، مما يبطل مذهب النص ، كما يوضح الجوينى أن مبايعة المسلمين للخلفاء الراشدين الأربعة ، يؤكد مبدأ الاختيار وينفى مبدأ النص ، أنظر الجوينى : نفس المصدر ، ص ٤٢ - ٤٥ .

(٣) يقول الغزالى فى أول كتابه فضائح الباطنية : أما بعد ، فإنى لم أزل مدة المقام بمدينة السلام ، متشوقًا إلى أن أخدم المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية بتصنيف فى علم الدين ، حتى خرجت الأوامر الشريفة ، المقدسة النبوية المستظهرية ، بالإشارة إلى الخادم ، فى تصنيف كتاب فى الرد على الباطنية ، فيشتمل على الكشف عن بدعتهم وضلالتهم ، وفنون مكرهم واحتيالهم ، ووجه استدرجاهم عوام الخلق وجهالهم ، وإيضاح غوائلهم فى تلبيسهم وخداعهم ، وانسلالهم عن ربقة الإسلام .. ، وإبراز فضائحهم وقبائحهم ، مما يقضى إلى هتك أستارهم ، (الغزالى : فضائح الباطنية ، ص ١ - ٢) ثم يخصص الغزالى الباب التاسع من كتابه للحديث عن إقامة البراهين الشرعية ، على ان الإمام القائم بالحق ، الواجب على الخلق طاعته فى عصرنا ، هو الإمام المستظهر ، (الغزالى فضائح الباطنية ، ص ٥٨ ، وما بعدها) .

(٤) أنظر حديث الغزالى عن مراتب الدعوة الباطنية ، على أساس أنها حيل ، يحتال بها على الناس ، فيتحدث عن حيلة التانيس (فضائح الباطنية ، ص ٤) وحيلة التعليق ، (نفس المصدر ، ص ٥) وحيلة التدليس ، (نفس المصدر ، ص ٦) ؛ ثم يقرر الغزالى أن الذى هداهم إلى اختراع دعوى النص المتواتر ، طائفة من الملحدين (نفس المصدر ، ص ٣٨) ؛ ثم يفند الغزالى قولهم إن الإمام لابد أن يكون معصومًا (نفس المصدر ، ص ٣٩) .

(٥) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥١١ - ٥١٤ ، الذى يعتمد على كتاب كشف أسرار الباطنية لأبى بكر الباقلانى ، وعلى كتاب الرد على الباطنية ، لأبى القاسم الشاشى ، وكلاهما من أكابر دعاة الأشاعرة ، أنظر بعده .

العالم الإسلامى ، أقر دعاة الأشاعرة الأمر الواقع ، واعترفوا بشرعية السلطنة السنية القائمة ، سواء الغزنوية أو السلجوقية أو الزنكية أو الأيوبية أو المماليكية على التوالى[1] .

ولا غرو أن أعتنق السلاطين السنيين للمذهب الأشعرى ، فاعتنقه على التوالى ، كل من السلاجقة بإيران وأسيا الصغرى[2] . والسلاجقة فى بلاد الشام منذ عهد تُتش[3] ، كما اعتنقه نور الدين زنكى[4] ، ثم اعتنقه الأيوبيون والمماليك[5] .

ولقد كان سلاطين السلاجقة ، ووزيرهم الأكبر ، نظام الملك ، بعد اعتناقهم للعقيدة الأشعرية وعملهم على نشرها ، يطلبون من دعاة الأشاعرة المعاصرين لهم تأليف مؤلفات يلخصون فيها العقيدة الأشعرية ، فألف إمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك الجوينى[6] ، رسالة لخص فيها العقيدة

(١) أنظر الجوينى : غياب الأمم ، ص ١٩١ – ٢٥٨ ، الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ، ص ١١٣ – ١١٨ ، خضر بن أبى بكر : المناقب المعزية – خ ، الفصل الثانى من الباب الأول عن وظيفة السلطنة، ق ١١ – ١٣، والفصل الثالث من الباب الأول ، عن الإمامة والخلافة ، ق ١٣ – ٢٠ ، ابن جماعة : تحرير الأحكام – خ ، الباب الأول والثانى . عن الإمامة ، والباب الرابع عن الأمراء ، وأنظر قبله ، وبعده .

(٢) أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ٧٤ – ٧٥ ، ص ١٥٩ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ ، ويقرر الراوندى أن سلاطين السلاجقة كانوا يجلون فقهاء المذاهب الأربعة ، ويعملون على الخصوص الشافعى ، ويتحمسون حماسة عظمى لنشر المذهب الحنفى ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ٥٠ – ٥٢ . والجدير بالاهتمام أن الراوندى ، وهو يكتب فى أواخر العصر السلجوقى ، يجعل الصراع بين الشيعة والأشاعرة ، فى الدولة السلجوقية من أهم أسباب ضعفها ، أنظر راحة الصدور ، ص ٧٤ – ٧٥ ، وعن اعتناق السلاجقة أيضًا للدعوة الأشعرية ، أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ إلى ٣٣٣ .

(٣) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١ من المقدمة ، و ص ٦ ، و ص ١٦ ، وأنظر بعده .

(٤) ابن عساكر : نفس المرجع ، ص ٢٨٦ وأنظر قبله .

(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٨ – ٤٩ ، ص ١٦١ ، ص ١٨٥ ، ص ١٨٨ ، ص ٢٧٥ ، السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٢ – ٢٣ ، ص ٧٤ – ٧٥ ، ص ٧٩ – ٨٠ ، ص ٨٧ – ٨٨ ، وأنظر قبله .

(٦) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله الجوينى النيسابورى الشافعى ، الأشعرى المعروف بإمام الحرمين ولد سنة ٤١٩هـ ، وجاور بمكة ، وتوفى بنيسابور سنة ٤٧٨هـ أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات (الطبعة القديمة) ج ١: ٣٦١ – ٣٦٢ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ : ١٨ – ٢٠ ، السبكى : طبقات ، ج ٣ : ٢٤٩ – ٢٨٣ ، ابن عساكر : تبين ، ص ٢٧٨ – ٢٨٥ ، وأنظر فوقيه حسين محمود : الجوينى إمام الحرمين ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ ، أعلام العرب ، ٤٠ .

الأشعرية ، وأهداها إلى الوزير نظام الملك السلجوقي ، وسماها العقيدة النظامية[1] . كذلك ألف الإمام أبي حامد الغزالى[2] ، تلميذ إمام الحرمين الجويني ، رسالة العقائد والوعظ إلى السلطان ملك شاه السلجوقي[3] ، كما ألف الجويني لنظام الملك ، كتابًا في الأحكام السلطانية ، سماه بلقب نظام الملك ، وهو كتاب غياث الأمم[4] ، كذلك دعا نور الدين زنكى ، الإمام قطب الدين

(١) قال الجويني في ديباجة العقيدة النظامية : .. قد مَلّكَكَ الله مولانا الصاحب الأجل نظام الملك ، سيد الوزراء، غياث الدولة ، معتمد أمير المؤمنين - أدام الله علاه - مقاليد أعمالك .. وأراد خادم الدعاء ، أن يطير .. إلى مخيم العلاء .. ، ثم قدم تذكرة إلى المجلس الأسنى .. ، ومهرها أن تقع من السدة السامية موقع القبول ، ومتضمنها عقائل العقول ، ولخب الشرع المنقول ، وقد صدرتها بقواعد عن العقائد على أساليب لم أسبق إليها ، ثم اتبعتها بما لا يسوغ الذهول عنه من أركان الإسلام ، وسميتها : النظامية في الأركان الإسلامية ، أنظر الجويني : العقيدة النظامية ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ، ص ٧ - ٨ .

(٢) هو محمد بن محمد الطوسي الشافعي ، المعروف بالغزالى ، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ ، ثم ارتحل إلى نيسابور ودرس على إمام الحرمين الجويني ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك السلجوقي ، فأقبل عليه نظام الملك ، وعظمت منزلة الغزالى ، وأسند إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ، وتوفي الغزالى سنة ٥٠٥ هـ .

أنظر ترجمته الغزالى عند ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ٢٩١ - ٢٩٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان (الطبعة القديمة) ج ١ ، ص ٥٨٦ - ٥٨٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، ٩: ١٦٩ - ١٧٠ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ٤: ١٠١ - ١٨٢ .

(٣) جاء في أول رسائل العقائد والوعظ إلى ملكشاه : .. قال .. أبو حامد .. الغزالى ، رحمة الله عليه ، يخاطب السلطان محمد بن ملكشاه ، رحمة الله عليه : أعلم يا سلطان العالم ، وملك الشرق والغرب ، أن لله تعالى عليك نعمًا ظاهرة ، وآلاء متكاثرة ، يجب عليك شكرها .. ؛ ثم يلخص الأشعرى للسلطان ملكشاه العقيدة الأشعرية في ست قواعد ثم يقدم له مواعظ خاص بالعدل في الرعية وكيفية سياسة الملك . (أنظر الغزالى : رسائل العقائد والوعظ إلى ملك شاه ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الخانجي بمصر ، بتحقيق بدر الدين الحلبى ، ضمن مجموعة رسائل للغزالى ، طبع سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٧م ، ص ٦١ - ٧٩ من المجموعة) .

(٤) صرح الجويني في أوله بإهدائه إلى نظام الملك بقوله : قد تقدم الكتاب النظامى ، محتويًا على العجب العجاب .. ووافى الجناب الأسمى .. ، والآن ، كما يقضى مساق هذا الترتيب ، إلى تسمية الكتاب والتلقيب ، وقد تحقق للعالمين أن صدر الأنام .. يدعى بأسماء تبر عليها معانية .. ، فهو غياث الدولة ، وهذا إذا تم (غياث الأمم في التياث الظلم) ، فليشتهر بالغياثى ، كما شهر الأول بالنظامى ، (أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ٣ - ١٣) .

النيسابورى[1] ، إلى دمشق ، نزولاً على طلب العلماء[2] ، الذى ألف عقيدة ، أهداها إلى صلاح الدين ، فحفظها صلاح الدين إبان خدمته لنور الدين بالشام ، وحفظها لأولاده ، مما أدى إلى شدة تمسكهم بالعقيدة الأشعرية[3] . وأيضًا ظلب صلاح الدين من قاضيه ابن درباس تأليف رسالة فى الذب عن العقيدة الأشعرية[4] ، كما طلب من هبة الله المكى أن يؤلف له قصيدة يلخص فيها العقيدة الأشعرية ، حتى يسهل على الناس حفظها[5] .

والواقع أن دعاة الشاعرة ، فى سبيل نصرتهم لدعوتهم ، ومحاربة دعوة الاعتزال والدعوة الفاطمية ، واحتواء سلاطين ووزراء السلاجقة ـ الأمر الذى أدى فى النهاية على غلبة المذهب الأشعرى على العالم الإسلامى كله ـ قد لاقوا من الصعوبات وبذلوا من الجهد ، ما قد لا يقل عن جهود دعاة الإسماعيلية من قبل فى نشر دعوتهم ؛ كما أن دعاة الأشاعرة ، قد ابتكروا من الوسائل والطرق ، لاجتذاب المستجيبين إلى دعوتهم ، وتحويل معتنقى المذاهب الاعتزالية والشيعية إلى الدعوة الأشعرية ، ما قد لا يقل أيضًا عن الوسائل التى اتخذتها الدعوة الإسماعيلية من قبل لنشر التشيع .

لقد بدأ الإمام أبو الحسن الأشعرى ، مؤسس المذهب ، ينشر مذهبه بنفسه بمدينة البصرة بعد الثلاثمائة واستمر فى ذلك حتى وفاته سنة ٣٢٤هـ/٩٤٤م[6] . ثم استمر تلامذته العراقيون فى نشر الدعوة بالعراق ، بحيث انتشر مذهبه فى العراق بأكمله نحو سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ومن العراق انتشر إلى الشام[7] ، وإن لوحظ أنه بعد وفاة الأشعرى بيسير ، استعاد المعتزلة بعض قوتهم فى عهد بنى بويه ، ولكن تلميذ الأشعرى الشهير ، أبو بكر الباقلانى[8] ، الذى عرف بناصر السنة ، قمعهم

(١) هو أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى ، ولد بنيسابور سنة ٥٠٥هـ ، وقدم بغداد ، ثم دمشق، ودرس بالمدرسة المجاهدية والغزالية بدمشق ، وتوفى سنة ٥٧٨هـ . ودفن بمقابر الصوفية ، وألف عقيدة أهداها لصلاح الدين ، أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان (الطبعة القديمة) ، ج ٢ ، ص ١٢٠ – ١٢١ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ٤: ٣٠٩ – ٣١٠ ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٨٣ – ١٨٤ ، ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٢) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى لابن عساكر ، ص ١٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، وأنظر قبله .

(٤) طبقت هذه الرسالة بالهند ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ، وأنظر قبله .

(٥) عنوان هذه القصيدة .. حدائق الفصول .. طبعت بمصر ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ، وأنظر قبله .

(٦) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٢٧ – ١٢٨ ، أنظر قبله .

(٧) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، وأنظر قبله .

(٨) هو محمد بن الطيب البصرى ، ثم البغدادى المعروف بالباقلانى ، أبو بكر ، متكلم على مذهب الأشعرى . ولد بالبصرة سنة ٣٣٨ . وسكن ببغداد ، رد على المعتزلة والشيعة والخوارج والجهيمة وغيرهم ، وتصانيفه " أسرار الباطنية " أنظر ترجمته عند ابن عساكر ، تبين ، ص ٢١٧ – ٢٢٥ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، ج ٥ ، ص ٣٧٩ – ٣٨٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان (الطبعة القديمة) ج ١ ص ٦٠٩ .

بحجته[1] ؛ فيذكر ابن عساكر مناظرة الباقلانى للمعتزلة فى مجلس فناخسروا البويهى ، وقطعة لهم وتأليفه كتابه الشهير التمهيد فى الدين ، بحيث كان بداية انتشار مذهب الأشعرى فى إيران على يد الباقلانى من مدينة شيراز عاصمة ملك فناخسرو[2] ، ثم تابع تلامذة الباقلانى ، نشر الدعوة فى العراق وخراسان[3] ، بحيث دانت للسنة على الطريقة الأشعرية أهل البسيطة إلى أقصى بلاد أفريقية ، وغلبت الدعوة الأشعرية على بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب[4] .

وهنا يستوقفنا أن الدعوة الأشعرية ، بعد احتوائها للدعوة البويهة الشيعية بالعراق وإيران ، راحت تركز جهودها لنشر عقيدتها السنية فى البلاد التى كانت خاضعة فى القرنين الرابع والخامس الهجرى للخلافة الفاطمية الشيعية وهى بلاد الشام ومصر والمغرب والحجاز .

وأول من نشر الدعوة بالشام ، صاحب الأشعرى ، أبى الحسن عبد العزيز الطبرى ، راوية تفسير ابن جرير الطبرى عن مؤلفه[5] ، ثم تأكد انتشارها بالشام ، حين بعث أبو بكر الباقلانى ، فى جملة من بعث من أصحابه إلى البلاد لنشر الدعوة ، داعيه أبا عبد الله بن حاتم الأزدى إلى الشام ثم إلى القيروان وبلاد المغرب ، فدان له أهل العلم من ائمة الشوام والمغاربة[6] ؛ وتعود أهل الشام ، على اجتلاب كبار الأئمة من المذهب الأشعرى حينًا بعد حين ، كالإمام قطب الدين النيسابورى ، الذى اجتلبه نور الدين زنكى ، على طلب العلماء[7] ، ولقد ألف القطب النيسابورى عقيدة لصلاح الدين حفظها هو وأولاده حين كان لايزال فى خدمة نور الدين ، فاعتنقوا المذهب الأشعرى وتحمسوا له[8] ؛

(١) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، لابن عساكر ، ص ١٥ .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٠ ، انتشرت الدعوة الأشعرية بنيسابور على يد أبى الطيب الصعلوكى، (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٥٤) ، وفى خرجان على يد عبد الملك الجرجانى (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٥٤ - ٥٥) ، ولقد نجح أبو بكر القفال الشاشى فى نشر مذهب الأشعرى وفقه الشافعى فى بلاد ما وراء النهر (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٨٢) .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٥ .

(٥) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٩٥ ، محمد الكوثرى : مقدمة تبين ، ص ١٥ .

(٦) ابن عساكر : تبين ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، محمد الكوثرى : مقدمة تبين ، ص ١٥ .

(٧) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٦ .

(٨) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٤ وأنظر قبله .

وحين توفى الإمام ابن عساكر ، مؤرخ الدعوة الأشعرية ، وناصرها فى بلاد الشام بدمشق سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م، حضر جنازته بالميدان والصلاة عليه السلطان صلاح الدين الأيوبى بنفسه [(١)].

والغريب أن الفاطميين بالشام ، لم يدركوا منذ الوهلة الأولى خطورة دعاة الأشاعرة على وجودهم المذهبى والسياسى فى بلاد الشام ، فنسمع أن إمام المسجد الأموى ، إبان قوة الفاطميين بالشام ، كان أشعرى المذهب[(٢)] ، وإن كان يبدو أن أبا عبد الله الأزدى ، الذى بعثه الباقلانى لنشر الدعوة بالشام ، لم يهنأ له الاستقرار هناك ، واضطر إلى مغادرة الشام إلى المغرب حيث استقر بالقيروان[(٣)] .

ولكن ما لبث دعاة الأشاعرة ، أن أظهروا حقيقة نواياهم العدائية ضد الحكم الفاطمى بالشام فاتخذوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وسيلة لمناوءة الحكم الفاطمى بدمشق[(٤)] . وأغلب الظن أنهم حققوا لدعوتهم قدرًا كبيرًا من النجاح ، تأييد بسقوط الحكم الفاطمى بالشام ، واستقرار الفرع السلجوقى الشامى هناك ، واتخاذه من دمشق عاصمة له[(٥)] . بحيث أننا نجد السلطان تتش بن الب أرسلان السلجوقى ، يتردد بنفسه على الفقيه والمتكلم الأشعرى أبو الفتوح لصر المقدسى ، ويستشيره فى أموره ، وكان أبو الفتح المقدسى ، قد اشتهر بعداوته للشيعة[(٦)] .

أما فى مصر عاصمة الخلافة الفاطمية ، فلقد حاول الأشاعرة نشر عقيدتهم بمصر ، فى آخر العصر الأخشيدى ، وقبيل الفتح الفاطمى لمصر ، عن طريق محاولة استمالة الوزير الأخشيدى جعفر بن الفرات[(٧)] . ولكن يبدو أن هذه المحاولة باءت بالفشل ربما نتيجة للنشاط المتزايد لدعاة الفاطميين فى نشر مذهبهم بمصر فى نهاية العصر الأخشيدى[(٨)] ، وأغلب الظن أن دعاة الأشاعرة بمصر ظلوا

(١) أنظر ترجمة ابن عساكر عند العماد : الخريده ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ، ابن خلكان : وفيات ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ٤ : ٢٧٣ - ٣٤٣ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٦١ ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ١ : ١٠٠ - ١٠١ ، والجدير بالذكر أن نور الدين زنكى ، قد بنى دار الحديث النورية بدمشق ، وأوكل إلى ابن عساكر التدريس بها .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) ابن عساكر : مصدر سابق ، ص ٢٨٦ .

(٧) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٩٣ .

(٨) ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٠٦ .

فى خفية وتستر ، طالما ظلت الخلافة الفاطمية قوية متماسكة ، ولكن مع ضعف الخلفاء المتأخرين وتغلب وزراء السيوف على السلطة الحقيقية واستهانتهم بالسلطة الروحية للخلفاء ، مما أدى بالتالى إلى ضعف العقيدة الإسماعيلية فى قلوب المصريين[1] ، استقوى نشاط دعاة الأشاعرة بمصر ، فى أيام الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، فحدثت فتنة ضخمة عرفت بفتنة القصار ، أشعلها داعيان أشعريان منذ سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م . مما أدى إلى إغلاق الفاطميين لدار العلم ، إذا استطاع هذان الداعيان واسم أولهما بركات واسم الثانى حميد بن مكى الأطفيحى ، استمالة عدد من الأساتذة المحنكين من حاشية القصر الفاطمى ، وانتهى الأمر ، بقتل هؤلاء الأساتذة المحنكين ، وقتل الداعى بركات ، ونجاح القصار فى الهرب ، ثم عاد مرة أخرى يبث دعوته ويستميل المصريين إليها فى عصر المأمون البطائحى ويستهوى عقول الناس ، حتى تم قتله فى سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م[2] .

أما بلاد الحجاز ، فكان أول من قام بنشر المذهب الأشعرى بها الحافظ أبو ذر الهروى راوية كتاب الجامع الصحيح ، وعنه أخذ من ارتحل إليه من علماء الأفاق[3] ، ثم قام إمام الحرمين الجوينى بجهود أخرى فى سبيل هذه الغاية ، وذلك بعد هروبه من نيسابور سنة ٤٤٥هـ م / ١٠٥٣م ، عقب محنة الأشاعرة بها ، واستقراره لعدة أعوام مجاورا بمكة[4] .

ويبدو أن انتشار الدعوة الأشعرية بالمغرب والأندلس ، إبان الحكم الفاطمى ، كانت أكثر سهولة ويسرًا ، وذلك لضعف السيطرة السياسية للفاطميين على هذه البلاد . فبعد استقرار أبو عبد الله الأزدى بالقيروان واستجابة أهلها لدعوته[5] . رحل إلى بلاد الشام عالم مغربى ، هو أبو عمرو عثمان بن أبى بكر بن حمود بن أحمد السفاقسى ، وأخذ المذهب بالشام ثم عاد ونشره بالقيروان ، بعد أن قص على أهلها قصة خروج أبى الحسن الأشعرى عن مذهب المعتزلة[6] . ثم تناوب نشر مذهب الأشعرى بالمغرب كبار فقهاء القيروان مثل محمد بن سحنون ، وابن الحداد ، وإبى محمد بن أبى زيد ، وأبى الحسن القابسى[7] ، وفى نفس الوقت بذل كل من ابن أبى زيد

(١) أنظر قبله .
(٢) راجع خبر طويل عن فتنة القصار ، عند المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .
(٣) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٥ - ١٦ .
(٤) أنظر ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢٧٨ - ٢٨٥ .
(٥) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٩٥ ، وأنظر قبله .
(٦) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٤٠ ؛ كما يفيد ابن عساكر أن المذهب الأشعرى انتشر بالمغرب على يد تلميذ آخر للباقلانى غير ابن عبد الله الأزدى ، وهو أبو طاهر البغدادى الناسك الواعظ ؛ والملاحظ أن كلاهما استقر بالقيروان (أنظر ابن عساكر ص ١٢٠ - ١٢١) .
(٧) ابن عساكر : المصدر السابق ، ١٢٢ .

وأبى عمران الفاسى ، وأبى الحسن القابسى ، وأبو الوليد ابن الباجى ، وابن بكر بن العربى ، جهودًا كبيرة ، فى نشر المذهب فى صقلية والأندلس على يد علماء المالكية[1] ، بل حاول محمد بن أبى زيد المالكى ، أن ينشر المذهب الأشعرى بمصر فى نهاية العصر الفاطمى ، بأن ألف رسالة عن العقيدة الأشعرية ، وأرسلها إلى مصر ، فعمد محدثو مصر من أهل السنة ، مثل على بن بقاء المصرى الوراق على استنساخها بخطوطهم[2] ؛ أى أن المذهب الأشعرى ، أحرز من النجاح والرواج بالمغرب ، ما جعل من مدينة القيروان قاعدة لنشره بالأندلس وصقلية ومصر .

ولاشك أن الغلبة الحقيقية للمذهب الأشعرى على أغلب أرجاء العالم الإسلامى ، لم تتحقق إلا بعد اعتناق سلاطين السلاجقة بإيران والعراق ثم الشام له ؛ وهذا لم يتأت إلا بعد اضطهاد وأهوال ذاقها الأشاعرة ، على يد السلطان طغرلبك السلجوقى ووزيره عميد الملك الكندرى ، الذى كان معتزلى المذهب ، فأمر فى سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م ، بلعن الأشعرى على المنابر ، وبطرد الأشاعرة من نيسابور[3] ، وكانت أهم مراكز دعوتهم . ومن نيسابور انتشرت محنة الأشاعرة فى الآفاق[4] ؛ وذلك بعد عزل شيخهم أبى عثمان الصابونى من خطابه نيسابور ، ونفى أبو المعالى الجوينى من البلدة[5] ، وأرغم بعضهم على التبرأ من مذهبه لتلافى النفى[6] ، واضطر الأشاعرة إلى رفع عريضة ، على لسان شيخهم أبى بكر البيهقى ، إلى السلطان طغرل السلجوقى ووزيره عميد الملك الكندرى ، يؤكدون أنهم من أهل السنة والجماعة ، ويشرحون كيف أن الأشعرى ، ليس من المتكلمين المبتدعين ، بل إن مذهبه قد صيغ لنصرة مذاهب ائمة فقهاء أهل السنة المجتهدين ، وشرح منهج السلف ؛ وإن اعتقادهم السياسى ، هو أن استقامة أمور الدنيا والدين بصلاح الولاة والسلاطين ، وأنهم يقررون أن بقاء الملك يكون بالعدل ، وأن صلاح الملك بصلاح الدين[7] .

(١) ابن عساكر : المرجع السابق ، ص ١٢٣ ؛ وأنظر ابن حجر : لسان الميزان ؛ ابن فرحون : الديباج .
(٢) محمد زاهد الكوثرى: تبين كذب المفترى ، ص ١٥ . وقد رأيت هذه الرسالة مطبوعة بتونس عند زيارتى لها.
(٣) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١١٠ – ١١١ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٥٧ .
(٤) ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(٥) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٠٨ .
(٦) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٢٦٤ . ولقد وصلنا نص محضر كتبه شيوخ الأشاعرة بنيسابور بخصوص عقيدتهم مؤرخ سنة ٤٣٦هـ ، أى قبل المحنة ، وعليه إمضاءات القشيرى والجنازى والجوينى والشاشى والهروى والأيوبى والصابونى والأسفرائى وغيرهم (أنظر ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١١٢ – ١١٥) .
(٧) أنظر نص هذه العريضة عند ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٠٠ – ١٠٨ .

ثم ابتسمت الأقدار للأشاعره ، باعتناق الوزير نظام الملك لدعوتهم ، واعتناق سلطانه ألب أرسلان أيضًا لمذهبهم ، وبناء نظام الملك المدرسة النظامية لنشر دعوتهم بالعراق[1] ، ومن يومها أصبحت المدارس السنية ، أهم وسائل نشر الدعوة الأشعرية ، وعن طريقها تحولت مصر والشام معقل الإسماعيلية إلى المذهب السنى على يد الزنكيين ثم الأيوبيين[2] .

ولقد شبه الأشاعرة لعنهم على المنابر فى عهد السلطان طغرلبك ووزيره الكندرى بلعن الإمام على بن أبى طالب على المنابر فى الدولة الأموية نحوا من ثمانين سنة[3] وسجل أبى القاسم القشيرى محنته ومحنة زملائه بنيسابور فى رسالة سماها . شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة ، رفعها إلى العلماء الأعلام بجميع بلاد الإسلام[4] .

وفى سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، أزال الوزير نظام الملك فى عصر ملكشاه ، لعن الأشاعرة على المنابر[5] ، وكان الب أرسلان قد قتل الوزير المعتزلى عميد الملك الكندرى الذى امتحنهم بإيحاء من وزيره الجديد نظام الملك[6] ، ومن يومها اعتنق جمع سلاطين السلاجقة العقيدة الأشعرية[7] .

وكانت وسائل نشر الدعوة الأشعرية ، سواء قبل اعتناق نظام الملك وسلاطين السلاجقة لها أو بعدها هى نفسها لم تتغير ، وهى تطابق فى الواقع الوسائل التى اتخذها الأيوبيون فى مصر لنشر الدعوة السنية والقضاء على الدعوة الإسماعيلية ، مثل إنشاء المدارس[8] والخوانق[9] ، والمنشآت الاجتماعية ، مثل دور المرضى ودورها الغرباء[10] ، ووقف عليها الأوقاف[11] ؛ بحيث فاخر دعاة

(١) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٠٨ – ١٠٩ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ : ٦٤ – ٦٨ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٢٠٤ – ٢١٠ .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط : ص ١٩٢ – ١٩٣ ، وأنظر قبله .

(٣) ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٩ – ١١٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ١٠: ٢٠٩ ، أبو الفدا : المختصر ، ٣: ١٩٣ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

(٦) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

(٧) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣ ، وأنظر قبله .

(٨) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٩٩ ، ص ٢٠٨ ، ص ١ ، ص ٢١١ ، ص ٢٣٢ ، ص ٢٧٩ ، ص ٢٨٠ ، ص ٢٩٢ ، ص ٣٢٤ وأنظر قبله .

(٩)ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٢٩٥ وأنظر قبله .

(١٠) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٦ .

(١١) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٩٩ ، ص ٢٩٥ .

الأشاعرة المتأخرون مثل عبد القاهر البغدادى[1] ، ومظفر الدين الأسفرايني[2] ، بأن منشآت أهل السنة وملوكهم ، لم يستطع الفاطميون إنشاء مثلها ؛ كما تولى الكثيرون من فقهائهم وائمتهم منصب القضاء في العصر السلجوقي[3] ، الذى كان أغلب الظن شأن الحال فى الدولتين الزنكية والأيوبية ، له الإشراف الأعلى على المدارس السنية[4] .

وإذا كان الإمام أبى الحسن الأشعرى ، قد عمد إلى اجتذاب جمهور الصوفية إلى دعوته باعترافه بكرامات الأولياء[5] ، وجعله الإيمان ، منوط بالقلب ، شأن الصوفية والمرجئة[6] ، على عكس المعتزلة الذين جعلوه مقترنًا بالعقل[7] ؛ فلقد لاحظ الباحثون المحدثون أنه بتأثير الأشاعرة وتأثير الغزالى بنوع خاص ، اكتسب المتصوفة مركزًا ممتازًا فى العالم الإسلامى[8] .

ولا يغب عنا أن جميع ائمة التصوف السنى ، كانوا من معتنقى العقيدة الأشعرية[9] ، الداعين إليها ، ولقد ترجم لهم جميعًا ابن عساكر بين أئمة الأشاعرة ، ومن هؤلاء الصوفية الذين اعتنقوا العقيدة الأشعرية وعملوا على نشرها أبو الحسن الباهلى[10] ، وبندار الشيرازى[11] ، وأبو سهل الصعلوكى النيسابورى[12] ، وأبو عبد الله بن خفيف الشيرازى[13] ، وابن سمعون البغدادى[14] ، وابن الدقاق شيخ أبى القاسم القشيرى[15] ، وأو نعيم الأصفهانى[16] ، صاحب أشهر كتاب

(١) أنظر عبد القاهر البغدادى ، ت ٣٢٥ هـ : الفرق بين الفِرَق ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع القاهرة ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) أنظر أبو المظفر الأشعرانى ، ت ٤٧١هـ ، البصير فى الدين ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع القاهرة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥م ، ص ١٧٦ .

(٣) أنظر ابن عساكر : تبين ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦١ .

(٤) أنظر قبله .

(٥) أنظر قبله .

(٦) أنظر قبله .

(٧) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ٩١ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٩٣ .

(٩) يأتى على رأس هؤلاء الإمام الصوفى الشهير محى الدين ين عربى ، كما حقق الإمام شمس الدين السخاوى فى رسالته المسماة (الكفاية فى طريق الهداية) ، وهى فى بيان عقيدة ابن عربى ، وإن جعل ابن عربى عقيدة الأشعرى هى عقيدة العامة ، وجعل عقيدة الصوفية هى عقيدة الخاصة ، وجعل قوله هو فى وحدة الوجود ، هو عقيدة خاصته الخاصة . ومن هذه الرسالة نسخة خطية بالمكتبة الوطنية بتونس برقم ٦٦٦٢ ، قمت بنسخها إبان وجودى هناك ، وهى تحت التحقيق والطبع إن شاء الله .

(١٠) ابن عساكر : تبين ، ص ١٧٨ .

(١١) نفس المصدر ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ١٨٣ - ١٨٨ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

(١٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٠ .

(١٥) نفس المصدر ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(١٦) نفس المصدر ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

فى تراجم الصوفية ، وهو كتاب حلية الأولياء[1] ، وأبو القاسم القشيرى[2] ، صاحب أشهر كتاب فى الفكر الصوفى « الرسالة القشيرية »[3] ، وأبو عبد الله الفراوى[4] ، وإمام الحرمين الجوينى[5] ، وأبو حامد الغزالى[6] ، الذى ألف كتابًا شهيرًا فى التصوف فى نهاية حياته هو المنقذ من الضلال[7] ، فلا غرو أن أصبح التصوف من أقوى وسائل نشر الدعوة الأشعرية ومحاربة مذاهب التشيع ، وهذا ما أدركناه بوضوح فى العصر الأيوبى بمصر[8] .

كما عمد دعاة الأشاعرة إلى عقد مجالس التذكير والوعظ الصوفى[9] ، وعقد المناظرات الكلامية بينهم وبين مخالفيهم من متكلمى الشيعة وغيرهم ؛ كذلك كانت الخطابة أيضًا على المنابر ، إحدى وسائل نشر العقيدة الأشعرية[10] .

ولقد وجه هؤلاء الدعاة اهتمامًا كبيرًا نحو تأليف مؤلفات فى شرح العقيدة الأشعرية وتفنيد عقائد المخالفين لها ، ونشرها فى الآفاق ، فكانت كتب أبو الحسن الأشعرى فى الأفاق مبثوثة[11] ، وكان للأشعرى خمسة وخمسون تصنيفًا[12] ، كذلك اشتهرت مؤلفات الباقلانى[13] ، والجوينى[14] ، والغزالى[15] .

(١) طبع هذا الكتاب فى عشر أجزاء ضخمة بمصر على نفقة مكتبة الخانجى ومطبعة السعادة ، سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢ م .
(٢) طبع هذا الكتاب لأول مرة بمصر سنة ١٢٨٤ هـ بمطبعة بولاق ثم طبع بعد ذلك مرارًا .
(٣) ابن عساكر : تبين ، ص ٣٢٢ – ٣٢٥ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨٤ .
(٥) أنظر قبله .
(٦) نفس المصدر ، ص ٢٩١ – ٢٩٨ .
(٧) طبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٨٥ هـ ، بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود .
(٨) أنظر قبله .
(٩) أنظر ابن عساكر : تبين ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، و ٢٨٣ .
(١٠) أنظر نفس المصدر ، ص ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ و ٢٨٢ .
(١١) نفس المصدر ، ص ١١٢ – ١٤١ .
(١٢) نفس المصدر ، ص ١٢٨ – ١٤٠ .
(١٣) أنظر مثلا الباقلانى : التمهيد فى الدين ، فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ، تحقيق محمود محمد الخضيرى ، محمد عبد الهادى أبو ريدة، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م، ومنه طبعة أخرى بتحقيق يوسف مكارثى اليسوعى ، المكتبة الشرقية بيروت ، ١٩٥٧ ، وأنظر أيضًا كتاب الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، تحقيق الكوثرى القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠ م .
(١٤) أنظر قبله كتابيه " غياث الأمم ، والعقيدة النظامية " ، ولقد نشرت الدكتورة فوقية حسين أخيرًا بعض مؤلفات الجوينىفى علم الكلام ، كذلك نشر له من قبل كتابه الإرشاد ، فى علم الكلام .
(١٥) أنظر قبله ، وأنظر عبد الرحمن بدوى : مؤلفات الغزالى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، واشهر مؤلفات الغزالى " إحياء علوم الدين ، وهو موسوعة فى العلوم الإسلامية ، وكتابه تهافت الفلاسفة ، الذى أظهر فيه فساد مذاهب الفلاسفة ، وكتاب المنقذ من الضلال ، الذى دلل فيه على صدق طريقة الصوفية فى تحقيق الإيمان .

وفى نفس الوقت عمد فريق آخر ، من دعاة الأشاعرة التى تأليف المؤلفات فى تاريخ الفرق الإسلامية ، وعرض مذاهبها ، وتفنيدها من وجهة نظر المذهب الأشعرى ؛ فكان من هؤلاء ، الأشعرى نفسه فى كتابه مقالات الإسلاميين[1] والشهرستانى فى كتابه الملل والنحل[2] ، وكتابه نهاية الإقدام فى علم الكلام[3] ، وعبد القاهر البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق[4] ، وكتابه أصول الدين[5] ، وأبو إسحاق الأسفرانى فى كتابه التبصير فى الدين[6] .

وغنى عن البيان أن كل هذه الوسائل التى اتخذها دعاة الأشاعرة لنشر دعوتهم قد طبقها الأيوبيون بمصر ولم يقصروا فى واحدة منها[7] ؛ ومع ذلك فلم يكن نشر العقيدة الأشعرية بمصر فى العصر الأيوبى ، هيّنا سهلاً ، وذلك لوجود عدد من الحنابلة ، أعداء الأشاعرة ، ومخالفيهم فى مسألة الصفات الإلهية ؛ فنسمع عن عداء شديد بين شهاب الدين الطوسى الأشعرى ، وزين الدين بن نجية الواعظ الحنبلى بمصر[8] ؛ كما نسمع عن عداء سافر أيضًا بين شهاب الدين الطوسى ، وطائفة الحنابلة بمصر[9] .

ونحن نفسر عناية الأيوبيين ، بنشر الفقه الشافعى بمصر عن طريق تفويض القضاء لقاضى قضاة شافعى أشعرى هو ابن درباس الكردى، ثم عزل جميع القضاه الإسماعيلية وتعيين بدلهم قضاة شوافع، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعى[10] ؛ بأن العقيدة الأشعرية ، أصبحت هى العقيدة المفضلة فى مسائل أصول الدين عند جميع فقهاء الشافعية ، بحيث أصبح ثلاثة أرباع الفقهاء الشافعيين على العقيدة الأشعرية[11] ، فى حين بالغ الفقيه الحنبلى أبو الفرج ابن الجوزى ، فذكر أن جميع فقهاء

(١) طبع هذا الكتاب بتحقيق المستشرق الألمانى ، هلموت ريتر ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣م .

(٢) طبع بمطبعة بولاق على هامش كتاب الفصل فى الملل والنحل لابن حزام الأندلسى ، ثم طبع منفردًا مرارًا .

(٣) طبع بتحقيق المستشرق الفريد جيوم .

(٤) طبع هذا الكتاب بتحقيق محمد زاهد الكوثرى ، بالقاهرة ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م .

(٥) طبع هذا الكتاب باستانبول سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م .

(٦) طبع هذا الكتاب بتحقيق محمد زاهد الكوثرى ، القاهرة ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م وأنظر أيضًا كتاب الفخر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، طبع بالقاهرة .

(٧) أنظر قبله .

(٨) أنظر أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٩) أبو شامة : نفس المصدر ، ص ١٨ - ١٩ .

(١٠) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦١ وأنظر قبله .

(١١) محمد زاهد الكوثرى ، مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٦ .

الشافعية ، قد أخذوا بمذهب الأشعرى[1] فى العقائد والقضايا الإيمانية ؛ والواقع أننا كثيرًا ما نسمع فى تراجم الفقهاء بأنه كان يناظر على مذهب الشافعى فى الفقه وعلى مذهب الأشعرى فى الكلام[2]، كما أن الداعى الأشعرى أبو بكر القفال الشاسى ، قد نشر الفقه الشافعى والعقيدة الأشعرية فى بلاد ما وراء النهر[3] ، وفى كل هذا ما يشير إلى تمسك فقهاء الشافعية بالعقيدة الأشعرية ، واعتزار متكلمى الأشاعرة بالفقه الشافعى .

أما الإمام الأشعرى نفسه ، فقد نشأ على مذهب أبى حنيفة ، شأن أغلب المعتزلة ، وهو نفسه معتزلى فى بادىء الأمر ، ثم نظر فى جميع مذاهب الفقه ، مما ساعده على جمع شمل أهل السنة ، وإن كان قد صرح فى حياته بإعجابه الشديد بفقه أحمد بن حنبل - ربما لاجتذاب الحنابلة إلى عقيدته[4] - أما فى القرنين الخامس والسادس والسابع الهجرى ، فقد أصبح المذهب الشافعى ، هو المذهب الفقهى المفضل لعلماء الأشاعرة ، فنجد الإمام الجوينى ، يؤلف كتابًا بعنوان « عقيدة أصحاب الإمام المطلبى الشافعى » ، ذكر فيه أن مخالفات الأشعرى للشافعى فى فروع الفقه ، تقل وتعز[5] ، كما ألف الإمام الفخر الرازى كتاب « مناقب الإمام الشافعى »[6] .

ويذكر المقريزى أنه لم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر ، كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل ثم اشتهر مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل فى أخرها[7] ، وذلك على يد الفقيه الحنبلى ابن تيمية الحرانى ، الذى أظهر الدعوة السلفية ، وهاجم المعتزلة والأشاعرة على حد سواء ، على أساس أن كلاهما من المتكلمين وليسوا من أهل الحديث ، شأن الحنابلة[8] .

ولا شك أنه من العوامل التى ساعدت الأيوبيين على نشر الفقه الشافعى بمصر ، أنه كان قد انتشر بها من قبل انتشارًا كبيرًا منذ سكن الإمام الشافعى الفسطاط ، ودفن بها[9] .

(١) ابن الجوزى : المنتظم ، ٥ : ٣٣٢ - ٣٣٣ ، إبان ترجمة أبى الحسن الأشعرى .
(٢) ابن عساكر : تبين ، ص ١٨٢ .
(٣) نفس المصدر ، الصفحة .
(٤) ابن عساكر : تبين ، ص ١١٤ ، ص ١١٧ ، هامش (١) إلى ص ١١٨ .
(٥) نفس المصدر ، ص ١١٥ .
(٦) طبع هذا الكتاب بالقاهرة .
(٧) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦١ .
(٨) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .
(٩) راجع محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة) دار الفكر العربى ، د. ت ، ص ٥١ - ٦٠ .

ويرى المستشرق أيرلابيدوس أن الهدف الأساسى للسياسة الدينية فى العصر الأيوبى ، كان إعادة النشاط للمذاهب الشرعية فى القاهرة ومصر ، وكانت هذه المذاهب الفقهية قد تطورت بمضى الزمن إلى أجهزة ذات اهتمامات إدارية واجتماعية (مثل النظم المالية والقضائية ووسائل الدعوة) وما حل القرن الخامس الهجرى ، حتى اتخذت كل هذه المذاهب شكل الجماعات التى يغلب عليها الطابع الاجتماعى والدينى معًا[1] .

والخلاصة أن كل من العقيدة الأشعرية ووسائل نشرها من ناحية والفقه الشافعى من ناحية أخرى ، كانت تمثل فى العصر الأيوبى ، إحدى شقى الدعوة السنية التى نشرها الأيوبيون بعد قضائهم على الدعوة الإسماعيلية .

(١) إيرا لابيدوس : السياسة الدينية فى عهد الأيوبيين ، وتطور المذاهب الشرعية فى القاهرة ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس – إبريل ١٩٦٩م ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠م ، الجزء الأول ، ص ٢٥٣ – ٢٥٥ .

الفصل الرابع

الوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية

- فقدان الخلافة لسلطتها الزمنية وظهور السلاطين .

- مصر الأيوبية « إمارة استيلاء » ودارًا للـ « سلطنة الأيوبية » .

- إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية .

- نهوض الأيوبيين بفريضة الجهاد .

- استجابة سلاطين بنى أيوب لدعوة الفتوة الناصرية الخليفتية .

الوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية

فقدان الخلافة لسلطتها الزمنية وظهور السلاطين :

تذكرنا أسرة بنى أيوب الكردية ، بالأسر الطموحة ، التى سيطرت من قبل على السلطة الزمنية فى ديار الإسلام ، بعد ضعف النفوذ السياسى لوظيفة الخلافة ، واستبداد الأمراء العسكريين من أرباب السيوف بالسلطة التنفيذية الفعلية فى البلاد ؛ فمقارنة ملابسات نشأة الأسرة الأيوبية[1] ، وظهورها فى ساحة التاريخ الإسلامى ، بتاريخ ظهور أسرتى بنى بويه وبنى سلجوق ، يوضح لنا مدى تشابه تاريخ هذه الأسر العسكرية الثلاث ، التى استطاعت السيطرة على الخلافة العباسية ، وتولى التوجيه السياسى والعسكرى للعالم الإسلامى .

ولقد عرفت دولة الخلافة العباسية بالعراق لأول مرة ، هذا النمط من الحكم العسكرى ، المتغلب على وظيفة الخلافة ، صاحبة السلطات الشرعية فى ديار الإسلام ، منذ ظهور وظيفة أمرة الأمراء فى بغداد ، منذ عصر الخليفة العباسى الراضى بالله ، فى القرن الرابع الهجرى ٣٢٤هـ / ٩٣٥م[2] .

(١) أنظر ابن الأثير : الباهر ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، الكامل ، ١٠: ٦٧٥ ، ١١ ، ١١٨ ، ٢٥١ - ٢٥٢ ، ٣٤١ - ٣٤٣ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٤٢٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٩ ، ابن خلكان : وفيات ١: ٢٥٥ - ٢٦١ ، ٧: ١٣٩ - ١٤٧ ، ابن واصل : مفرج ، ١: ٣ - ١٠ ، ابن أيبك : الدر المطلوب ، ٥ - ١٠ ، المقريزى: السلوك ١: ٤١ - ٤٣ ، وراجع على بيومى : قيام الدولة الأيوبية ص ٥٥ - ٩٢ V. Minoreskey: prehistory of Saladin, dans studies in Caucasian History, Cambridge, 1953, 107-128.

حيث يذكر أن نجم الدين أيوب وشيركوه ، قد التحقوا بشبابهما بخدمة الدولة الشدادية الكردية بالجزيرة الفراتية .

(٢) أنظر الصولى : أخبار الراضى والمتقى من كتاب الأوراق ، مطبعة الصاوى بالقاهرة ، ص ٨٥ ، حسن أحمد محمود ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ص ٣٦٧ - ٣٨٤ .

وما لبث هذا النمط من الحكم العسكرى ، أن تحول إلى ملك وراثى فى القرن الرابع والخامس الهجرى ، بعد سيطرة أسرة بنى بويه الفارسية ، على الخليفة العباسى فى بغداد وحجرهم عليه ، وإرغامهم له على تفويض جميع سلطاته الشرعية لهم(١) .

أما دولة الخلافة الفاطمية بمصر ، فكان ظهور هذا النمط من الحكم العسكرى بها ، فى وقت لاحق لظهوره فى دولة الخلافة العباسية بالعراق ، إذ أن هذا الحكم العسكرى المستبد بالسلطة دون الخلافة ، لم يظهر فى مصر ، إلا منذ الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى ، حين نجح بدر الجمالى فى إنقاذ دولة الخلافة الفاطمية فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، من التصدع والانهيار ، أثر الأزمات الاقتصادية والفتن السياسية ، التى مرت بها الخلافة فى نهاية حكم المستنصر ، وأضطر هذا الخليفة إنقاذًا لدولته وخلافته ، إلى تفويض جميع سلطاته الشرعية إلى الأمير بدر الجمالى ، الذى أصبح بموجب هذا التفويض أول وزراء السيوف المفوضين فى تاريخ الخلافة الفاطمية(٢) .

وكما سبق القول(٣)، فقد لاحظ مؤرخو دساتير الإنشاء بمصر ، أن وظيفة « وزارة التفويض »، التى عرفتها مصر منذ عصر الخليفة الفاطمى المستنصر الله ، واقتصر توليها على الأمراء من أرباب السيوف ، تكاد تطابق الوضع السياسى والشرعى ، لوظيفتى أمرة الأمراء والسلطنة ، اللتين سيطرتا من قبل على التوالى ، على السلطة التنفيذية الفعلية بالعراق ، بعد زوال النفوذ السياسى لخلفاء بنى العباس .

(١) أفاد المسعودى ، أن هذا حدث فى عصر الخليفة المطيع ، وكان ذلك فى السنة التى ألف فيها كتابه التنبيه والإشراف سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، أنظر التنبيه والإشراف ، طبعة الصاوى ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م، ص ٣٤٦، وأنظر ايضًا نفس المصدر ، ص ١٠٦ و ؛ ٢٧٧ويرى ابن الأثير أنه فى سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م أنحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد ، أنظر الكامل ، ٩: ٤٤٠ ، ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م ، حدثت الوحشة بين الخليفة العباسى القائم وجلال الدولة ابن بويه ، أنظر أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ١٧٤ – ١٧٥ ؛ ولقد أوجز المقريزى تاريخ سلطنة بنى بويه ، أنظر السلوك ١: ٢٣ – ٣٠ ، وهو يتتبع إسلام الديلم على يد الداعى الشيعى الزيدى الناصر الأطروش ؛ ويقول ابن الأثير : أن المماليك كانوا قديمًا يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق ، فزالت هيبة الخلافة بالمرة ، إلى إنقراض دولة الديلم ، أنظر الباهر ، ص ٥١ ، وأنظر ابن خلدون : المقدمة ، الفصل الثامن والعشرون ، فى انقلاب الخلافة إلى ملك ، ص ٢٠٢ – ٢٠٨ .

(٢) أنظر الخالدى : المقصد العالى المنشأ ، – خ ، لوحة ١٩٢ ب – ١٩٥ ب ، القلقشندى صبح ، ٩: ٣٩٩ – ٤٠٠ ، ٤٠٠ – ٤٠٣ ، ماجد : نظم الفاطميين ١ : ص ٨٢ – ٨٧ .

(٣) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .

ورغم تسليم فقهاء الإسلام ، بأن هذه الأنماط من الحكم العسكرى ، الذى احتكره الأمراء العسكريين ، وفرض نفسه على ديار الإسلام ، إثر ضعف السلطة السياسية والعسكرية للخفاء العباسيين بالعراق ، والفاطميين بمصر ، نظام عسكرى ، أساسه الاستعداد واستحواذ الملك والسلطة ، اعتمادًا على القوة العسكرية ، واستمالة الأنصار والأتباع بالوسائل السياسية ؛ ورغم تصريح هؤلاء الفقهاء ، بأن هذه الأنماط من الحكم العسكرى ، لاتستند إلى نص شرعى ، وقل أن يتوفر فى القائمين بها الشروط الشرعية اللازم توافرها فى متولى وظيفة الإمامة الكبرى أى الخلافة ، أو ما يقوم مقامها ؛ إلا أن فقهاء الإسلام ، أضطروا إلى قبول هذه الأنماط من الحكم العسكرى ، الذى تبلور فى صورته النهائية فى وظيفة السلطنة ، على أساس أن ما قام به هؤلاء الأمراء المتغلبين على الخلافة ، فى فترات ضعفها السياسى والعسكرى ، من إقرار الأمن فى ديار الإسلام ، ورعاية إقامة شعائر الفرائض الدينية ، وتطبيق أحكام الشريعة ، وتتويج كل هذه الجهود ، بالنهوض بأعباء فريضة الجهاد ، قد ضمن استمرار رفعة كلمة الإسلام ، وتوحيد كلمته ، مما أوجب لهؤلاء الأمراء والسلاطين ، الثناء والتقدير[1] .

وإذا كان احتكار أمراء السيوف ، منذ النصف الثانى من عصر الخلافة الفاطمية ، لوزارة التفويض ، قد أدى إلى ابتذال هؤلاء الوزراء المفوضين لهيبة الخليفة الفاطمى ، والتلاعب بنص الخلفاء على من يتولى الخلافة من أبنائهم ، الأمر الذى شكك المصريين فى العقيدة الفاطمية ، التى ترتكز فى جوهرها على تقديس شخص الخليفة الفاطمى ، وفى نفس الوقت جرّأ بعض هؤلاء الوزراء المفوضين على إعلان استهانتهم بالعقيدة والمذهب الفاطمى ، وإظهار تعاطفهم وميولهم مع المذهب السنى ، بحيث استطاع آخر وزيران سنيان للفواطم ، وهما شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، القضاء نهائيًا على دولة الخلافة الفاطمية ، وإعلان عودة مصر للتبعية للخلافة العباسية بالعراق ، تمهيدًا لإعلان قيام السلطنة الأيوبية السنية بمصر[2] ؛ فإن احتكار أمراء السيوف لوزارة التفويض ببغداد ، فى ظل الخلافة العباسية ، قد شاءت الظروف أن يؤدى هذا الأمر فى النهاية على عكس الحال بالنسبة للخلافة الفاطمية ، إلى يقظة الخلافة العباسية مرة أخرى ، واستقواء النفوذ السياسى لدولتها .

(١) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ٢٣١ – ٢٨٣ ، وهو فصل موسع عَنْوَنَه بـ " القول فى ظهور مستعد بالشوكه مستولى " ، الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ، ص ١١٣ – ١١٨ ، خضر بن أبى بكر : المناقب المغربية – خ ، الفصل الثانى من الباب الأول ، عن وظيفة السلطنة ، ق ١١ – ١٣ ، والفصل الثالث من الباب الأول ، عن الإمامة والخلافة ، ق ١٣ – ٢٠ ، ابن جماعة : تحرير الأحكام – خ ، الباب الأول والثانى عن الإمامة ، والباب الرابع عن الأمراء ، وأنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .
(٢) أنظر قبله .

لقد كان العصر البويهي ولا ريب شديد الوطأة على خلفاء بني العباس ؛ وبني بويه عائلة فارسية شيعية[1] ، تخالف المذهب السني للخليفة العباسي ، ولا تقر بأحقية بيت بني العباس في الخلافة ، دون بقية بني هاشم ، وخاصة البيت العلوي[2] ، لذلك تعاطف أمراء بني بويه ، مع الدعوة الفاطمية والخلافة الفاطمية المصرية[3] ، إلا أن التنافس السياسي بين هاتين القوتين العظمتين في ديار الإسلام[4] قد حال - رغم تقاربهما المذهبي - دون توحيد العالم الإسلامي تحت كيان سياسي وروحي موحد ، طوال فترة تعاصر الدولتين الفاطمية والبويهية[5] .

ومن ناحية أخرى ، استهان أمراء بني بويه ، بخلفاء بني العباس ، وبرسوم الخلافة العباسية ، وحجروا على الخلفاء العباسيين ، واستحوذوا على السلطة الزمنية الفعلية من دونهم ، وسرعان ما حولوا دولة الخلافة ببغداد ، إلى ملك وراثي متوارث في أسرتهم الأعجمية وذلك بملاحظة ابن خلدون ، واتخذوا لقب السلطنة ، دون اعتراف خلفاء بني العباس بشرعية هذا اللقب لأن بنو بويه اتخذوه من قبل أنفسهم[6] ، ومع ذلك فقد عد المؤرخون الحكم البويهي في العراق النموذج الأول لنظام السلطنة[7] ، من ناحية الألقاب الملوكية لبني بويه والوضع السياسي والشرعي لدولتهم[8] .

(١) عنها أنظر المقريزي : السلوك ، ١ : ٢٣ - ٣٠ .
(٢) أنظر الحاكم الجشمي : شرح عيون المسائل ، طبع بتونس بذيل كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار الهمداني ، بتحقيق فؤاد سيد ، ص ٣٧١ - ٣٧٤ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤٣٩ ، أبو إسحاق الصابي : ت ٣٨٤هـ : المنتزع من الجزء الأول من الكتاب المعروف بالتاجي في أخبار الدولة الديلمية ، حققه محمد صابر خان بطهران سنة ١٩٧٦م ، وتفيد هذه المصادر أن بني بويه ، كانوا من الشيعة الزيدية المعتزلة ، وهذا ما يفسر تعاطفهم مع الدعوة والخلافة الفاطمية ، وعن هذا الموضوع ، راجع مقدمة يحي الخشاب لكتاب سفر نامه لناصر خسرو ، ومقدمة محمد كامل حسين لكتاب سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة الشيرازي .
(٣) أنظر المؤيد في الدين الشيرازي : سيرة المؤيد في الدين ، داعي الدعاة ، ترجمة حياته بقلمه ، ص ٤ - ٣٠ ، ص ٦٤ - ٦٨ ، ص ٧٦ - ٨٠ ، ص ٢١ من مقدمة محمد كامل حسين لهذا الكتاب .
(٤) كان التنافس بين البويهيين والفاطميين على الدعوة الإسلامية على منبر المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحي الشرقي ، أنظر المقريزي : الخطط ٢ : ١٣٧ ، ابن الجوزي : المنتظم ، ٧: ٢٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ٩: ١٦ ، الخطيب : تاريخ بغداد ، ٥: ٣٧٩ - ٣٨٠ ، ابن عساكر : تبين ، ص ٢١٨ ؛ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧ - ١٤٨ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢: ١٧٨ .
(٥) أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٤: ١٢٤ - ١٢٥ ، ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٥٧ - ١٥٩ .
(٦) ابن خلدون : المقدمة : ٢٠٢ - ٢٠٨ .
(٧) كما عدوه أيضًا السلف الأول للسلطنة السلجوقية والزنكية والأيوبية على التوالي ، أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٥: ٢٧٩ .
(٨) أنظر السيوطي : الوسائل ، ص ٧٨ ، القلقشندي : صبح ، ٥: ٤٤٧ - ٤٤٨ ، ٩: ٤٠٣ - ٤٠٤ .

ولكن منذ استقواء العنصر التركى السنى بالمشرق الإسلامى ، شهدت الخلافة العباسية بالعراق صحوة سياسية جديدة رفع لواءها السلطان التركى محمود الغزنوى ، الذى مد نفوذه على أغلب أقاليم المشرق الإسلامى ، وكان أول من حمل لقب السلطان فى ديار الإسلام بصفة شرعية وباعتراف وتفويض من الخليفة العباسى[١] ؛ وذلك بعد أن رفض فى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م الاستجابة لدعوة الخليفة الفاطمى بالانضمام إليه[٢] ، ونهض منذ سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م باسم الخليفة العباسى ، وتفويض منه ، بحماية ألويه الحج القادمة بالحجيج من أطراف ديار الإسلام إلى بلاد الحجاز ، وتأكيد زعامة لواء الحج العراقى الممثل للخليفة العباسى ، على جميع الوية الحجيج الممثلة لملوك الأطراف المسلمين[٣] ؛ ثم أعلنها حربًا لأهوادة فيها على الفرق الشيعية والكيانات السياسية للشيعة فى بلاد المشرق الإسلامى ، فعمل على الإطاحة بهذه الكيانات السياسية الشيعية والدعوة فى بلادها باسم الخليفة العباسى[٤] ، ثم اضطهاد الفرق الشيعية واستتابتها عن مذهب الشيعة ؛ وقد تم له ذلك فى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م[٥] . فكان السلطان محمود الغزنوى أول سلطان سنى ينتصر للخلافة العباسية ، وصارت أعماله نموذجًا يحتذى لجميع السلاطين السنيين بالمشرق الإسلامى[٦] ، السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين على التوالى .

وحين ورث سلاطين السلاجقة ، السلطنة الغزنوية وممتلكاتها فى بلاد المشرق الإسلامى ، وكان السلاجقة أيضًا أتراكًا متحمسين للمذهب السنى ؛ فقد أعلنوا بعد اتخاذهم من بغداد دارًا لسلطنتهم ، وإعلان أنفسهم فى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م - ٤٥٠هـ/١٠٥٨م سندًا للخلافة العباسية السنية[٧] ، إن هدف سلطنتهم هو « إحياء السنة والمناضلة عن الملة »[٨] ؛ وبعد أن حافظوا على رسوم الخلافة العباسية ، وعملوا على إحياء دولة الخلافة ونشر الدعوة السنية فى جميع ديار الإسلام ، وإظهار طاعتهم للخليفة العباسى ؛ عمدوا إلى ربط بيتهم ببيت الخلافة العباسية ، بروابط المصاهرة

(١) أنظر السيوطى : الوسائل ، ص ٧٨ ، المنينى : الفتح الوهبى ، ص ٢٠ - ٢٩ .
(٣) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ٧: ٢٦٢ ، س ١٩ - ٢١ .
(٣) أنظر نفس المصدر ، ج ٨ : ص ٢ .
(٤) أنظر المنينى : الفتح الوهبى ، ص ٣٠ - ٣١ .
(٥) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ٨: ٣٨ - ٤٤ .
(٦) أنظر سيرة وترجمة السلطان محمود الغزنوى عند ابن خلكان : وفيات ، ٥: ١٧٥ - ١٨٢ ، ابن الأثير : الكامل ، ٩: ١٣٩ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ٨: ٥٢ ، القرشى : الجواهر المضية ، ٢: ١٥٧ ، وأنظر سيرته موسعة بقلم العتبى مؤرخ دولته ، فى كتاب الفتح الوهبى .
(٧) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ٩: ٤٥٨ - ٤٥٩ ، ٦٠٩ - ٦١١ ، أبو الفدا ، ٢: ١٨٢ - ١٨٥ .
(٨) ابن عساكر : تبين ، ص ١١ ، س ٢ ، ص ١٠٧ ، س ٧ .

والنسب ، بحيث « امتزجت » الدولتين العباسية والسلجوقية ، على حد قول المؤرخين[1] ، وذلك إثر المصاهرات المتلاحقة بين البيتين السلجوقي والعباسي[2] .

وقد سعى السلاجقة إلى استرداد ممتلكات الخلافة العباسية ، التي كان قد ضمها الفاطميون إلى دولتهم[3] ، بادئين ببلاد الشام والجزيرة الفراتية ، التي كانت أكثر الأقاليم التي خضعت للخلافة الفاطمية قربًا من بلاد العراق[4] ، كما نجح السلاجقة في إعادة الخطبة باسم الخليفة العباسي على منابر الحرمين الشريفين[5] ، وكذلك نجحوا في بعض الفترات ، في مد سيطرتهم السياسية على بلاد اليمن ، التي ظلت دائمًا من أقوى معاقل الدعوة الفاطمية ، وأكثر أقاليم الخلافة الفاطمية ، ولاءًا للخليفة الفاطمي[6] .

وصاحب هذا المد السلجوقي السني ، باسم الخلافة العباسية ، على بلاد المشرق الإسلامي ، خروج أهم ممتلكات الخلافة الفاطمية وأشدها ارتباطًا بها عن دعوتها ، وعن تبعيتها لدولة خلافتها الشيعية ، وأعني بهذا بلاد المغرب ، حين أعلن بنو زيرى في سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م في تقدير

(١) أنظر البندارى : تاريخ آل سلجوق ، ص ١١ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٧٦ – ١٧٩ .

(٢) كانت هذه المصاهرات كثيرة الحدوث ، أنظر ابن الأثير : الكامل ، ٩: ٦١٧ ، ١٠: ٢٥ سبط ابن الجوزى: مرآة ، ٨: ٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٧٣ (مصاهرة مزدوجة) .

(٣) خطب امراء العرب بالشام ، وأهمهم بنى مرداس في حلب للخليفة العباسي سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م ، وخلعوا طاعة الخليفة الفاطمي ، وذلك بعد أن " رأوا إقبال دولة السلطان (السلجوقي) وقوتها ، وإقبال دعوتها " ، على حد قول ابن الأثير ، أنظر الكامل ١٠: ٦٣ ، وأنظر أيضًا أبو الفدا : المختصر ، ٢: ١٩٦ ، وما لبث السلاجقة بالشام أن نجحوا في استرداد أغلب ممتلكات الفاطميين الشامية مثل دمشق وحمص وبلاد الساحل ، حتى تم لهم ، " ملك الشام وما بأيدى خليفة مصر العلوى من بلاد " ، أنظر أبو الفدا : المختصر ، ٢: ٢١٢ س ٨ – ٩ ، ابن القلانسى : ذيل ١٢٢ – ١٢٥ .

(٤) يبدو أن ولاة الشام والجزيرة الفراتية ، قد تقلبوا في ولائهم بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، حتى قبل أن يُحْكِم السلاجقة سيطرتهم على بلاد الشام ، فيذكر ابن الأثير أنه في سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م ، قطع صاحب حران والرقة الخطبة العلوية وأقام الخطبة العباسية ، ثم أعاد الخطبة العلوية في نفس السنة ، أنظر ابن الأثير : الكامل ٩: ٥٢١ – ٥٢٢ .

(٥) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٢١٤ ، ماجد : ظهور الخلافة ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٦) أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٥٩ – ٣٧٠ ، مقدمة إقبال ، ص ٧ ، أبو الفرج ابن الجوزى : المنتظم ، ٩: ٧٠ ، أبو الفدا : المختصر ، ص ٢١٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٠: ٢٠٣ – ٢٠٤ ، المقريزى : السلوك ، ١ : ٣٣ .

المؤرخين المشارقة[1] ، أو فى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م ، كما يرجح الدارسون المحدثون[2] ، الخطبة ببلاد أفريقية والمغرب الأوسط باسم الخليفة العباسي ، مجاهرين بخروجهم عن طاعة الخليفة الفاطمى المصرى ، ودخولهم فى طاعة الخليفة العباسى السنى العراقى ؛ وما لبثت السيادة العباسية ، أن عمت بلاد المغرب الإسلامى كله ، بما فيها بلاد الأندلس ، على يد دولة المرابطين ، التى وحدت المغرب الإسلامى : وأغلب بلاد الأندلس تحت سيطرتها ، فحين قامت هذه الدولة ، أرسل أميرها يوسف ابن تاشفين ، إلى الخليفة المستظهر بالله العباسي سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م ، يخبره أنه قد خطب له بالمغرب ويطلب لنفسه التقليد والخلع من بغداد[3] ، وقد ظلت الخطبة للخلافة العباسية على منابر المغرب والأندلس طوال عصر المرابطين[4] ، الذين لم يتلقبوا بالسلاطين ، ولكن بـ « أمراء المسلمين »[5] .

وعلى هذا الأساس ، فقد أصبح الاتجاه السياسى والشرعى السائد فى العالم الإسلامى ، فى القرنين الخامس والسادس الهجرى ، هو التبعية للخلافة العباسية السنية ، على أساس أنها أقدم وأعرق خلافة إسلامية قائمة ، وذلك بعد أن نجحت حركة الإحياء السلجوقى ، فى الاستيلاء على ممتلكات الخلافة الفاطمية الشيعية[6] .

(١) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ٩: ٥٢١ – ٥٢٢ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢: ١٩٩ .

(٢) أنظر ماجد : ظهور الخلافة ، ٢٥٣ – ٢٦١ ، الذى يقارن بين المؤرخين المشارقة والمغاربة وبين ما كتبه الرحالة .

(٣) أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ١٣ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ٢٣٢ .

(٤) عبد الواحد المراكشى ، ت ٦٤٧ هـ : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ١٤٧ ، الذى يقول : وأول دعاء دعى للخلافة العباسية – أبقاها الله – على منابر الأندلس فى أيامهما (أى أبى يعقوب يوسف بن تاشفين وابنه على) ، ولم تزل الدعوة العباسية وذكر خلفائها على منابر الأندلس والمغرب ، إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت على المصامدة ؛ والطريف أن مؤرخى الأندلس ، كانوا يقرون فى تواريخهم ، بتبعية بلاد الأندلس للخليفة العباسى بالعراق فكانوا يقسمون تواريخهم ، على أساس تعاقب خلفاء بنى العباس ، أنظر أبو الفدا : المختصر ، ٢: ٢١٨ ، س ٧ ، ترجمة ابن حميد الأندلسى .

(٥) المراكشى : المعجب ، ص ٢٣٥ ، س ٢ – ٣ ، ص ٢٤١ ، س ٥ .

(٦) أنظر المؤيد الشيرازى : السيرة المؤيدية ، ص ٩٤ – ٩٥ ، الذى يذكر أن السلاجقة ، فى سبيل تحقيق حلمهم فى الاستيلاء على ممتلكات الخلافة الفاطمية وإسقاط دولتهم ، قد تحالفوا ضدها مع الدولة البيزنطية ؛ ويرى كامل حسين ، أن كتب التاريخ لم تذكر شيئًا عن هذا التحالف ، الذى تم بين السلاجقة والبيزنطيين لاقتسام ممتلكات الفاطميين ، كما زعم المؤيد الشيرازى ، أنظر محمد كامل حسين : مقدمة السيرة المؤيدية ، ص ٢٣ ، ص ٩٥ هامش " ١ " ؛ وأغلب الظن أن السلاجقة المجاهدين ، الذين اكتسحوا البيزنطيين فى موقعة ملا زكرت ، واستولوا على أغلب ممتلكاتهم فى آسيا الصغرى ، لايقدمون على هذا العمل الشائن إطلاقًا ، وإنما هى العداوات السياسية والمذهبية والحيل والمهاترات الإعلامية بين الدول ، والمؤيد فى الدين " داعيه " سياسى ومذهبى أولاً وأخيرًا ؛ وفى نفس الوقت تؤيد ما ذهب إليه بعض الدارسين ، من استبعاد إقدام الفاطميين على عقد معاهدة مع الدول البيزنطية ضد السلاجقة ، رغم التعارض المذهبى بينهما ، أنظر ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٥٣ ، الإمام المستنصر ، ص ٦٧ ، ٩٩ .

وفى عهد السلطنة السلجوقية ، خطب باسم الخليفة العباسى ، فى بعض أقاليم ديار الحرب ، التى فتحها سلاطين السلاجقة بسيوفهم ، مثل أطراف بلاد آسيا الصغرى ، حتى أن السلاجقة قد خطبوا لبنى العباس فى المسجد الجامع بالقسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى آنذاك[1] .

ولما آلت زعامة المشرق الإسلامى ، للسلطان السنى نور الدين زنكى ، الذى نجح فى ضم أغلب ممتلكات دولة سلاطين السلاجقة إلى دولته ، أظهر ولاءًا متزايدًا للخلافة العباسية ، بحيث وصف بأنه « كان يتدين بطاعة الخليفة العباسى »[2] ، وأنه « لم يكن يعمل شيئًا ، حتى يستأذن الخليفة »[3] ، اتخذ هذا السلطان التركى السنى ، من ولائه للخليفة العباسى ، وجهوده فى نشر دعوته ، وسيلة لتوحيد الجبهة الإسلامية فى أقاليم المشرق الإسلامى لمحاربة الصليبيين بالساحل الشامى .

وفى عهد نور الدين زنكى ، وعلى يد أمرائه من بنى أيوب ، تم للخلافة العباسية أوج سعدها وتمام اتساع نفوذها ، حين قطع صلاح الدين الخطبة باسم الخلافة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وأعلن الخطبة على منابر مصر ، باسم الخليفة المستضىء بالله العباسى[4] .

(١) كان هذا فى بداية الأمر ، امتيازًا وديًا قدمه البيزنطيون للخلافة الإسلامية ، وتنافس فى التفرد به كل من الخلافة العباسية والفاطمية ، أنظر قبله ، ولكن أغلب الظن أنه أصبح حقًا مكتسبًا للخلافة العباسية بحد السيف ، بعد الانتصار الحاسم الذى حققه السلاجقة على الجيوش البيزنطية فى موقعة ملازكرت الشهيرة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م ، أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٨٨ – ١٩٠ ، الجوينى : غياث الأمم ، ص ٢٥٢ – ٢٥٥ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ٨: ٢٦٠ – ٢٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٦٥ – ٦٧ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢: ١٩٦ ، وقد ورث الأيوبيون عن السلاجقة ، حق الدعوة باسم السلطان الأيوبى والخليفة العباسى على منبر جامع القسطنطينية فى سنة ٥٨٥هـ ، أنظر بعده .

(٢) أبو الفرج بن الجوزى : المنتظم ، ١٠ : ٢٤٩ ، سبط ابن الجوزى : مرآة ، ٨: ٣١٣ ، س ٢ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة ، ٨: ٢٨٢ ، س ١٢ – ١٣ .

(٤) أنظر سبط : مرآة ٨: ٢٥٨ ، ابن واصل : مفرج ، ١: ٢٠٠ – ٢٠١ ، المقريزى : السلوك ، ١: ٤٧ ، ولخطورة هذا الحدث الجلل ، اختلف المؤرخون حوله ، إذ ذكروا أن صلاح الدين قد تهيب انتفاض المصريين عليه ، ولم يقدم على هذا الأمر ، إلا رجل أعجمى يعرب بـ " الأمير العالم " ، ولقد أفاد ابن الأثير ، أنه رأى هذا الرجل بنفسه بعد ذلك بالموصل ، أنظر الكامل ، ١١: ٣٦٨ – ٣٧٣ ، وأيضًا الروضتين ١: ١٩٤ ؛ أما ابن خلكان ، فهو يذكر أن من أقدم على قطع الخطبة صوفى فارسى اسمه الخبوشانى ، كان قد تحدى الخليفة الفاطمى العاضد قبيل زوال دولته بإظهار مثالبها ، أنظر وفيات ، ٣: ١١١ ، ٤: ٢٣٩ – ٢٤٠ ، سبط : مرآة، ٨: ٤١٤ – ٤١٥ ، وأنظر كذلك ابن الفرات – خ ، رقم ٢١١٠ تاريخ تيمور ، ٧: ٨٢ – ٨٣ ، =

وهكذا تمخضت ظاهرة ظهور السلاطين والوزراء المفوضين ، من أرباب السيوف ، واستبدادهم بالسلطة الزمنية ، دون الخلفاء أصحاب السلطة الشرعية في ديار الإسلام ، عن نتيجتين مختلفتين تمامًا: ففي العراق ، أدى ضعف العنصر الفارسي الشيعي ببلاد المشرق الإسلامي ، بعد زوال الدولة البويهية الشيعية التي تغلبت على الخلافة العباسية في القرن الخامس الهجري ، واستقواء العنصر التركي السني بظهور الغزنويين والسلاجقة والزنكيين ، إلى يقظة الخلافة العباسية ، وإحياء دولتها ، ونشر دعوتها في أغلب ديار الإسلام شرقًا وغربًا ، وبعث الهيبة الروحية للخليفة العباسي ؛ أما في مصر ، فإن نجاح أمراء السيوف السنيين في استحواذ وزارة التفويض الفاطمية ، قد أدى إلى استهانة هؤلاء الوزراء السنيون بالخليفة الفاطمي والدعوة الفاطمية ، الأمر الذي مهد في النهاية للقضاء النهائي على الخلافة الفاطمية ، والخطبة على منابرها للخليفة العباسي ، وإعلان قيام السلطنة الأيوبية السنية بمصر ، بحيث أصبحت أغلب ديار الإسلام ، تدين بالولاء السياسي والروحي لخلافة إسلامية واحدة ، هي الخلافة العباسية بالعراق .

مصر الأيوبية إمارة استيلاء ودارًا للسلطنة السنية :

ومما لا شك فيه ، أن سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، وقيام سلطنة سنية بها ، تدين بالولاء والتبعية الروحية للخلافة العباسية بالعراق ، ليعد حدثًا تاريخيًا بالغ الأهمية ، سواء بالنسبة لتاريخ الإسلام بصفة عامة ، أو لتاريخ مصر الإسلامية بصفة خاصة ، فبقيام الدولة الأيوبية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، تغيّر الوضع السياسي والشرعي لها ، تبعًا للدستور الإسلامي

= ٨ : ٢٥ ؛ أما الرسائل الفاضلية ، فقد أسندت هذا العمل لرسول الخليفة العباسي إلى صلاح الدين بمصر واسمه ابن أبي المضاء البعلبكي ، أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣ – ١٩٥ ، وأنظر ترجمة ابن أبي المضاء ، عند ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد ، ١ : ١٤٢ ، الصفدي : الوافي ، ٤: ٣٨٩ – ٣٩٠ ، في حين لدينا رواية غريبة أوردها المؤرخ الأندلسي ابن الأبار ، الذي أسند هذا الأمر إلى عالم يدعى اليسع بن عيسى الغافقي الجياني الأندلسي ، أنظر ابن الأبار : تكملة الصلة ، ٢: ٧٤٤ ، أيًا كان الأمر ، فقد حدثنا المؤرخ أبو الفرج ابن الجوزي ، المعاصر لهذه الأحداث ، عن رد الفعل العظيم لهذا النبأ في بغداد عاصمة الخلافة ، حتى أقدم هذا المؤرخ نفسه على تأليف كتاب سماه " النصر على مصر " ، أنظر ابن الجوزي : المنتظم ، ١٠ : ٢٣٧ ، وراجع بحث هام حول إعادة الخطبة العباسية إلى مصر ، عند أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ، ص ١٥٦ – ١٥٩ .

الشام [1] ، فبعد أن كانت مصر منذ الفتح العربى ، ولاية استكفاء إقليمية ، تابعة تبعية مباشرة للخلافة المركزية فى المدينة أو دمشق أو بغداد ، ثم ولاية استيلاء مستقلة ، منذ قيام الدولتين الطولونية والأخشيدية ، ثم خلافة شيعية تطالب بأحقيتها فى الطاعة و « الولاية » على جميع ديار الإسلام ، أصبحت مصر لأول مرة فى تاريخها الإسلامى سلطنة[2] .

لقد ناقش فقهاء ومؤرخو دساتير الإنشاء فى العصر المماليكى ، الأطوار المختلفة التى شهدها الوضع السياسى والشرعى لمصر ، منذ الفتح الإسلامى لها ، ولاحظوا أن قيام السلطنة الأيوبية بمصر ، واعتراف الخليفة العباسى بها وإرساله التفويض الخليفى لسلاطين بنى أيوب بمصر ، مع الخلع الخليفتية ، قد جعل من مصر فى عصر بنى أيوب ، مقرًا ودارًا للسلطنة الأيوبية ، التى فوضها الخليفة العباسى سلطاته الشرعية ، فى جميع البلاد والممتلكات التى أمتد إليها النفوذ السياسى والعسكرى لسلاطين بنى أيوب ؛ كما لاحظوا أيضًا أن السلطنة الأيوبية ، قد اختلفت عن كل من السلطنتين البويهية والسلجوقية ، بأن سلاطين بنى بويه وبنى سلجوق ، قد تم تفويضهم السلطنة ومنحهم خلعها

(١) عن التفرقة بين " ولاية الاستكفاء " و " ولاية الاستيلاء " أنظر الماوردى : الأحكام السلطانية ٣٤ – ٣٨، ابن أبى يعلى : الأحكام السلطانية ٣٤ – ٣٨ ، الجوينى : غياث ، ١١٦ – ١١٩ .

(٢) لاحظ هذا مؤرخوا الإدارة المصرية فى العصر المماليكى ، حين درسوا فى دساتير دواوين الإنشاء ، تطور الوضع السياسى والشرعى لمصر ، منذ الفتح العربى حتى العصر المماليكى ، حين ناقشوا صحة تفويض السلطات الشرعية فى الديار المصرية ، أو حين ناقشوا اختلاف الوضع السياسى والشرعى لوظيفتى وزارة التنفيذ ووزارة التفويض ، وتطابق وظيفة وزارة التفويض التى ظهرت فى العصر الفاطمى المتأخر منذ النصف الثانى من حكم الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، مع وظيفة السلطنة التى عرفت بالعراق فى العصرين البويهى والسلجوقى على التوالى ، ثم عرفت بمصر فى العصرين الأيوبى والمماليكى على التوالى أنظر القلقشندى : مآثر الإنافة ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ ، القلقشندى : صبح ، ج ٢ ، ص ٤١٩ – ٤٣٥ ، ج ٩ ، ص ٣٩٨ – ٤٠٤، ج ١١ ص ٧٢ – ٧٣، الخالدى : المقصد العالى المنشأ الهادى إلى صناعة الإنشاء – خ، بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٥٧٣ عربى ، ومصور بدار الكتب المصرية برقم ٢١٠٣١ ، ج ١ ، لوحة ١٩٣ ب – ١٩٥ ، كما لاحظ هذا التحول الجوهرى للوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية الباحثون الذين درسوا نقوش الألقاب الرسمية لسلاطين بنى أيوب ، كما وردت على آثارهم وعمائرهم . أنظر :

Ahmed Zaki: Coupe Magique Dediee a Salah Ad-Din. (Titre Royaux, Tolerance et portait, B.J.E., Cinqieme serie, Tome X, Anee 1916, P. 241-288. p. 260 - 261

بحضرة الخلافة ، أى فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، فى حين أن تفويض سلاطين بنى أيوب تم ببعض أطراف الخلافة العباسية وهى الديار المصرية ، وإن تطابقت الخلع الخليفتية لكل من سلاطين بنى بويه وبنى سلجوق وبنى أيوب على التوالى[1] .

ولقد أوضح مؤرخون ديوان الإنشاء فى العصر المماليكى ، إن تفويض الخليفة الأمور في البلاد والأقاليم إلى من يدبرها ويقوم بأعباءها على ثلاثة أقسام : القسم الأول ، وهو أعلاها « وزارة التفويض » ، والقسم الثانى ، « إمارة الاستكفاء » ، والقسم الثالث ، « إمارة الاستيلاء » ، وإن مملكة الديار المصرية ، من حين الفتح الإسلامى ، وهلم جرا إلى العصر المماليكى ، دائرة بين هذه الأقسام ؛ وفى رأى هؤلاء المؤرخين أن الدولة الأيوبية كانت فى حكم « إمارة الاستيلاء » وأن ملوك مصر الأيوبيين صار لقب السلطان سمة لهم ، وذلك لبقاء الخليفة العباسى بالعراق فى بغداد دار

(١) يقول القلقشندى : وإما كيفية تولية الملوك والخلفاء وترتيبهم فى ذلك فله حالتان : الحالة الأولى ما كان الأمر عليه فى الزمن الأول والخلافة بالعراق والحال فيه مختلف ، فتارة تكون السلطنة التى تولى بحضرة الخلافة ، كسلطنة بنى بويه وآل سلجوق وغيرهم ، وتارة تكون كبعض الأطراف ، كالديار المصرية حينئذ ونحوها . فإن كانت السلطنة بحضرة الخلافة ، فقد جرت عادتها فى ذلك أن يجلس الخليفة بمجلسه العام على كرسى عال ، ويحضر السلطان الذى تولى فيجلس على كرسى لطيف أمام كرسى الخلافة ، ويحضر أعيان المملكة ورؤساؤها، ويخاطب الخليفة السلطان بالولاية على لسان الوزير ، ثم يخلع على السلطان خلعة الخلافة .. سبع جبات سود بزيق واحد ، وعمامة سوداء ، وطوق بطوق من ذهب ، وسور بسوارين من ذهب ، وأعطى سيفًا بغلاف من ذهب .. وفرس من اصطبلات الخليفة ، بمركب من ذهب مقندس ، فهذا كان شأنهم فى تولية السلطنة بحضرة الخلافة . وإن كان الذى يوليه الخليفة السلطنة من ملوك الأطراف ، جهز له التشريف من بغداد ، صحبة رسول من جهة الخليفة ، وبموجبه أطلس أسود بطراز مذهب ، وطوق من ذهب يجعل فى عنقه ، وسواران من ذهب يجعلان فى يديه ، وسيف قرابة ملبس بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ، ينشر على رأسه ، وصحبة ذلك تقليده بالسلطنة ، وربما جهز مع خلعه السلطان ، خلع أخرى لولده أو وزيره أو احد أقاربه ، بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ ؛ كما كان يُبعث مثل ذلك إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية ، ثم إلى أخيه العادل فمن بعده من ملوك بنى أيوب، إلى أن كان آخر من وصل إليه ذلك منهم من بغداد الملك الناصر يوسف بن السلطان العزيز بن السلطان صلاح الدين عن المستعصم بالله فى سنة ٦٥٦هـ ، وكان من عادتهم (أى ملوك بنى أيوب) فى ذلك ، أنه إذا وصل التشريف والتقليد إلى سلطان تلك الناحية ، أن يلبس السلطان الخلعة والعمامة ، ويتقلد السيف ، ويركب الفرس ويسير فى موكبه حتى يصل إلى مقر مُلكه (أنظر مآثر الإنافة ، ٢: ٢٣٩ - ٢٤٠) .

خلافته ؛ أما بعد انتقال الخليفة العباسى إلى القاهرة فى العصر المماليكى ، واتخاذه منها دارًا لخلافته ، أصبحت « سلطنة الديار المصرية مركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء »[1] .

كذلك لاحظ هؤلاء المؤرخون أيضًا ، ملاحظة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لبقاء مصر طوال العصر الأيوبى فى إطار التبعية السياسية والروحية لدولة الخلافة العباسية ببغداد ؛ إذ وصفوا ملوك بنى أيوب بقولهم : وهم « أى بنى أيوب » ، وإن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بنى العباس ، فهم ملوك مستقلون ، وفى دولتهم زاد ارتفاع قدر مصر وملكها[2] .

(١) يقول القلقشندى : إن تفويض الخليفة الأمور فى البلاد والأقاليم إلى من يدبرها ويقوم بأعباءها على ثلاثة أقسام : القسم الأول ، وهو أعلاها " وزارة التفويض أنظر عنها صبح ، ج ٩ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ ، والقسم الثانى : إمارة الاستكفاء ، أنظر عنها نفس المصدر ، ٩: ٤٠٠ - ٤٠١ والقسم الثالث : إمارة الاستيلاء (أنظر عنها نفس المصدر ، ٩: ٤٠١ - ٤٠٣ ، ومملكة الديار المصرية ، من حين الفتح الإسلامى وهلم جرا إلى زماننا دائرة بين هذه الأقسام الثلاثة ، فكانت فى بداية الأمر إمارة استكفاء ، فلما استولى عليها الفاطميون واستوزروا أرباب السيوف فى أواخر دولتهم وعظمت كلمتهم عندهم صارت سلطنتها وزارة تفويض ، وكان الخليفة يحتجب والوزير هو المتصرف فى المملكة كالملوك الآن ، أو قريب منهم ، وكانوا يلقبون بألقاب الملوك الآن ، كالملك الأفضل رضوان ، والملك الصالح طلائع ، .. والملك المنصور .. شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وزير العاضد .. قبل أن يستقل بالملك ، ويخطب بالديار المصرية لبنى العباس ببغداد .... ولما انتزعت من الفاطميين وصارت إلى بنى أيوب ، وكانوا يلونها عن خلفاء بنى العباس ، صارت إمارة استيلاء ، لاستيلائهم عليها بالقوة ، واستبدادهم بالأمر والتدبير ، مع أصل إذن الخليفة وتقليده .. ، فلما تغلب الملوك بالشرق على الخلفاء واستبدوا عليهم صار لقب السلطان سمة لهم مع ما يختصهم به الخليفة من ألقاب التشريف .. وهى على ذلك إلى زماننا ؛ إلا ما كان فى زمن تعطيل جيد الخلافة من حين قتل التتار المستعصم آخر خلفاء بنى العباس ببغداد ، إلى حين إقامة الخليفة بمصر فى الدولة الظاهرية بيبرس ؛ على أن السلطنة الآن شبهًا من وزارة التفويض ، فإن الخليفة يفوض إليه فى تقليده تدبير جميع الممالك الإسلامية بالتفويض العام ، لا يستثنى منها شيئًا .. ؛ وحينئذ فتكون سلطنة الديار المصرية الآن مركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء (أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤) .

(٢) قسم القلقشندى ، ولاة وملوك مصر فى الإسلام على هذا النحو : الضرب الأول ، فيمن ولى نيابة ، وهو الصدر الأول ، وهم على ثلاث طبقات : الطبقة الأولى ، عمال الخلفاء من الصحابة ، الطبقة الثانية : عمال خلفاء بنى أمية بالشام ، الطبقة الثالثة عمال خلفاء بنى العباس بالعراق ، أنظر صبح ، ج ٣ ص ٤١٩ - ٤٢٤ ، الضرب الثانى : من وليها ملكًا ، وهم على أربع طبقات : الطبقة الأولى ، من وليها عن بنى العباس قبل دولة الفاطميين (أنظر صبح : ٣ : ٤٢٤ - ٤٢٦) ، الطبقة الثانية من وليها من الخلفاء الفاطميين المعروفين بالعبيدين (أنظر نفسه ٣ : ٤٢٦ - ٤٢٧) ، الطبقة الثالثة : ملوك بنى أيوب وهم إن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بنى العباس فهم ملوك مستقلون وفى دولتهم زاد ارتفاع قدر مصر وملكها (أنظر نفسه ج ٣ ص ٤٢٨ - ٤٢٩) الطبقة الرابعة ملوك الترك خلد الله تعالى دولتهم (أنظر نفس ، ج ٣ ص ٤٣٠ - ٤٣٥) .

وربما كانت هذه الأبحاث الفقهية والدستورية ، لمؤرخي دساتير الإنشاء في العصر المماليكي ، وعلى رأسهم (القلقشندى والخالدى) متمثلة في ذهن بعض المؤرخين المحدثين ، حين قارن بين استقلال كل من الدولة الأيوبية ، والدولة المماليكية الأولى بمصر المعروفة بدولة المماليك البحرية ، فقال : هناك فارق هام بين الدولتين ، وذلك إن الدولة الأيوبية رغم استقلالها ، كانت تدين بالولاء الروحي للخلافة العباسية .. ، فهناك إذًا نقص كان يشوب استقلالها .. ، أما الدولة المماليكية فقد عاصرت عند قيامها سقوط الخلافة العباسية ، وسعى سلاطينها حتى نجحوا في نقل هذه الخلافة إلى مصر ، فتم لهم بهذا كل مظاهر الاستقلال[1] .

والواقع ، أن هدف مؤرخي دساتير الإنشاء في العصر المماليكي ، من هذه الأبحاث الفقهية الدستورية ، الخاصة بحقيقة الوضع السياسي والشرعي للسلطنة المصرية ، وتطور هذا الوضع في العصرين الأيوبي والمماليكي ، هو في الواقع تأكيد شرعية حكم المماليك بمصر ، على أساس أن السلطات التي خُوِّلت لسلاطين بني أيوب ، ثم لسلاطين المماليك من بعدهم من قبل خلفاء بني العباس قد أكدت « رجوع الولايات في الديار المصرية إلى الطريق الشرعي »[2] ، وذلك لأن الخليفة هو صاحب السلطات الشرعية في جميع ديار الإسلام ، لكون الخلافة هي وارثة النبوة[3] ، ورتب مؤرخو العصر المماليكي على بحثهم الفقهي في مسألة « رجوع الولايات في الديار المصرية إلى الطريق الشرعي » ، تخريجًا فقهيًا هامًا وهو أنه حينئذ تكون جميع الولايات - أي الوظائف الحكومية الرسمية - الصادرة عن السلطان صحيحة شرعًا[4] .

نستخلص من هذه الأبحاث الفقهية الدستورية إذًا ، أن الوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية كان وضعًا فريدًا بالنسبة لجميع ملوك الأطراف في ديار الإسلام ، إذ أصبح الملك الأيوبي بمصر ، سلطانًا لجميع ديار الإسلام لكونه مفوضًا بالسلطنة من قبل الخليفة العباسي ؛ ومن ثم فلقد أصبحت مصر ، لأول مرة في تاريخها الإسلامي ، دارًا للسلطنة السنية ، بعد أن كانت في العصر الفاطمي دارًا لخلافة شيعية .

(١) الشيال : مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤٤ .
(٢) راجع فصلاً هامًا ناقش فيه القلقشندى هذا الأمر في صبح الأعشى ج ١١ ص ٧٢ - ٧٣ .
(٣) أنظر كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية في العصر الأيوبي ، الفصل الخاص بكتب الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية ، تحت الطبع إن شاء الله تعالى ، وأنظر قبله هوامش الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية ، وأنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .
(٤) أنظر القلقشندى : صبح ، ج ١١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

وهنا نلاحظ أن أغلب الأجناس غير العربية ، التى اعتنقت الإسلام مثل الفرس والترك والكرد ، قد تولت أمداد الأمة الإسلامية ، بدماء فتية جديدة ، قامت بحماية نظام الخلافة الإسلامية ، الذى هو النواه الأولى والأساسية لمفهوم الدولة في الإسلام ، والمستند أولاً على اشتراط العروبة والنسب القرشي للخليفة[1] .

فحين ضعف نظام الخلافة الإسلامية ظهر نظام السلطنة ، وهو نظام عسكرى[2] ، ظل مستمرًا فى ديار الإسلام منذ القرن الخامس الهجرى أيام البويهيين ١١م ، إلى القرن الثالث عشر الهجرى ١٩ م أيام العثمانين ، وكان من نصيب الأجناس غير العربية حديثى العهد بالإسلام ، فكان بنو بويه من الفرس ، والغزنويين والسلاجقة والزنكييون من الترك ، والأيوبيون من الأكراد ؛ ثم ظلت السلطنة مستمرة فى الأجناس الأعجمية فكان سلاطين الدولة المملوكية الأولى بمصر أغلبهم من عنصر القفجاق المغولى ، وكان سلاطين الدولة المماليكية الثانية أغلبهم من العنصر الجركسى التركى[3] ، وكان سلاطين العثمانيين ، الذين تلقبوا بالخلفاء بعد نقل مقر الخلافة إلى عاصمتهم استانبول أيضًا من الترك[4] .

(١) أنظر عن الخلافة وشروطها الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١ - ٢٠ ، ابن ابي يعلى ، الأحكام السلطانية ص ١٩ - ٢٠ ، النوبختى: فرق الشيعية ، ص ٨ ، المسعودى : مروج الذهب ٣: ٢٦٦ - ٢٣٩، الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ١ - ١٠ ، ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ، ١ : ٧ - ١٠ ، الملطى التنبيه والرد ٥٣ - ٥٥ ، الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ص ١٠ - - ٣٠ ، ص ٦٥ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٢٢ - ٢٥ ، الجوينى غياث الأمم ص ٦٠ - ٧٣ .

(٢) أنظر قبله وبعده .

(٣) أنظر محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة ، فى تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية الأداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٦ ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٣م ، ٧١ - ٨٨ .

(٤) الواقع أن الخلافة العثمانية التى وحدت العالم الإسلامى طوال أربعة قرون (من ق ٩هـ/ ١٣م هـ) لم تكن خلافة فى حقيقة الأمر ، لأن بنى عثمان لم تتوفر فيهم شروط الخلافة ، التى اشترطها جميع فقهاء الإسلام - عدا الخوارج - وأهمها النسب القرشى ، ومع ذلك فقد قام الأتراك العثمانيون السنيون بعد ميراثهم لسلطنة المماليك بمصر التى وصفها ابن أياس بقوله : كان سلطان مصر ، أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين وحاوى ملك مصر ، أنظر بدائع الزهور ج ٥ ، ص ٢٠٦ ، تحقيق محمد مصطفى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م ، وميراثهم أيضًا للألقاب السلطانية لسلاطين المماليك بمصر (أنظر ابن إياس ، نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ١٥١، وقيامهم بأعباء الخلافة الإسلامية ، من توحيد كلمة المسلمين ونشر الإسلام فى الأرضين وتطبيق نظم وشريعة الإسلام ، وحماية الحرمين الشريفين خير قيام (أنظر التفصيل عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨١م ، (ج ١ - ٥) . ولا ريب فهم من غرس سلاجقة الروم (أنظر فؤاد كبرلى : قيام الدولة العثمانية ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٧م) آخر فرع من البيت السلجوقى نهض بأعباء السلطنة . وفى رأينا أن الخلافة العثمانية ، كانت آخر سلطنة عامة شهدها العالم الإسلامى ، إذ مزج العثمانيون بذكاء سياسى جدير بالإعجاب ، بين وظيفتى =

ولقد أدرك المؤرخ الكردى البدليسى ، الذى أرخ لتاريخ أبناء عشيرته الأكراد ، الأهمية العظمى فى تاريخ الإسلام ، وفى تاريخ العنصر الكردى ، بتوليهم السلطنة فى ديار الإسلام تفويضًا من الخليفة العباسى ، فتتبع البدليسى أنساب العشائر الكردية ، وأشاد بدورها فى تاريخ الإسلام ، وأوضح حماسة الأكراد للمذهب السنى ، كما أرخ للدويلات الكردية التى قامت عبر التاريخ الإسلامى ، مميزًا منها من طمح ملوكها إلى رتبة السلطنة ، خاصة من مؤسسى هذه الدويلات الكردية التى كان أقواها الدولة المراونية والشدادية ، ثم اختتم كتابه بذكر « سلاطين بنى عثمان العظام » سلاطين عصره[1] ؛ وهذا ما يفسر إطلاق مؤرخى مصر الإسلامية ، اسم « الدولة الكردية »[2] ، على الدولة الأيوبية .

ولا ريب أن قيام خلافة بمصر ، دامت قرنين من الزمان (ق ٤ ـ ٦هـ ١٠ ـ ١٢ م) وعرفت عند مؤرخى العراق والشام بـ « الخلافة المصرية »[3] ، قد مهد لمصر ولبنى أيوب ، فى القرنين الـ ٦ و الـ ٧ الهجرى ١٢ ـ ١٣ م ، الأضطلاع بمسئولية السلطنة العامة واعتراف أغلب ملوك الأطراف بهذه السلطنة ، بحيث صار السلطان الأيوبى يلقب بـ « سلطان الإسلام والمسلمين »[4] .

= الخلافة والسلطنة ، وذلك بعد أن حرصوا كل الحرص بعد فتحهم لمصر ، على بعث هيبة الخليفة العباسى بها ، تمهيدًا لإعادة السلطات الروحية ، والزمنية لخليفة المسلمين ، فأصطحبوا معهم الخليفة العباسى إلى القسطنطينية ، ثم ادعوا أنه تنازل عن الخلافة لآل عثمان (أنظر ابن أياس : بدائع الزهور ، ٥: ٢٢٩ – ٢٣٢ ، ٢٧٢ ، ٣٨٨ – ٣٨٩ ، ٣٦٠ – ٣٦٢) وإن ظل زعيم آل عثمان يعرف فى العالم الإسلامى ولأوربا بـ" السلطان " طوال العصر العثمانى (أنظر الجبرتى : عجائب الآثار ، تحقيق عمر الدسوقى ، القاهرة ١٩٦٥ ، ٤: ٢٨٥ ، س ٢ – ٣ ، ٤ : ص ٢٨٩ ، س ١٥ – ٢١ (نص مرسوم نابليون الذى فرقه على المصريين بعد دخول الحملة الفرنسية مصر) ؛ والجدير بالذكر أنه على يد سلاطين العثمانيين تم حلم الإسلام الحربى الكبير بسقوط القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى وذلك فى ق ٩ هـ / ١٥ م .

(١) أنظر البدليسى : شرفنامه ، ألفه بالفارسية ، ترجمة إلى العربية محمد على عونى ، راجعه وقدم له يحى الخشاب الجزء الأول دار إحياء الكتب العربية ص ١٣ – ١٤ ، وأنظر على الخصوص ص ٥٦ – ٧٩ الفصل الخامس الذى عنونه بـ « ذكر سلاطين مصر والشام »

(٢) يسمى المقريزى بنى أيوب الملوك الأكراد الأيوبية ويسمى المماليك السلاطين المماليك التركية والجركسية أنظر السلوك ١ : ٨ س ٥ ، وأنظر ابن أبى الفوارس : تاريخ دولة الأكراد والأتراك ، مصور بمعهد المخطوطات برقم ٨٩٤ تاريخ .

(٣) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٢٩١ ، ابن شداد : النوادر ص ٣٦ المنذرى : التكملة ٥ : ٤ س ٢ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ١٧٥ آخر سطر ، ٢ : ١٨٥ س ٨ ، ٢: ٢١٩ – ٢٢٠ .

(٤) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

ولعل تفرد بنى العباس بالخلافة فى العالم الإسلامى ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، هو الذى أوحى إلى مؤرخى العراق ومصر ، فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، بتأليف مؤلفات مفردة لتايخ الخلافة الإسلامية منذ قيامها ، وأخبار خلفاء بنى العباس بصفة خاصة ؛ وكأن هؤلاء المؤخون قد اطعلوا على لوح الغيوب ، فراح العراقيون يرثون قرب زوالها من بغداد ، وراح المصريون يحدون انتقالها إلى مصر[1] .

إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية :

ولا ريب ، أن السلطنة الأيوبية بمصر ، قد استطاعت فى نهاية القرن السادس الهجرى ومطلع القرن السابع الهجرى إحياء النفوذ السياسى لدولة الخلافة العباسية ، فى أغلب أرجاء بلاد المشرق الإسلامى ؛ فبعد قضاء الأيوبيين على الخلافة الفاطمية بمصر ، سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١ نجحوا فى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ، فى فتح بلاد اليمن ، وكانت تعد من أقدم وأقوى معاقل الدعوة الفاطمية ، واستطاعوا القضاء على الداعى الفاطمى بها عبد النبى بن مهدى ، وخطبوا لبنى العباس على منابر اليمن[2] ؛ ومن اليمن مدوا نفوذهم إلى الحرمين الشريفين ، وخطبوا على

(١) أنظر ابن دحية الكلبى ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م : النبراس فى خلفاء بنى العباس ، طبع بغداد ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م ، وكان مؤلفه وهو أندلسى قدمه سنة ٦١٣هـ / ١٢٣٥م ، إلى ولى العهد فى الدولة الأيوبية بمصر ، وهو الكامل بن العادل ، ابن أبى السرور السروجى ت ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م : بلغه الظرفاء فى ذكر تواريخ الخلفاء ، طبع بمطبعة النجاح بمصر ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩ ، ابن الساعى ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م : مختصر أخبار الخلفاء ، طبع بولاق بمصر ١٣٠٩هـ . وعن انتقال الخلافة من العراق إلى مصر أنظر المقريزى : السلوك ١ : ٢٢ ، وعن سيطرة المماليك بمصر على الخلافة واتخاذ الظاهر بيبرس للقب " قسيم أمير المؤمنين " أنظر ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٤٩ ، المقريزى : السلوك ١ : ٤٤٧؛ ولقد ألف مؤرخو العصر المماليكى فى أخبار الخلافة العباسية ، أنظر السخاوى : عمدة الناس فى مناقب سيدنا العباس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ ، السيوطى تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، القاهرة ١٣٥١هـ ، وأنظر أيضًا تتبعًا لتاريخ الخلافة الإسلامية من وجهة النظر الفقهية الشرعية والسياسية ، حتى العصر المماليكى ، القلقشندى : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ، الكويت ، ١٩٦٤م ، (ج ١ – ٣) .

(٢) أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٢٩٩ و ٣٠٠ – ٣٠١ ، المقريزى : السلوك ١ : ٥٣ ، عمارة اليمنى : المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ، تحقيق حسن سليمان محمود ، القاهرة ١٩٥٧ ، عمارة اليمنى : النكت العصرية ، ص ٣٥٢ – ٣٥٥ ، ابن أبى حاتم : السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك الغز باليمن ، تحقيق ركس سميس، جامعة كمبردج ، ١٩٧٣ ، ابن سمرة الجعدى : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٩ ، ٢٤٢ ، بامخرمه : تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أدولف لو فجرين ، طبع ليدن ، ج ١ ، ص ١٢٧ – ١٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ١: ٣٩٦ – ٣٩٧ ، أبو شامة : الروضتين ١: ٢١٦ – ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ١: ٢٣٧ – ٢٤٣ .

منابرهما لخليفة بغداد[1] ، الذى اكتمل له بهذا الأمر مظاهر نفوذه الروحى فى العالم الإسلامى ، لكونه أصبح حامى حمى الحرمين الشريفين ، بعد تفرد الخلافة الفاطمية بهذا الأمر دون بنى العباس لفترة طويلة[2] .

وثمة عدة إشارات ذكرها المؤرخون المصريون واليمنيون والشوام المعاصرون للفتح الأيوبى لليمن[3] ، توضح أن هذا الفتح كان خطوة أيديولوجية للإجهاز على الدعوة الفاطمية هدف إليها السلاجقة[4] ثم الزنكيين[5] ونفذها بنو أيوب ، ولم يكن بحال من الأحوال تأييدًا لاستقلال الأيوبيين عن نور الدين زنكى[6] ، أو لهدف استراتيجى عسكرى ضد أطماع الصليبيين فى البحر الأحمر كما ذهب بعض المؤرخين المحدثين[7] ، خاصة وقد حرص الأيوبيون عند فتحهم لليمن على إدخال كتب الدعوة الأشعرية مع جيوشهم ، والعمل على نشرها فى بلاد اليمن[8] ، وذلك للقضاء على كتب الدعوة الشيعية هناك ، مثل كتب المعتزلة والزيدية والفاطميين التى كانت قد اجتلبت إلى بلاد اليمن من بلاد الجيل والديلم فى عهد ائمة اليمن الزيدية ، وإبان سيطرة النفوذ الفاطمى على بلاد اليمن[9] .

واستكمالاً للقضاء على آخر معاقل المقاومة الفاطمية ، وأعنى الدعوة السنانية النزارية ببلاد الشام ، حاصر صلاح الدين قعلة السنانية بمصياب سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م[10] ، حصارًا قويًا أرغمهم بعده على التقوقع فى جبالهم الوعرة ، وتوقيع صلحًا مع صلاح الدين ، يقضى بتعاون الطرفين على قتال الفرنج[11] .

(١) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٣ ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٤٢ .
(٢) أنظر جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٩م .
(٣) أنظر على الخصوص سبط : مرآة ، ٨: ٢٩٩ و ٣٠٠ - ٣٠١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
(٤) أنظر قبله نفس هذا الفصل .
(٥) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٢٩٩ و ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٦) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ١ : ٣٩٦ - ٣٩٧ .
(٧) أنظر الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، ١: ٣٦ - ٣٩ .
(٨) أنظر يحيى بن الحسين : أنباء الزمن فى تاريخ اليمن - خ ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ورقة ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وأنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر ونشر الدعوة الأشعرية بها .
(٩) أنظر فؤاد سيد : مقدمة كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، للقاضى عبد الجبار الهمدانى ، طبع تونس .
(١٠) أنظر ابن العديم : زبد الحلب ، ٣: ٣٢ - ٣٤ ، سبط : مرآة ٨ : ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، المقريزى : السلوك ١: ٦٣ ، وأنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .
(١١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ - ٦٧٠ .

ومن ناحية أخرى استطاع الأيوبيون ، بعد جهود دامت حوالى خمسة عشر عامًا (٥٦٨هـ / ١١٧٢م - ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) إعلان الخطبة للخليفة العباسى على منابر القيروان بعد انتزاعها من يد الخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى[١] ، ذلك لأن الدولة الموحدية ، كان أمراؤها من بنى عبد المؤمن قد أعلنوا الخلافة لأنفسهم[٢] ، فتلقب أمير الموحدين بـ « سيدنا ، ومولانا الخليفة ، أمير المؤمنين »[٣] ، وعرفت دولتهم فى وثائقها الرسمية بـ « الدولة السعيدة والخلافة الحميدة »[٤] ، رغم عدم توفر شروط الخلافة فى أمراء الموحدين لكونهم من البربر[٥] ، ومن هنا جاء موقف سلاطين بنى أيوب العدائى من الخلافة الموحدية ، إذ كان الأيوبيون يسعون لإحياء دولة الخلافة العباسية ، فى حين كان الموحدون يسعون لقيام خلافة إسلامية جديدة مستقلة ببلاد المغرب والأندلس .

والجدير بالذكر أن بعض فقهاء الأشاعرة ، الذين أخذ الموحدون بدعوتهم السياسية ، قد أجازوا تعدد الخلافة فى حالة بُعد الشقة ما بين الخلافتين القائمتين فى ديار الإسلام[٦] ، واتساع خطة

(١) تم هذا بعد ضم الأيوبيين لإقليم برقة أثر حملات قراقوش التقوى على المغرب الأوسط ، أنظر ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٣٤ ، ٣٨ ، ٥٣ - ٥٧ ، ٦٧ - ٧٣ ، ١٦٤ - ١٦٨ ، ٢٠٢ - ٢٠٤ ، ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ١ : ٣٨٩ ، ٤٦٧ - ٤٨٦ ، ٥١٩ - ٥٢٢ ، ٥٢٣ - ٥٢٤ ، ابن شداد : النوادر ، ص ٧٣ - ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ١: ٢٤٢ - ٢٦٠ ، ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ٢: ١٦ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٧٠ ، ابن واصل : مفرج ، ١: ٢٣٦ وهامش " ٤ " ، ٢ : ١٨٠ - ١٨٢ ، المراكشى : المعجب ص ٣٤٩ - ٣٥٠ وأنظر بعده .

(٢) أنظر كتاب مؤرخهم عبد الملك الباجى الشهير بابن صاحب الصلاة ، ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله ائمة ، وجعلهم الوارثين ، وظهور المهدى بالموحدين ، نشر عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤م .

(٣) أنظر كتاب مؤرخهم ابن القطان : نظم الجمان ، تحقيق محمود مكى ، المطبعة المهدية بتطوان ، د. ت. ص ١٣٠ ، فى حين يطلق المؤرخ العراقى الشامى ، سبط ابن الجوزى ، على ابن عبد المؤمن لقب " أمير المؤمنين " ، ولا يلقبه بالخليفة ، أنظر مرآة ٨ : ٣٨٤ س ٢ ، ٤٤٦ - ٤٤٩ ، ٤٦٤ - ٤٦٧ ، وعلى العكس ، أنظر إشارة ابن جبير الأندلسى بدعوة الموحدين وتمنيه سيطرتها على مكة نفسها ، ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ - ٥٦ ، وأنظر سخريته من " احتجاب " خلفاء بنى العباس ، الرحلة ، ص ٢٠٢ .

(٤) أنظر ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٧٨ ، س ٤ .

(٥) هذا ما يؤكده عنوان كتاب مؤرخهم ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين .. إلخ .

(٦) أنظر أبو بكر الصنهاجى ، ت ق ٦ هـ : أخبار المهدى ابن تومرت ، وابتداء دولة الموحدين ، نشر ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٢٨م ، وأنظر ابن القطان : المصدر السابق ، ص ١٦ وهامش " ٥ " ، وأنظر المراكشى : المعجب ص ٢٤٥ - ٢٥١ .

الإسلام ، ووجود ديار للإسلام متفرقة فـى جزائـر البحـر ، أو خلـف دار الكفـر ، بحيـث تحجـب دار الحرب ، نظر الإمام عن هؤلاء المسلمين(١) ، وكان هذا ينطبق على دولة الموحدين الذين تولـت جهـاد حركة الاسترداد المسيحى Reconquesta بالمغرب والأندلس ، وهذا ما دعى أمـراء الموحديـن علـى تلقيب أنفسهم بالخلفاء ، رغم أنهم فى الواقع سلاطين لا تتوفـر فيهـم شـروط الخلافـة ، أمـا سـلاطين بنى أيوب ، فرغم أنهم من أنصار الدعوة الأشعرية أيضـًا(٢) . إلا أنهـم فـى عدائهـم للدولـة الموحديـة نظروا أولاً إلى مصلحة دولتهم التى استمدت سطوتها السياسية مـن الخلافـة العباسـية ، ونظـروا ثانيًـا إلى مصلحة العالم الإسلامى فى الوحدة حول خلافة واحدة ، هى أقدم خلافة إسلامية قائمة فـى ديـار الإسلام ، وهى المتمثلة فى الخلافة العباسية بالعراق ؛ وهذا ما أجمع عليه أغلب الفقهاء الدسـتوريون(٣) وإن كان هذا لم يمنع فيما بعد ، من تقارب كل من الدولتين الأيوبية والموحدية ، ومحاولـة عقـد تحـالف بحرى فيما بينهم لقتال القوى الصليبية فى البحر المتوسط(٤) .

وما لبثت جهود الأيوبيين ، فى إحياء دولة الخلافة العباسية ، أن تمخضت عـن حـدث ذو أهميـة سياسية ومذهبية كبرى ، وهو وصول سفير من قبل جلال الدين حسن صاحب حصن المـوت ، أقـوى معاقل الشيعة النزارية بإيران إلى بغداد فى سـنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م ، يخبر الخليفـة العباسـى ، بـأنهم تبرءوا من الدعوة الباطنية الشيعية وأعادوا الشعائر السنية إلى مسـاجدهم وجوامعهـم ، فبسـر الخليفـة والناس بذلك(٥) . ولا شك أن هذا الحدث كان يعنى اجتماع السنة والشـيعة فـى العـالم الإسـلامى ، تحت راية خلافة إسلامية واحدة ، هى خلافة بنى العباس ، ولا ريب أن هذا قد تم بعـد أن سُـدّت أمـام دعاة الشيعة الإسماعيلية المسالك وصم المسلمون آذانهم عن دعوتهـم ، بعـد أن تـرددت فـى أرجـاء ديار الإسلام ، أصداء نداءات صلاح الدين والخلافة العباسية ، داعيـة إلى وحـدة المسـلمين ، للجهـاد فى سبيل الله ضد الصليبيين .

(١) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٢٦ – ١٣٢ .
(٢) أنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر .
(٣) قال أغلب الفقهاء ، بضرورة تنازل الخليفـة الجديـد للخليفـة القـائم لجمـع شـمل المسـلمين أنظر الماوردى : الأحكام ، ص ٧ – ٨ ، ابن أبى يعلى : الأحكام ، ص ٢٢ – ٢٥ .
(٤) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .
(٥) أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٦ : ٢٠٣ .

وظل الاتجاه السائد، طوال القرن السابع الهجرى، هو وحدة العالم الإسلامى حول الخلافة العباسية[1]، بحيث أصبحت فكرة قيام خلافة أخرى، أمرًا مستهجنًا من مؤرخى المشرق الإسلامى[2].

نهوض الأيوبيين بفريضة الجهاد :

آلت القيادة السياسية والعسكرية فى بلاد الشرق الإسلامى إذا إلى بنى أيوب، منذ الربع الأخير من القرن السادس الهجرى، بعد أن ورثوا ممتلكات الفاطميين بجنوب الشام والحجاز واليمن وبرقه، وممتلكات الزنكيين فى الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام؛ كما أمتد نفوذهم السياسى والعسكرى، إلى أقاليم مشرقية لم يمتد إليها من قبل نفوذ أى دولة حكمت مصر الإسلامية، بما فيها الخلافة الفاطمية ذاتها، أعنى إقليم أرمنية الإسلامية، أى أرمينية الصغرى، وهى بلاد خلاط

(١) أنظر خبر سفارة سلطان غزنة والهند إلى الخليفة العباسى ببغداد سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م يعلن خضوعه وولاءه للخلافة العباسية (أبو المحاسن : النجوم، ٦ : ٢٠٣).

وراجع كتاب ابن النساخ الى أرسله إلى صاحب بغداد أمير المؤمنين الناصر لدين الله أحمد. وابن النساخ هو الفقيه حسن بن محمد أحد علماء المطرفية الزيدية باليمن، من رجال أوائل القرن السابع. وقد كتب هذه الرسالة، بسبب ما تعرضت له هذه الفرقة من حرب الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة إمام الزيدية باليمن المتوفى سنة ٦١٤هـ لهم، وما تعرضوا له من اضطهاد وتشريد، وحكمه عليهم بالكفر والخروج عن الملة. وأول الكتاب. السلام عليك أيتها المنازل المقدسة بالأكياس المطهرة من الأدناس .. إلخ يطلب فيه من الخليفة إطفاء فتنة تأججت فى اليمن، وقد أذكى وقودها القائم (فى اليمن) من بنى الحسن (وهو الإمام المنصور المذكور). ومن هذا الكتاب نسخة بمكتبة الأمبروزيانا، فى ثلاث ورقات، برقم E33؛ ونسخة أخرى بدار الكتب الوطنية ببيروت. والنسختان مصورتان بمعهد المخطوطات برقم ١١٧٨ تاريخ، راجع فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المصورة، ج ٣، ق ٣، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، وأنظر يحى بن الحسين : أنباء الزمن، ورقة ٦٨ ب، من نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ؛ وأنظر السيد محمد زبادة فى كتابه : ائمة اليمن، ص ١٣٦، طبع صنعاء ١٩٥٢م.

(٢) يذكر ابن الفوطى أنه فى سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م، وصل رسول من محمد بن يوسف ابن هود إلى بغداد يخبر باستيلائه على معظم بلاد المغرب واستعادتها من أيدى غصابها بنى عبد المؤمن وإقامة الدعوة بها للدولة العباسية، أنظر الحوادث الجامعة ص ١٦ - ١٧، فى حين يذكر سبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م عند حديثه عن قيام الدولة الحفصية التى ورثت الدولة الموحدية بشمال أفريقية أنه :"فيها وصلت الأخبار باستيلاء إنسان على إفريقية وادعى الخلافة وتلقب بالمستنصر وخطب له فى تلك الضواحى وأظهر العدل والإنصاف، أنظر سبط : مرآة ٨ : ٧٩١، والطريف أن مؤرخى الدولة الحفصية قد ذكروا أنه فى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، التى انقرضت فيها الخلافة العباسية ببغداد، وصلت من مكة بيعة بالخلافة للخليفة المستنصر الحفصى، أنظر الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس ١٩٦٦م، ص ٣٤ - ٣٧.

وميافارقين ونواحيهما ، وتاخمت ممتلكاتهم بشمال الشام والجزيرة الفراتية ممتلكات دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، والدولة الخوارزمية بإيران[1] .

ومنذ وطد الأيوبيون أقدامهم فى حكم مصر ، وبتوجيه من نور الدين زنكى ، سلطان الشام والجزيرة الفراتية ، والزعيم السياسى للشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ، قام الأيوبيون بإرسال حملة من مصر فى سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م لغزو مملكة النوبة المسيحية ، أغلب الظن لفتح بلاد النوبة وضم هذه المملكة المسيحية إلى مصر ، وتأمين الحدود الجنوبية للديار المصرية ، ونشر الإسلام فى هذه المملكة المسيحية ، إذ كان أهل النوبة نصارى يعقوبية ؛ وإذا كانت هذه الحملة الأيوبية على بلاد النوبة، لم تكلل كليًا بالنجاح ، إلا أنها قد حققت بعض الانتصارات العسكرية ، فعادت بأعداد كبيرة من الأسرى والعبيد ، وساعدت على تقوية النفوذ السياسى والعسكرى لمصر على حدودها الجنوبية ، كما تمخضت أيضًا عن بناء بعض التحصينات والقلاع على هذه الجبهة ، التى ظلت منذ الفتح الإسلامى فى حكم المهادنين من أهل العهد ، بواقع معاهدة البقط التى وقعها المسلمون مع أهل النوبة بعد فتح مصر . ولقد أرسل نور الدين زنكى ، يهنىء الخليفة العباسى بأن نوابة بمصر وقواده بنى أيوب قد وصلوا فى غزوهم للنوبة إلى أراضى لم تطأها من قبل سنابك الخيل الإسلامية ، كما راح نور الدين يبشر الخليفة العباسى ، بأن فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى ، سيكون قريبًا[2] .

(١) أنظر زانباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥١م ، ١: ١٥٠ - ١٥٥ ، لين بول : تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩، ١: ١٣٩ - ١٥٨ ، كارل هنريش بيكر : دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية مادة " أيوبيون " المجلد الثالث ، ص ٢٢١ و ٢٢٢ . وأنظر قبله ، وأنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٢) أنظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ : ٩٨ - ١٠٠ ، ابو شامة : الروضتين ، وعن ذكر بلاد النوبة والبجة وأحوالهم والحديث عن ثغر النوبة ومذهب أهلها وتوقيعهم معاهدة البقط مع والى مصر منذ أول الفتح العربى بمصر ، والتى تقضى بدفعهم ضريبة عينية سنوية من القمح والعبيد على أن يكونوا فى حكم المعاهدين ، أنظر قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج ، الباب الثامن ، وهو لايزال مخطوط ولم ينشر ضمن النُبَذ التى نشرها دى غويه من هذا الكتاب ، ومنه نسخة مخطوطة كاملة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٧١ فقه حنفى ، وعن معاهدة البقط أنظر أيضًا المقريزى : الخطط ، طبع النيل ج ١ : ٣٢٢ - ٣٢٧ ، ابن الفقيه : مختصر البلدان ، ص ٧٦ - ٧٧ ، وقد عاب خضر بن أبى بكر ، فى كتابه المناقب المعزية - خ ، بدار الكتب المصرية ، الذى ألفه للسلطان عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك بمصر على الدولة الأيوبية التى سماها " الغزية " إنها لم تهتم بجبهة النوبة الجنوبية ولم تكمل فتحها ونشر الإسلام بها ؛ والمعروف أن فتح النوبة ونشر الإسلام بها قد تم فى عصر المماليك ٦٨٩هـ فى عهد السلطان قلاوون الذى أبقى أيضًا على شروط معاهدة البقط حتى بعد ضم النوبة إلى مصر ، أنظر المقريزى : السلوك ، ٢: ٧٥٢ .

كذلك نهض الأيوبيون بفريضة الجهاد فى جبهة أخرى ، لم ينتشر فيها الإسلام من قبل ، وهى مملكة أرمنية المسيحية ، وكان نور الدين زنكى ، سلطان بلاد الشام ، وزعيم بلاد المشرق الإسلامى قبل بزوغ نجم صلاح الدين ، قد حاول غزوها مرارًا ، فقام صلاح الدين بمحاولة تحقيق حلم سلفه العظيم ، وذلك بغزوة فى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م لبلاد أرمينية المسيحية ، التى كانت تتعاطف مع الحملات الصليبية القاطعة لبلاد آسيا الصغرى ، كما كانت تقف موقف العداء الحربى المسلح مع دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى التى كانت تتولى صد الموجات الأولى للحملات الصليبية القادمة من آسيا الصغرى ، بحيث جاء غزو صلاح الدين لمملكة أرمينيا المسيحية استجابة لاستنفار سلطان سلاجقة الروم له وتحقيقًا لحلم نور الدين زنكى[1] . وقد أحرز هذا الغزو العسكرى الأيوبى لمملكة أرمينية نصرًا سياسيًا هامًا ، وهو اضطرار ملك أرمينية المسيحية إلى إعلان دخوله فى طاعة صلاح الدين ، وتبادل السفارات الدبلوماسية معه ، وإعلانه الالتزام بنقل أخبار تحركات الحملات الصليبية عبر آسيا الصغرى إلى صلاح الدين[2] .

ولا يخفى أن حملات صلاح الدين على مملكتى النوبة المسيحية وأرمنية المسيحية ، كانت بمثابة موجة جديدة من موجات الفتوحات الإسلامية ، إذ جعل صلاح الدين الجهاد ديدنة وصيرة هجيراه[3] .

وما لبث صلاح الدين ، أن كلل جهوده فى الجهاد ، باسترداد بيت المقدس من أيدى الصليبيين فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م[4] ، باسم الخليفة العباسى بحيث أعلن الأيوبيون الخطبة للعباسيين على منابر بيت المقدس وغيره من بلاد الشام التى تم استردادها من الصليبيين ، وذلك بعد إعادة الشعائر الإسلامية إلى هذه البلاد ، التى كان الصليبيون قد حولوا مساجدها إلى كنائس ، فكان سلاطين بنى

(١) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ٩٨ – ١٠٠ ، أبو شامة : الروضتين .
(٢) أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية ، ١٢٤ – ١٢٦ .
(٣) أنظر ابن شداد : كتاب فضائل الجهاد ، ألفه لصلاح الدين ، مخطوط بمكتبة كوبرلى باستانبول برقم ٧٦٤ ، ويقول ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية ص ٢١ : " ولقد كان الجهاد وحبه ، والشغف به ، قد استولى على قلبه (أى صلاح الدين) وسائر جوانحه استيلاءًا عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله .. ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد ، أو يذكر شيئًا من أخبار الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابًا ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضله ، وشرحت غريبها ، وكان – رحمه الله – كثيرًا ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصرة " .
(٤) أنظر العماد : الفتح ، ص ٤٨ – ٥٨ ، وص ١١٦ – ١٤٧ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٢١١ – ٢٤١ ، ابن شاهنشاه : مضمار ، ص ٤ .

أيوب يغسلون هذه المقدسات الإسلامية لإزالة شعائر الكفرة عنها ، ويرفعون الرايات السـود ـ شعار العباسيين ـ على منابرها ، ثم يرتبون القومة لحفظها ، والمؤذنين والقراء لمداومة أداء الشعائر بها ، مع رصد الأوقاف عليها للعناية بإصلاحها وترميمها[١] .

وهنا نلاحظ أن جميع غزوات صلاح الدين ضد الصليبيين ، وفتوحاته لبلاد الساحل الشامى ، التى كانت خاضعة لسيطرتهم العسكرية ، قد تمت باسم الخلافة العباسية ، فكان صلاح الدين يستشير الخليفة ثم يرسل له مكاتبات رسمية فيها خبر البشارة بالنصر ، وتفاصيل هذه الانتصارات[٢] .

وليس أدل على اعتبار الخليفة هو الموجه الأعلى لرسالة الجهاد ، التى حملها الأيوبيون على أكتافهم فخورين ، من إطلاع صلاح الدين للخليفة ، على أسرار سياسته الخارجية الحربية الخاصة بعزل الجمهوريات الإيطالية التجارية ، جنوا والبندقية وبيزا ، عن الحركة الصليبية ، عن طريق عقد المعاهدات التجارية والعسكرية معهم ، ومنحهم بعض التسهيلات الجمركية فى ثغور مصر الشمالية ، نظير عدم تقديم أى مساعدة بحرية للقوى الصليبية بالشام ، وفى نفس الوقت إقرارهم بتخليهم التام عن مبادىء الدعوة الصليبية بالتزامهم بإمداد صلاح الدين بالأخشاب اللازمة لبناء الأساطيل وإمداده أيضًا بالأسلحة والعبيد المسيحيين، كذلك اطلع صلاح الدين ، أيضًا الخليفة العباسى ، على خبايا علاقاته الخارجية وسياسته الحربية تجاه الإمبراطورية البيزنطية ، وتجاه ملك صقلية النورماندى ، وكان كلاهما فى عداد أكبر ملكين من ملوك النصرانية[٣] .

وكما استطاع صلاح الدين عزل الجمهوريات الإيطالية عن الحركة الصليبية بواقع المعاهدات التجارية الحربية التى وقعها مع هذه الجمهوريات [٤] ، استطاع أيضًا فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ، أى بعد سنتين من استرداده لبيت المقدس ، توقيع معاهدة مع إمبراطور الدولة البيزنطية ، تقضى بعزل

(١) أنظر العماد: الفتح ، ص ٩٥ ، ص ١٠٨، ص ١١٨ - ١٢١ ، ص ١٣٧ - ١٤٠ ، ص ١٤١ - ١٤٤، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٢٢٩ - ٢٤١ .

(٢) أنظر نص خطاب عمادى بالبشرى بفتح القدس عند القلقشندى : صبح ج ٦: ٥١٧ - ٥٢٠ ، وأنظر أيضًا ثلاث مكاتبات فاضلية بالبشرى بفتح القدس عند القلقشندى أيضًا : صبح ج ٦ ، ص ٤٩٦ - ٥٠٤ ، ٦: ٥٠٤ - ٥٠٦ ، ٨: ٢٨١ - ٢٨٩ ، وأنظر أيضًا خطاب فاضلى إلى الخلافة بالبشرى بفتح بلد من بلاد النوبة ، القلقشندى : صبح ٦: ٥٠٦ - ٥١١ ، ج ٦ ، ص ٥١١ - ٥١٥ وأنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، دار النهضة العربية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ٦ - ٥٤ . حديثا عن الوثائق التى فقدت أصولها الأثرية .

(٣) أنظر القلقشندى : صبح ج ٦: ٥١٥ - ٥١٦ ، ج ١٣ : ٨١ - ٩٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٤) راجع تراجم تنشر لأول مرة لهذه المعاهدات ، مترجمة عن اللاتينية والإيطالية الدارجة ، عن أصولها المحفوظة بالأرشيفات الإيطالية ، أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، (ملامح الكتاب) .

الدولة البيزنطية كذلك عن الحركة الصليبية ، ومنح السلطان الأيوبى الامتياز الذى منح من قبل لسلاطين السلاجقة ، وهو الخطبة باسم السلطان الأيوبى والخليفة العباسى على منبر المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية . وهو الأمر الذى تم رسميًا فى سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م [١] .

والجدير بالملاحظة ، أن المراسلات بين بنى أيوب والخلافة العباسية ، كانت تتعرض لدقائق المسائل الإدارية الخاصة بإدارات الأقاليم التابعة للدولة الأيوبية ، كما أنها أبدت اهتمامًا خاصًا بطمأنة الخليفة العباسى على مداومة بنى أيوب ، تتبع بقايا الدعوة الإسماعيلية ودعاتها فى كل مكان ، واستمرار الدعوة للخلافة العباسية فى جميع البلدان التى يفتحها الأيوبيون[٢] . كذلك فإن تردد الرسل والسفارات بين سلاطين الأيوبيين والخلافة العباسية لم ينقطع إبدًا[٣] ، وهذا ما يفسر الخبر الذى أورده المؤرخون مقتضبًا ، ويفيد أنه حين استقر الملك العادل فى السلطنة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م « تراسل العادل مع الخليفة العباسى فى أمور مخفية »[٤] .

استجابة سلاطين بنى أيوب لدعوة الفتوة الناصرية الخليفتية :

وفى سبيل اكتمال الوحدة السياسية والمذهبية لبلاد المشرق الإسلامى ، حول الخلافة العباسية ، عمد خلفاء بنى العباس ، منذ عصر الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، الذى عاصر صلاح الدين ، وبلغت الخلافة فى عهده الطويل أقوى مراحل يقظتها ، إلى جمع ملوك الأطراف والسلاطين حول

(١) العماد : الفتح ، ص ٤١٤ ، ابن شداد : النوادر ، ١٣٢ - ١٣٣ ، سبط : مرآة ، ٨: ٤٠٤ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٣٢٨ - ٣٢٩ ، ابن عبد الظاهر : الدر النظيم ، ص ٣٧ - ٤٢ ، المقريزى : السلوك ، ١: ٩٨ ، هامش " ١ " .

(٢) يفيد العماد الأصفهانى ، أن القاضى الفاضل وزير صلاح الدين ، ونائبه بمصر ، كان قبل تراسله مع صلاح الدين بالشام ، يقف بنفسه على نسخ الرسائل العراقية الواردة من الخلافة العباسية ، أنظر العماد : البرق - خ ، ٣٨ أ - ٣٩ أ ، وراجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، ص ٦ - ٥٤ . وأنظر رسائل فاضلية لصلاح الدين بالشام ، عند العماد : البرق ، ٣: ٥٠ أ - ٥٧ ب ، ٦٤ ب ، ٦٧ ب .. إلخ .

(٣) أنظر العماد : الفتح، ص ١٨٣ - ١٨٩ ، ٢٧٩ - ٢٨٤ ، ٣٦٥ - ٣٦٦ ، العماد : البرق - خ ، ج ٣، لوحة ١١٤ ب - ١١٥ أ ، وأنظر ابن واصل : مفرج ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ٣١٤ ، وأنظر نص خطاب " تذكرة " ، حملة سفير من قبل صلاح الدين ، إلى " أبواب الخلافة العباسية " عند القلقشندى : صبح ، ج ١٣ ، ص ٨٧ - ٩٠ .

(٤) أنظر المصادر الواردة فى الحاشية السابقة .

الخلافة ، فى تنظيم اجتماعى عسكرى ، عرفته تجمعات الفتيان العرب منذ الجاهلية[1] ، وبعثه الخليفة المتصر من جديد ، لأسباب سياسية وعسكرية ، هى محاربة الصليبيين[2] ، والنهوض بفريضة الجهاد .

ففى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ، لبس الخليفة الناصر سراويل الفتوة ، على يد اثنين من رؤساء جماعات الفتوة ، وهما عبد الجبار ويوسف المعروف بالعقاب ، ولم يبق أحد ممن كان قريبًا منه إلا ولبس منه سراويلاً ، وأمر الخليفة أبا على الدارمى ، أن يكون نقيب الجماعة ، وأن يخطب ويذكر شروط الفتوة ، ويشيد بأخلاقها الشريفة[3] ، ثم أخرج الخليفة منشورًا من قبله ، ليقرأ على الناس ، بشأن الفتوة والإشادة بتعاليمها ، وإظهار فضائلها[4] .

وقد أوحى الخليفة الناصر لدين الله ، إلى مفكرى وفقهاء عصره ، بالتأليف فى قواعد ونظم الفتوة[5] ، وشروط وصفات الفتيان[6] ، ورسوم التحاق الفتى بهذا التنظيم ، عن طريق شرب كأس الفتوة هو من ماء وملح[7] ، ثم يتولى نقيب الجماعة حزمه بحزام ، يعبر عنه بـ « الشد » و « التكميل »[8] ، كنوع من أخذ العهد ، ثم إيراد القصص التى تشيد ببطولات الفتيان وشهامتهم[9] ؛ وقد ساق من ألف فى نظم الفتوة ، سندًا للفتيان ولسراويلهم التى يتزيون بها ، يرجع إلى الإمام على بن أبى طالب ، الذى لقبوه بسيد الفتيان ، ثم إلى النبى صلى الله عليه وسلم[10] .

(١) أنظر مصطفى جواد : الفتوة والفتيان قديمًا ، مجلة لغة العرب ، إبريل ١٩٣٠ ، أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام ، القاهرة ، مجموعة اقرأ ١٩٥١ ، أحمد أمين : الفتوة فى الإسلام ، مجلة كلية الأداب ، ج ١ ، مايو ١٩٤٢ ، الطبعة الثانية ١٩٥٣م ، ص ١ – ٢١ .

(٢) عن هذه الفكرة ، أنظر عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ، د. ت. ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٣) أنظر ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٨٦ ، ص ١٧٧ و ص ١٧٩ – ١٨٠ .

(٤) ابن الساعى : الجامع المختصر ، بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، تحقيق مصطفى جواد ، ٩ : ٢٣٣ – ٢٣٥ .

(٥) أنظر ابن المعمار الحنبلى : كتاب الفتوة ، تحقيق مصطفى جواد وأخرون ، بغداد ١٩٥٨ ؛ كتاب الفتوة ، تحقيق فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٩ م .

(٦) نفس المصدر ، طبعة مصطفى جواد ، ص ١٥٢ – ١٦٨ .

(٧) ابن المعمار الحنبلى : كتاب الفتوة ، ص ٢٥١ – ٢٥٤ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٢٣١ – ٢٤١ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٢٦٢ – ٢٨٥ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ١٤٨ .

كذلك أوعز الخليفة الناصر إلى مفكرى وفقهاء عصره ، بالتأليف فى آداب الرمى بالبندق ، ورسومها وفنونها ، وأحكامها الفقهية[1] ، وهى رياضة عرفها المسلمون منذ عهد الخليفة الراشد عثمان ، ولكن الخليفة العباسى الناصر ، جعل رمى البندق فنًا ، لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها[2] .

والمتبع لكتب الحوليات ، يلاحظ أن سلاطين بنى أيوب ، كانوا أول من قصدهم الخليفة الناصر ، ليضمهم إلى تنظيمه الجديد الخاص بالفتوة ، الذى جعل من نفسه فيه الرئيس الأعلى ، ففى سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م ، بعث الخليفة الخلع وسراويلات الفتوة إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأولاده، مع عبد الجبار والعقاب ، نقيبى تنظيم الفتوة بالعراق ، فلبس العادل الخلع والسراويلات[3]، ولا ندرى إن كان الخليفة ، قد كرر هذه السفارة مرة أخرى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م[4] ، وهى السنة التالية مباشرة لإرسال التقليد والخلع الخليفتية للملك العادل سنة ٦٠٤هـ . إثر الاعتراف به سلطانًا على جميع البيت الأيوبى[5] ، أم أن ثمة خلاف بين المؤرخين حول تحديد سنة هذا الحدث ، إذ تشير بعض المصادر أنه فى سنة ٦٠٥هـ ، وصل إلى السلطان الملك العادل وإلى جميع أولاده سراويلات الفتوة ، صحبة رسل الخلافة ، وصحبتها خلع عظيمة ، فلبسوا ولبس كل أحد ممن يلوذ به من أمرائه وخاصته وشاع لبس ذلك فى الناس[6] .

ويبدو أن استجابة بنى أيوب للانتساب للخليفة فى لبس سراويل الفتوة ، عن طريق «وكلائه» وسفرائه ، من رؤساء التنظيم ببغداد ، قد شجع الخليفة على مراسلة بقية ملوك الأطراف بالمشرق الإسلامى ، لنفس هذا الغرض ، ففى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م ، وردت الرسل على ملوك الأطراف ، تناشدهم شرب كأس الفتوة للخليفة الناصر ، ولبس سراويلها ، « ليكون انتمائهم له » ، وأمر كل

(١) أنظر ابن البقال : كتاب المقترح فى المصطلح ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٦٣٩ منه نسخة بالفوتستات بدار الكتب المصرية .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٩ – ١٦٠ .

(٣) سبط : مرآة ، ٨: ٥١٣ .

(٤) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ١٦٥ .

(٥) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٦) ابن أيبك : الدر ، ص ١٦٥ ، وقارن بحث المستشرق نشر : الفتوة والخليفة الناصر ، ترجمة صلاح الدين المنجد فى كتابه المنتقى من دراسات المستشرقين الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٥م ، ص ١٨٧ – ٢٠٤ .

ملك أن يسقى رعيته ويلبسهم ، « لتنتمى كل رعية إلى ملكها » ، ففعلوا ذلك ، وأحضر كل ملك قضاة مملكته وفقهاءها وأمراءها وأكابرها ، وألبس كلاً منهم له ، وسقاه كأس الفتوة ، كما أمر الخليفة الملوك أيضًا ، أن تنتسب إليه فى رمى البندق ، وتجعله قدوتها فيه[1] .

فكان من أراد الانتظام فى سلك هذا التنظيم من ملوك الأطراف ، يأتى بغداد ، فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه ، أو يعهد بهذا إلى أحد أكابر أمرائه بالوكالة عنه ، فبطلت الفتوة فى البلاد جميعها ، إلا من لبس سراويلها منه ، ومنع الرمى باللبندق ، إلا من ينتسب إليه[2] .

وأغلب الظن أن الخليفة الناصر ، قد أراد جمع شمل رعية كل ملك ، فى تنظيم شعبى عسكرى لا ينفصم ، وربط جميع ملوك وسلاطين المشرق الإسلامى حول الخلافة ، فى رباط موحد أيضًا ، لتكوين جبهة إسلامية واحدة ، تستمد وحدتها وتآلفها من الشعور الشعبى الموحد للأمة الإسلامية فى جهاد الصليبيين ، بحيث تم تجميع القوى المعنوية الإسلامية ، والقيم الأخلاقية ، والمهارات الحربية للفتوة ، فى سبيل الإعداد المعنوى والحربى للأمة ، تحت راية الخليفة العباسى ، الزعيم الروحى للإسلام .

ويبدو أن تزعم البابوية لحركة الصليبيات Goisades ،قد أدى إلى مسارعة المسلمين حكامًا وشعوبًا لقبول هذه الفكرة ، خاصة وقد لاحظ المؤرخون فى هذا العصر ، « أن البابا هو خليفة الفرنج »[3] .

(١) ابن واصل : مفرج ، ٣: ٢٠٦ - ٢٠٧ ، المقريزى : السلوك ، ١: ١٧٢ ، ٢١٨س ٦ - ٧ ، الذى يقول: " وحمل أهل الأمصار على ذلك " ، ابن الساعى : مختصر أخبار الخلفاء ، ص ١٠٩ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٢ : ٤٤٠ ، س ١٠ - ١٨ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٦: ٢٦١ - ٢٦٣ ، الذى يذكر أن الملك شهاب الدين صاحب غزنة والهند قد لبس سراويل عن الخليفة الناصر أيضًا .

(٢) أنظر مصطفى زيادة : هامش "١" على السلوط للمقريزى ، ج ١ : ١٧٢ ، جمال الشيال : هامش "٢" على مفرج ابن واصل ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ ، وأنظر ابن واصل : مفرج ٤: ١٦٤ - ١٦٥ .

(٣) أنظر نصوص هامة أوردها سبط ابن الجوزى تفيد هذا المعنى على لسان ملوك وأباطرة أوربا وبملاحظة المؤرخين المسلمين أيضًا ، أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٨٠ ، ٦٢٠ س ١٩ ، ٦٥٣ - ٦٥٧ ، ٦٨٥ ، ٧٦٣، ابن واصل : مفرج ، ٤: ٢٥١ . والواقع أن أغلب ملوك الأطراف المسلمين قد استجابوا لدعوة الفتوة الناصرية ، ففى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م راسل الخليفة الناصر جلال الدين منكبرتى سلطان الدولة الخوارزمية وأرسل إليه اثنين من نقباء الفتوة ليلبسوه سراويلها وكالة عن الخليفة ، وكان ذلك بموجب سؤاله ، وقد أظهر خوارزمشاه قبوله لهذه المنحة الخليفتية ، بأن أرسل إلى بغداد بعد أيام رسول من قبله برسالة يشكر فيها =

وأغلب الظن أن نقباء الفتوة ، الذين عاصروا عصرى الناصر وابنه المستنصر ، أرادوا تقوية هذا النظام ، وأثره النفسى والمعنوى فى نفوس مريديه ، حين أوحوا إلى الخليفة المستنصر ، وقد بات زوال نجم خلافة بنى العباس وشيكًا ، بأن يوهم الناس بأنه لبس سراويل الفتوة من أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فامتثل لهم المستنصر ، بحيث توجه إلى مشهد الإمام على سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م ، ولبس السراويل فى ضريحه[1] ، فلا غروًا أن توارث خلفاء الخليفة الناصر نظام الفتوة ، حتى زمن المستعصم، آخر خلفاء بنى العباس بالشرق[2] .

وفى رأينا أن نظام الفتوة ، كما أراد الخليفة الناصر تعميمه فى العالم الإسلامى ، كان يهدف من ناحية أخرى إلى محاربة الدعوة الفاطمية واستقطاب المتحمسين للتشيع للانخراط فى زمرة الفتيان الناصرية ، فليس عن قبيل الصدفة أن هذا السند - المفتعل بلا ريب - لسراويل الفتوة ، يرتقى إلى الإمام على - أول إمام تشيع له شيعة بنى هاشم ، ثم إلى النبى ، فالذى ابتكر هذا السند ولفّقه ، قد حرص كل الحرص على إرضاء الشيعة وجذبهم إلى هذا التنظيم الذى ترأسه الخليفة العباسى الناصر ، خاصة وقد عرفت عن هذا الخليفة ، أو ربما روج هو هذا القول عن نفسه ، أنه كان يميل إلى التشيع للإمام على[3] .

= الخليفة على هذا الإنعام . (ابن الفوطى : الحوادث ص ٤ - ٥ وص ١٤) . وفى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م وفد إلى بغداد أرسلان شاه بن عماد الدين زنكى صاحب شهرزور ، فشرفه أحد كبار أمراء البلاط الخليفى بلباس الفتوة نيابة ووكالة عن الخليفة ، بعد أن خلع عليه (نفس المصدر ، ص ٨٩ - ٩٠) وفى سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ، سأل الملك الأشرف موسى الأيوبى ، صاحب دمشق ، سراويل الفتوة من الخليفة الناصر ، فأنفذ إليه الخليفة من فتاة - أى جعله فتًا - بطريق الوكالة . (نفس المصدر : ١٠٦) . كذلك وفد إلى بغداد رسول من قبل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م شهد أن ابنه رمى بالبندق ، وانتسب فى ذلك إلى الخليفة الناصر ، فقبل ذلك (نفس المصدر ، ص ١٤٣) ، ويبدو أن هذا الأمر أصبح عرفًا متبعًا ، شأنه شأن التشريفات الخليفتية ، لجميع ملوك الأطراف الوافدين على دار الخلافة ، فحين وصل إلى بغداد أمير المدينة المنورة سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م ، تشرف بلباس الفتوة عن الخليفة (نفس المصدر ، ص ١٢٦) ، ومما يؤكد أن هذا التنظيم كان يهدف إلى تأكيد الولاء للخليفة ، أن الناصر لدين الله كان إذا أراد العفو عن بعض أمرائه بعد الوحشة بينهما ، كان يلبسه هذه السراويل (نفس المصدر ، ص ١٣٠) ، بمعنى أنه أصبح من خواص رجاله .

(١) ابن الفوطى : الحوادث ، ص ٢٥٧ .

(٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ، ص ٢٤٩ .

(٣) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ١٢ : ٤٣٨ - ٤٤٠ ، ابن دحيه : النبراس ، ص ١٦٤ ، الذهبى : المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد لابن الدبيثى ، ص ١٧٩ ، المقريزى : السلوك ، ١ : ٢١٧ - ٢١٩ .

ويقوى هذا الظن أن دعاة الفتوة ، كانوا قد نجحوا في اجتذاب أغلب نقابات الصناع والحرفيين[1] ، التي ظلت طوال العصر الفاطمي ، وحتى أوائل العصر الأيوبي ، من المستجيبين للدعوة الفاطمية[2] ، وفي نفس الوقت نجحوا في جذب فتيان الصوفية ، الذين عرفوا بالملامتية ، وعرفت لهم من أخلاق الفروسية والنخوة والشهامة منذ حوالى القرن الرابع الهجري ، ما يقرب تنظيماتهم وأهدافهم مع طائفة الفتوة[3] والصلة بين التصوف والتشيع معروفة[4] .

والواقع أن نظام الفتوة ، كان أحد الوسائل التي حاول دعاة الفاطميين استغلالها لتكوين جماعات من الفتيان تدين بالولاء للخليفة الفاطمي في العراق وباقي ممتلكات الخلافة العباسية[5] . وتؤكد مشاهدات ابن جبير في بلاد الشام ، تحت الحكم الأيوبي ، تحول طوائف الفتوة بالشام إلى الدعوة السنية وتحمسهم لها ، وتتبعهم للرافضة (الشيعة الفاطميين) بدمشق ، وقد تميزت هذه الطائفة السنية من الفتيان باسم « الطائفة النبوية » فيقول أنه وجد في الشام جماعة من السنيين ، يعرفون بأهل الفتوة ، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية ، وكانوا حربًا على الشيعة .. وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم ؛ ثم راح ابن جبير يتحدث على مذاهب الشيعة ، مشوهًا لها لكونه سني المذهب ، ويتهمهم بالضلال ، إذ « قد أضلهم الله ، فأضل بهم كثيرًا من خلقه ، وسلط الله على هذه الرافضة ، طائفة أهل الفتوة ، الذين عرفوا بالنبوية »[6] .

وبالإضافة إلى ما حققته « دعوة الفتوة الناصرية » ، من نفوذ للخليفة العباسي لدى ملوك وسلاطين المسلمين ، وما نجحت فيه من محاربة بقايا الشيعية الإسماعيلية وضم شيعتها إلى الدعوة السّنّية، أحدثت مفاهيم وخلق المثل العليا للفتوة والفروسية الإسلامية ، ردود فعل في الغرب

(١) أنظر أحمد أمين : الصعلكة والفتوة في الإسلام ، فؤاد حسنين علي : مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار .

(٢) أنظر عبد الحميد العبادي : كتب الحسبة وفائدتها ، ، ص ٤٢٣ .

(٣) أنظر أبو العلا عفيفي : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، د. ت . وأنظر محمد فهمي عبد اللطيف : الفتوة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

(٤) راجع ما تقدم .

(٥) راجع خبر طويل هام أورده ابن الجوزي يؤكد هذا في المنتظم ، ج ٨: ٣٢٦ - ٣٢٧ ، حيث يقول على جماعة لفتيان الفتوة الذين قبضت عليهم السلطات العباسية بالعراق سنة ٤٧٣هـ " إن هؤلاء القوم يدعون لصاحب مصر (أي الخليفة الفاطمي) ، ويجعلون ذكر الفتوة عنوانًا لجميع الكلمة على هذا الباطن " .

(٦) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٢ .

الأوربى، جسدتها فى خيال الأوروبيين سيرة البطل العربى الشهير أسامة بن منقذ[1] ، وسيرة البطل الكردى السلطان صلاح الدين ، الذى أصبح اسمه الأوربى Saladin رمزًا للعظمة والمجد والوفاء ؛ ويؤكد البعض أن الفروسية جسمًا وروحًا قد نقلتها أوربا عن العرب، وتبددت فى نظام فرسان المعبد، كما اكتسبت ثروة نفسية وخلقية من الفروسية العربية[2] ، وقد نقل الأيوبيون عن الخلافة العباسية نظام الفتوة ، وورثة عنهم المماليك ، بحيث صار السلطان المماليكى ، هو الرئيس الأعلى لطائفة الفتوة فى عصره[3] .

ولا يغيب عن أذهاننا ، أن الظروف السياسية والحربية ، التى عاشها العالم الإسلامى ، فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، ١٢ - ١٣م ، نتيجة للوجود الصليبى فى بلاد الساحل الشامى ، قد حتم على الخلافة العباسية ، وملوك الأطراف المسلمين ، فضلاً عن تجمعهم حول هذا التنظيم السياسى والاجتماعى للفتوة ، بغرض جمع شمل الوحدة السياسية والعسكرية فى ديار الإسلام ؛ حتم عليهم أيضًا إعداد شعوبهم وخاصة الشباب والفتيان والأحداث ، إعدادًا رياضيًا عسكريًا ، هو أقرب ما يكون إلى تنظيمات « المقاومة الشعبية » أوهيئات « الكشافة » ؛ ولا ريب ، أن إطلاق تسمية « الفتوة » على التدريبات العسكرية والرياضية التى يتلقاها طلبة المدارس والجامعات اليوم ، هى تسمية موفقة جدًا ، ولها دلالتها المستمدة من أحداث التاريخ الإسلامى .

(١) أنظر عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ، ص ٢٧٧ ، وأنظر أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار أو سيرة أسامة، وقد نشره Derenbourg باريس ١٨٩٩م ، وإعادة نشره فليب حتى فى برنستن سنة ١٩٣٠م .

(٢) أنظر عمر الدسوقى . المرجع السابق ، ٢٦٧ - ٢٧٦ .

(٣) أنظر نفس المرجع ، ص ٢٥٥ ، نقلاً عن السلوك للمقريزى ، ١: ٧٢٥ .


Bibliotheca Alexandrina
1240030